التدبر والبيان

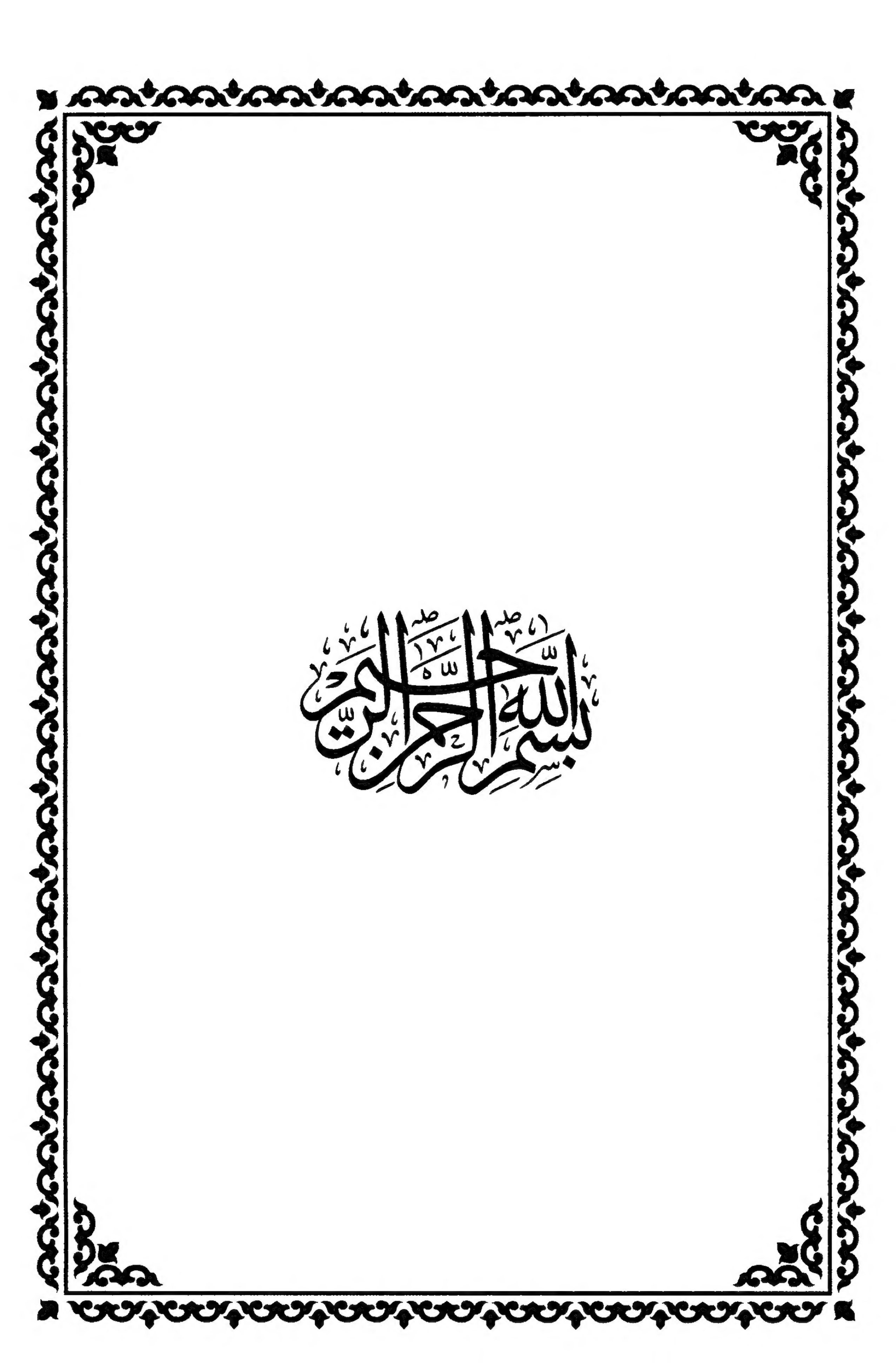
في

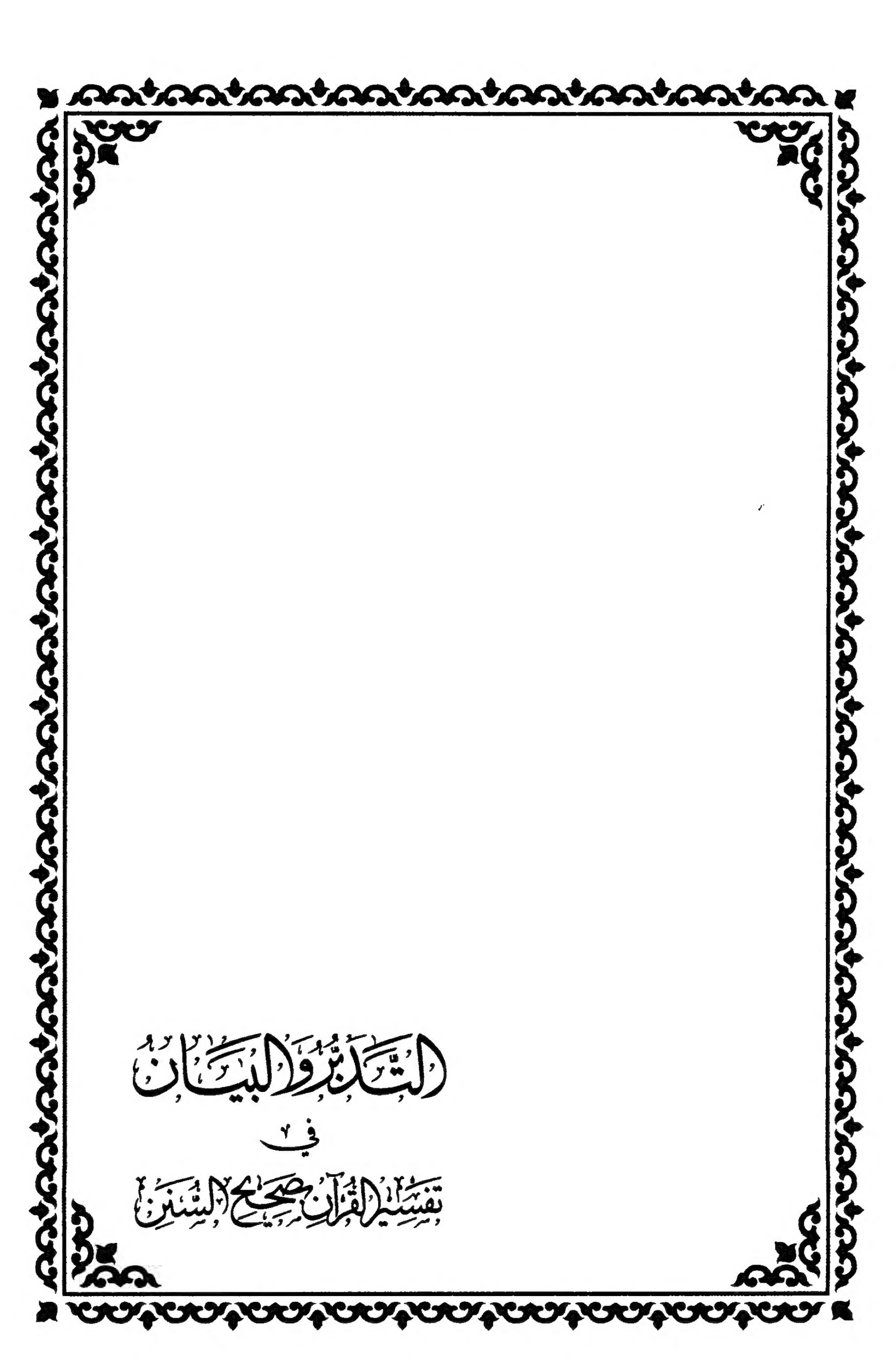
تفسير القرآن بصحيح السنن

تأليف الأستاذ الدكتور
أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الرابع عشر

سورة يونس


بسم الله الرحمن الرحيم


التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن



الطَّبعَـة الأولى

١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : **AT-TADABBUR WAL-BAYĀN**
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 عدد الصفحات (40 مجلداً)

Size 17x24 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنـــان

Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ ـ ١٤٧ ـ ٣٣ ـ ٩٩٥٤ ـ ٩٧٨



سورة يونس

مقاصد السورة

قال ابن عاشور: «ابتدأت بمقصد إثبات رسالة محمد ﷺ بدلالة عجز المشركين عن معارضة القرآن، دلالة نبه عليها بأسلوب تعريضي دقيق بني على الكناية بتهجية الحروف المقطعة في أول السورة كما تقدم في مفتتح سورة (البقرة)، ولذلك أتبعت تلك الحروف بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1] إشارة إلى أن إعجازه لهم هو الدليل على أنه من عند اللّٰه. وقد جاء التصريح بما كني عنه هنا في قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[2] وأتبع بإثبات رسالة محمد ﷺ وإبطال إحالة المشركين أن يرسل اللّٰه رسولًا بشرًا. وانتقل من ذلك إلى إثبات انفراد اللّٰه تعالى بالإلهية بدلالة أنه خالق العالم ومدبره، فأفضى ذلك إلى إبطال أن يكون لله شركاء في إلهيته، وإلى إبطال معاذير المشركين بأن أصنامهم شفعاء عند اللّٰه. وأتبع ذلك بإثبات الحشر والجزاء. فذلك إبطال أصول الشرك.

وتخلل ذلك بذكر دلائل من المخلوقات، وبيان حكمة الجزاء، وصفة الجزاء، وما في دلائل المخلوقات من حكم ومنافع للناس، ووعيد منكري البعث المعرضين عن آيات اللّٰه، وبضد أولئك وعد الذين آمنوا. فكان معظم هذه السورة يدور حول محور تقرير هذه الأصول.

فمن ذلك التنبيه على أن إمهال اللّٰه تعالى الكافرين دون تعجيل العذاب هو

---

(١) الآية (١).

(٢) يونس: الآية (٣٨).

حكمة منه .

ومن ذلك التذكير بما حل بأهل القرون الماضية لما أشركوا وكذبوا الرسل .

والاعتبار بما خلق اللَّه للناس من مواهب القدرة على السير في البر والبحر ، وما في أحوال السير في البحر من الألطاف .

وضرب المثل للدنيا وبهجتها وزوالها ، وأن الآخرة هي دار السلام .

واختلاف أحوال المؤمنين والكافرين في الآخرة ، وتبرؤ الآلهة الباطلة من عبدتها .

وإبطال إلهية غير اللَّه تعالى ، بدليل أنها لا تغني عن الناس شيئا في الدنيا ولا في الآخرة .

وإثبات أن القرآن منزل من اللَّه ، وأن الدلائل على بطلان أن يكون مفترى واضحة .

وتحدي المشركين بأن يأتوا بسورة مثله ، ولكن الضلالة أعمت أبصار المعاندين .

وإنذار المشركين بعواقب ما حل بالأمم التي كذبت بالرسل ، وأنهم إن حل بهم العذاب لا ينفعهم إيمانهم ، وأن ذلك لم يلحق قوم يونس لمصادفة مبادرتهم بالإيمان قبل حلول العذاب .

وتوبيخ المشركين على ما حرموه مما أحل اللَّه من الرزق .

وإثبات عموم العلم لله تعالى .

وتبشير أولياء اللَّه في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

وتسلية الرسول عما يقوله الكافرون .

وأنه لو شاء اللَّه لآمن من في الأرض كلهم .

ثم تخلص إلى الاعتبار بالرسل السابقين نوح ورسل من بعده ثم موسى وهارون .

ثم استشهد على صدق رسالة محمد ﷺ بشهادة أهل الكتاب .

وختمت السورة بتلقين الرسول عليه الصلاة والسلام مما يعذر به لأهل الشك في دين الإسلام، وأن اهتداء من اهتدى لنفسه وضلال من ضل عليها، وأن اللَّه سيحكم بينه وبين معانديه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل سورة (يونس) وأنها سابعة الطوال

* عن أبي سعد مولى أبي أسيد الأنصاري قال: «سمع عثمان بن عفان رضي الله عنه أن وفد أهل مصر قد أقبلوا فاستقبلهم، فلما سمعوا به أقبلوا نحوه. قال: وكره أن يقدموا عليه المدينة. قال: فأتوه فقالوا له: ادع بالمصحف وافتتح السابعة -وكانوا يسمون سورة (يونس) السابعة- فقرأها حتى أتى على هذه الآية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[٢] فقالوا له: قِف، أرأيت ما حمَيْت من الحمى؛ آلله أذن لك أم على اللَّه تفتري؟ قال: فقال: امضه، نزلت في كذا وكذا، فأمّا الحِمى فإنّ عمر حمَى الحمى قبلي لإبل الصدقة، فلما وُليت وزادت إبلُ الصدقة فزدت في الحمى لما زاد في الصدقة»[٣].

★ **غريب الحديث:**

الوفود: يقال: وَفَد فلانٌ على الأمير؛ أي: وَرَد رسولًا، وبابه (وَعَدَ)، فهو وافِد والجمع وفْدٌ.

الحِمى: هو ما يُحمى للخيل التي تُرصد للجهاد، والإبل التي يحمل عليها في سبيل اللَّه، وإبل الزكاة وغيرها، كما حمى عمر بن الخطاب النقيع لنَعَم الصدقة والخيل المُعَدّة في سبيل اللَّه.

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٧٩-٨٠).
(٢) يونس: الآية (٥٩).
(٣) أخرجه: ابن أبي شيبة (٧/ ٥٢٠-٥٢١/ ٣٧٦٩٠)، وابن حبان (١٥/ ٣٥٧-٣٦١/ ٦٩١٩) مطولًا، والحاكم (٢/ ٣٣٩) واللفظ له، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الحديث:**

فيه فضل سورة (يونس)، وأنها من السبع الطوال، وقوله في الحديث: ««وكانوا يسمون سورة (يونس): السابعة» حكاية عن تسميتها بذلك في عصر الصحابة وهم متوافرون، وكون عثمان ﷺ يفتح عليها ويقرأ منها واضح الدلالة على مرادنا.

ومما سبق يتبين أن سابعة الطول هي (يونس)، وأنه القول الذي لا ينبغي العدول عنه؛ لصحته عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، ولعدم وجود ما ينتهض لمعارضته»[1].

وقد قوى ابن جرير كون السابعة (يونس) بحديث يزيد الفارسي قال: حدثني ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى (الأنفال) وهي من المثاني، وإلى (براءة) وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم اللَّه الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال... الحديث.

قال ابن جرير: «فهذا الخبر ينبئ عن عثمان بن عفان رحمة اللَّه عليه أن لم يكن تبيّن له أن (الأنفال) و(براءة) من السبع الطول، ويصرح عن ابن عباس أنه لم يكن يرى ذلك منها»[2].

* * *

(١) موسوعة فضائل سور وآيات القرآن الكريم للطرهوني (١/ ٢٨٥-٢٨٦).
(٢) جامع البيان (١/ ٦٧).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله تعالى ﴿الٓر﴾ الحروف المقطعة في أوائل السور تقدم الكلام عليها مستوفى في أوائل سورة (البقرة).

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يعني: «هذه آيات القرآن، ووجّه معنى ﴿تِلْكَ﴾ إلى معنى هذه... والآيات الأعلام. والكتاب اسم من أسماء القرآن... ومعنى ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في هذا الموضع: المحكَم، صُرف مُفعل إلى فعيل، كما قيل عذاب أليم، بمعنى مؤلم... فمعناه إذًا: تلك آيات الكتاب المحكم الذي أحكمه اللَّه وبيّنه لعباده، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[١]»[٢].

* * *

(١) هود: الآية (١).
(٢) جامع البيان (١١/ ٨٠).

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أكان عجبًا للناس إيحاؤنا القرآن على رجل منهم بإنذارهم عقاب اللَّه على معاصيه، كأنهم لم يعلموا أن اللَّه قد أوحى من قبله إلى مثله من البشر، فتعجبوا من وحينا إليه»[2].

قال ابن كثير: «يقول تعالى منكرا على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون الماضين من قولهم: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾[3] وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾[4] وقال تعالى مخبرًا عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[5]»[6].

قال صديق حسن خان: «وليس في هذا ما يقتضي العجب، فإنه لا يلابس الجنس ويرشده ويخبره عن اللَّه سبحانه إلا من كان من جنسه، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة أو من الجن، ويتعذر المقصود حينئذ من الإرسال؛ لأنهم لا يأنسون إليه، ولا يشاهدونه، ولو فرضنا تشكله لهم وظهوره؛ فإما أن يظهر في غير شكل النوع الإنساني وذلك أوحش لقلوبهم، وأبعد من أُنسهم، أو في الشكل الإنساني فلابد من إنكارهم لكونه في الأصل غير إنسان، هذا إن كان العجب منهم لكونه من جنسهم. وإن كان لكونه يتيمًا أو فقيرًا؛ فذلك لا يمنع من أن

---

(١) الآية (٢).

(٢) جامع البيان (١١/ ٨٠).

(٣) التغابن: الآية (٦).

(٤) الأعراف: الآية (٦٣).

(٥) ص: الآية (٥).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٤٥).

يكون من كان كذلك جامعًا من خصال الخير والشرف ما لا يجمعه غيره، وبالغًا في كمال الصفات إلى حد يقصر عنه من كان غنيًا أو غير يتيم، وقد كان لرسول اللَّه ﷺ -قبل أن يصطفيه اللَّه بالرسالة- من خصال الكمال عند قريش ما هو أشهر من الشمس، وأظهر من النهار، حتى كانوا يسمونه الأمين»[١].

وقال الزمخشري: «فإن قلت: فما معنى (اللام) في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ وما الفرق بينه وبين قولك: كان عند الناس عجبًا؟ قلت: معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه علمًا لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم، وليس في (عند الناس) هذا المعنى، والذي تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر، وأن يكون رجلًا من أفناء رجالهم، دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون: العجب أنّ اللَّه لم يجد رسولًا يرسله إلى الناس إلَّا يتيم أبي طالب، وأن يذكر لهم البعث وينذر بالنار ويبشر بالجنة، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب؛ لأنّ الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلاّ بشرًا مثلهم. وقال اللَّه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[٢]، وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب أيضًا؛ لأنّ اللَّه تعالى إنما يختار من استحق الاختيار لجمعه أسباب الاستقلال لما اختير له من النبوّة؛ والغنى والتقدم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء؛ ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾[٣]. والبعث للجزاء على الخير والشرّ هو الحكمة العظمى فكيف يكون عجبًا؟ إنما العجب العجيب والمنكر في العقول تعطيل الجزاء»[٤].

* * *

---

(١) فتح البيان (٦/ ١٠٠).
(٢) الإسراء: الآية (٩٥).
(٣) سبأ: الآية (٣٧).
(٤) الكشاف (٢/ ٢٢٤).

قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾

⋆ غريب الآية:

قدم صدق: القدم: السابقة. قال حسان رضي الله عنه:

لنا القدم العليا إليك وخلفنا لأوّلنا في طاعة اللّه تابع

يريد: السابقة بإخلاص الطاعة. قال أبو عبيدة: كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه- : أكان عجبا للناس أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس، وأنْ بشر الذين آمنوا بالله ورسوله أن لهم قدم صدق، عطف على ﴿أَنذِرِ﴾.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: قَدَمَ صِدْقٍ فقال بعضهم: معناه: أن لهم أجرا حسنا بما قدّموا من صالح الأعمال. . .

وقال آخرون: معناه: أن لهم سابق صدق في اللوح المحفوظ من السعادة. . .

وقال آخرون: معنى ذلك أن محمدًا ﷺ شفيع لهم؛ قَدَمُ صدق. .

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: معناه أن لهم أعمالًا صالحة عند الله يستوجبون بها منه الثواب، وذلك أنه محكيّ عن العرب: هؤلاء أهل القدم في الإسلام، أي: هؤلاء الذين قدموا فيه خيرا، فكان لهم فيه تقديم، ويقال: له عندي قدمُ صدق، وقدمُ سوء، وذلك ما قدم إليه من خير أو شرّ. . فتأويل الكلام إذا: وبشر الذين آمنوا أن لهم تقدمة خير من الأعمال الصالحة عند ربهم»[1].

قال ابن القيم تعليقًا على قول من قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ

(١) جامع البيان (١١/ ٨١-٨٣).

رَبِّهِمْۗ﴾ سبقت لهم السعادة في الذكر الأول. قال رحمه الله: «وهذا لا يخالف قول من قال أنه الأعمال الصالحة التي قدموها، ولا قول من قال أنه محمد ﷺ، فإنه سبق لهم من اللَّه في الذكر الأول السعادة بأعمالهم على يد محمد ﷺ، فهو خيرٌ تقدم لهم من اللَّه، ثم قدمه لهم على يد رسوله ﷺ، ثم يقدمهم عليه يوم لقائه»[1].

قال الزمخشري: «﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾أي: سابقة وفضلًا ومنزلة رفيعة. فإن قلت: لم سميت السابقة قدمًا؟ قلت: لما كان السعي والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدمًا؛ كما سميت النعمة يدًا لأنها تعطى باليد، وباعًا لأنّ صاحبها يبوع بها، فقيل: لفلان قدم في الخير. وإضافته إلى (صدق) دلالة على زيادة فضل، وأنه من السوابق العظيمة»[2].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾

قال ابن جرير: «فتأويل الكلام إذًا: أكان للناس عجبًا أن أوحينا إلى رجل منهم، أن أنذر الناس، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم، فلما أتاهم بوحي اللَّه وتلاه عليهم؛ قال المنكرون توحيد اللَّه ورسالة رسوله: إن هذا الذي جاءنا به محمد لسحر مبين، أي يبين لكم عنه أنه مبطل فيما يدعيه»[3].

وقال أبو حيان: «ولما كان قولهم فيما لا يمكن أن يكون سحرًا ظاهر الفساد، لم يحتج قولهم إلى جواب؛ لأنهم يعلمون نشأته معهم بمكة، وخلطتهم له، وما كانت قلة علم، ثم أتى به من الوحي المتضمن ما لم يتضمنه كتاب إلهي من قصص الأولين والإخبار بالغيوب والاشتمال على مصالح الدنيا والآخرة، مع الفصاحة والبراعة التي أعجزتهم، إلى غير ذلك من المعاني التي تضمنها يقضي بفساد مقالتهم، وقولهم ذلك هو ديدن الكفرة مع أنبيائهم إذ أتوهم بالمعجزات، كما قال فرعون وقومه في موسى ﷺ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾[4]، ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾[5] وقوم عيسى ﷺ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[6] ودعوى السحر إنما هي على سبيل

---

(١) شفاء العليل (١/ ٨٥).
(٢) الكشاف (٢/ ٢٢٤).
(٣) جامع البيان (١١/ ٨٣).
(٤) الشعراء: الآية (٣٤).
(٥) القصص: الآية (٤٨).
(٦) الأنعام: الآية (٧).

العناد والجحد»[١].

وقال ابن عطية: «وقولهم في الإنذار والبشارة سحر؛ إنما هو بسبب أنه فرق بذلك كلمتهم وحال بين القريب وقريبه، فأشبه ذلك ما يفعله الساحر، فظنوه من ذلك الباب»[٢].

وقال الزمخشري: «﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: إن هذا الكتاب وما جاء به محمد ﴿لَسِحْرٌ﴾، ومن قرأ ﴿لَسَاحِرٌ﴾ فهذا إشارة إلى رسول الله ﷺ، وهو دليل عجزهم واعترافهم به وإن كانوا كاذبين في تسميته سحرًا»[٣].

وقال محمد رشيد رضا: «افتتح السورة بذكر آيات الكتاب، الناطق بالحكمة وفصل الخطاب، وأنكر على الناس عجبهم أن يوحي ربهم إلى رجل منهم أن يعلمهم به ما لا يعلمون من الدين الذي فيه سعادتهم، منذرًا من كفر بالعقاب، ومبشرًا من آمن بالثواب، وحكى عن الكافرين وصفهم لهذا الكتاب الحكيم وللرسول الذي جاء به بالسحر، إذ كان كل منهما من خوارق العادات، وقد وجد في البشر مشعوذون ودجالون يأتون بعض الخوارق التي لا يعرف الجماهير أسبابها، فرأوا أن هذا الكتاب المعجز للبشر بأسلوبه وبلاغته، وبعلمه وحكمته، وبتأثيره في العقول والقلوب، يصح أن يكون أو يوصف بأنه من هذا السحر المعهود وجوده، المجهول سببه، وأن هذا الرجل الذي جاء به ولم يعرف عنه قبله شيء من بلاغة القول، ولا من حكمة التشريع والعلم، يصح أن يعد منتحلًا للسحر، ولكن السحر لم يكن في يوم من الأيام حقائق علمية، ولا هداية نافعة كما تقدم، والسحرة لم يكونوا إلا أناسًا من المكتسبين باطلاع الناس على غرائبهم المجهولة لهم، فأين هذا وذاك من القرآن ومن جاء به، من حقائق ساطعة وهو لا يسأل عليها أجرًا، ولا يبتغي بها لنفسه نفعًا هي باقية بنفسها وبآثارها النافعة، والسحر باطل لا بقاء له؟ فالمتعين عند العقل أن يكون ما فيها من العلو على كلام البشر، والإعجاز الذي قامت به الحجة بالتحدي، وحيًا من رب العالمين، ونعمة منه عليهم بهداية الدين،

---

(١) البحر المحيط (٥/ ١٢٧-١٢٨).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ١٠٣).

(٣) الكشاف (٢/ ٢٢٤-٢٢٥).

الذي هو لجملتهم كالعقل لأفرادهم، ووجب على كل من يؤمن بهذا الرب العليم الحكيم، البر الرحيم، أن يؤمن بأن هذا من حكمة ربوبيته ورحمته بالعالمين، وإلا كانت صفاته ناقصة بحرمان هذا الإنسان من هذا النوع الأعلى من العرفان، والبينات من الهدى والفرقان»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (١١/ ٢٩٤).

قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

★ غريب الآية:

يدبر : التدبير : القضاء على حسب الحكمة ، وحقيقته تنزيله الأمور في مراتبها على أحكام عواقبها .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- : إن ربكم الذي له عبادة كلّ شيء ، ولا تنبغي العبادة إلا له ، هو الذي خلق السموات السبع والأرضين السبع في ستة أيام ، وانفرد بخلقها بغير شريك ولا ظهير ، ثم استوى على عرشه مدبرا للأمور ، وقاضيا في خلقه ما أحبّ ، لا يضادّه في قضائه أحد ، ولا يتعقب تدبيره متعقب ، ولا يدخل أموره خلل . ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ يقول : لا يشفع عنده شافع يوم القيامة في أحد إلا من بعد أن يأذن في الشفاعة . ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يقول ﷻ : هذا الذي هذه صفته سيدكم ومولاكم لا من لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يدبر ، ولا يقضي من الآلهة والأوثان . ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ يقول : فاعبدوا ربكم الذي هذه صفته ، وأخلصوا له العبادة ، وأفردوا له الألوهية والربوبية بالذلة منكم له دون أوثانكم وسائر ما تشركون معه في العبادة . ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول : أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الآيات والحجج ، فتنيبون إلى الإذعان بتوحيد ربكم وإفراده بالعبادة ، وتخلعون الأنداد وتبرؤون منها»[١] .

وقال محمد رشيد رضا : «هذه الآية دليل على تفنيدهم في عجبهم من وحي

---

(١) جامع البيان (١١/ ٨٣) .

القرآن، وبيان للربوبية التي يقتضي كمالها ثبوته وبطلان الشرك، والخطاب فيها للناس الذين عجبوا أن يوحى إلى رجل منهم ما فيه هدايتهم بأسلوب الالتفات المنبه للذهن، يقول لهم: إن ربكم هو اللَّه الذي خلق العوالم السماوية التي فوقكم وهذه الأرض التي تعيشون عليها في ستة أزمنة تم في كل يوم منها طور من أطوارها، فإن اليوم في اللغة هو الوقت الذي يحده حدث يحدث فيه وإن كان ألوف السنين من أيام هذه الأرض الفلكية التي وجدت بعد خلقها، أي: أوجدها كلها بمقادير قدرها؛ فإن الخلق في اللغة التقدير، ثم استوى على عرشه الذي جعله مركز التدبير، لهذا الملك الكبير، استواء يليق بعظمته وجلاله، وتنزيهه وكماله، يدبر أمر ملكه، بما اقتضاه علمه من النظام، وحكمته من الأحكام، فالاستواء على العرش بعد خلقهما، وهو مخلوق له من قبلهما، شأن من شؤونه فيما لا نعلم كنهه ولا صفته من تدبير هذا الملك، وكل يوم هو في شان، لا يدرك كنه شؤونه إنس ولا جان.

والتدبير في أصل اللغة التوفيق بين أوائل الأمور ومباديها، وأدبارها وعواقبها، بحيث تكون المبادي مؤدية إلى ما يريد من غاياتها، كما أن تدبر الأمر أو القول هو التفكر في دبره، وهو ما وراءه وما يراد منه وينتهي إليه. ووجه دلالة هذه الجملة على ما ذكر أن الرب الخالق المدبر لجميع أمور الخلق لا يستنكر من تربيته لعباده وتدبيره لأمورهم أن يفيض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه، ما يهديهم به لما فيه كمالهم وسعادتهم من عبادته وشكره وصلاح أنفسهم، بل يجب على العاقل العالم بهذا التدبير والتقدير -الذي تشهد به آياته تعالى في السموات والأرض- أن يؤمن بأن هذا الوحي منه ﷻ؛ إذ هو من كمال تقديره وتدبيره، ولا يقدر عليه غيره..

ثم قال: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ وهذه الجملة حجة ثانية على منكري الوحي، في ضمن حقيقة ناقضة لعقيدة الشرك، ذلك أن مشركي العرب وغيرهم ومقلدتهم من أهل الكتاب كانوا يعتقدون أن معبوداتهم من أولياء اللَّه تعالى وعباده المقربين من الملائكة والبشر يشفعون لهم عند اللَّه تعالى بما يدفع عنهم الضر، ويجلب لهم النفع في الدنيا، والذين يؤمنون بالآخرة من الفريقين يثبتون لهم الشفاعة في الآخرة بالأولى، ويسمون الأصنام التي وضعت لذكرى أولئك الأولياء شفعاء أيضًا بالتبع، وسيأتي في الآية (١٨) من هذه السورة حكاية ما يقولونه في هذه

الشفاعة. ويقال في بيان وجه الحجة عليهم فيها : إنكم إذا كنتم تؤمنون بأن لله شفعاء من أوليائه وعباده المقربين يشفعون لكم عنده بما يقربكم إليه زلفى، ويدفع عنكم الضر، ويجلب لكم النفع، وهو قول منكم على اللَّه تعالى بغير علم، فما لكم تنكرون وتعجبون أن يوحي تعالى إلى من يشاء ويصطفي من هؤلاء العباد من يعلمكم من العلم ما يهديكم إلى العمل الموصل إلى كل ما تطلبونه من هؤلاء الشفعاء باستحقاق بدون عمل منكم، ولا استحقاق لما تطلبون منهم؟

وأما الحقيقة الناقضة لعقيدة الشرك في الشفاعة فهي أنه لا يمكن أن يوجد شفيع يشفع لأحد عنده تعالى إلا من بعد إذنه؛ كما قال في سورة (البقرة): ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[1]، وليس لأحد حق في الإخبار عنه تعالى بمن يشفع عنده ومن يقبل شفاعته إلا بإعلام منه، وذلك لا يكون إلا بوحي منه. وقد ثبت في وحي هذا القرآن أنه لا يشفع أحد عنده بإذنه إلا من ارتضاه للشفاعة؛ ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾[2]، وأن هؤلاء المأذون لهم بالشفاعة لا يشفعون إلا لمن كان اللَّه تعالى راضيًا عنه بإيمانه وعمله الصالح؛ كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[3] مصداقًا لقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[4].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ احتجاج بما يؤمنون به من وحدانية الربوبية، على شركهم في وحدانية الألوهية، أي: ذلك الموصوف بالخلق والتقدير، والحكمة والتدبير، والتصرف في أمر الشفاعة يأذن بها لمن شاء فيما شاء هو اللَّه ربكم، ومتولي أمور العالم ومنها أموركم، ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ وحده، ولا تشركوا به شيئًا، ولا معه أحدًا، لا لأجل الشفاعة، ولا لأجل مطلب آخر من مطالبكم، فالشفعاء لا يملكون لكم من دونه نفعًا ولا ضرًّا، وإنما يملك ذلك ربكم وحده، وقد هداكم إلى أسباب الضر والنفع الكسبية بعقولكم ومشاعركم وسخرها لكم، وهداكم إلى أسباب النفع والضر الغيبية بوحيه وأقدركم عليها، وكل ما يطلب من المنافع والمضار فإنما يطلب من أسبابه التي سخرها تعالى وبينها لكم، وما عجز عنه العبد

---

(١) الآية (٢٥٥).
(٢) طه: الآية (١٠٩).
(٣) الأنبياء: الآية (٢٨).
(٤) الزمر: الآية (٤٤).

أو جهله من ذلك فالواجب عليه أن يدعو اللَّه تعالى وحده فيه، وهذا هو الركن الأول للدين الإلهي.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أتجهلون هذا الحق المبين فلا تتذكرون أن الذي خلق السموات والأرض وحده، واستوى على عرش الملك يدبر الأمر وحده، ولا يمكن أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه، هو ربكم الذي يجب أن تعبدوه وألا تعبدوا غيره؟ وهو مقتضى الفطرة، وما إنكاره إلا ضرب من الغفلة علاجها التذكير.

هذا الاستفهام التعجيبي من غفلة المشركين منكري الوحي عن هذه الحقيقة، وهي أنه لا يستحق العبادة من الخلق أحد إلا ربهم وخالقهم ومدبر أمورهم؛ يوجه بالأولى إلى المؤمنين بالقرآن من القبوريين وعباد الصالحين؛ كيف لا يتذكرون هذه الآيات وأمثالها كلما شعروا بالحاجة إلى ما عجزوا عنه بكسبهم من دفع ضر أو جلب نفع؟ إذ نراهم يوجهون وجوههم إلى قبور المشهورين من الصالحين في بلادهم، ويشدون الرحال إلى ما بعد منها عنهم، ويتقربون إليها بالنذور، ويطوفون بها كما يطوف الحجاج ببيت اللَّه ﷻ، داعين متضرعين مستغيثين خاشعين، وهذا مخ العبادة وروحها وأجلى مظاهرها، ولا ترى مثله من أحد ممن يصلي منهم في صلاة الجماعة ولا صلاته منفردًا في بيته، على أن أكثرهم لا يصلون ولا يعتقدون أن الصلاة تنفعهم كهذه القبور، ذلك بأن أكثرهم يجهلون هذه الآيات وأمثالها من القرآن، وإنما يتلقون عقائد دينهم بالعمل والقول من آبائهم وأمهاتهم ومعاشريهم، وهم قبوريون لا يعرفون ملجأً ولا ملتحدًا عند الشدائد والشعور بالحاجة إلى السلطان الرباني الغيبي إلا هذه القبور، وأقلهم يتلقون بعض كتب العقائد الكلامية الجافة ممن ألفوا عبادة القبور قبل أن يقرؤوها، وأكثرهم يتأولون لأنفسهم وللعوام تلك العبادة، ويسمونها بغير اسمها كالتوسل والاستشفاع، وحجتهم عليها نفس حجة المشركين وأهل الكتاب، لا فرق إلا في بعض الألفاظ وأسماء الأشخاص»[1].

---

(١) تفسير المنار (١١/ ٢٩٥-٢٩٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن استواء اللَّه على العرش كان بعد الفراغ من الخلق

* عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لما فرغ اللَّه من خلقه استوى على عرشه**»[١].

★ **فوائد الحديث:**

«ظاهر الآية (والحديث) يدل على أنه تعالى إنما استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض.. وذلك يدل على أنه تعالى كان قبل العرش غنيا عنه، فلما خلقه امتنع أن تنقلب حقيقته وذاته عن الاستغناء عن الحاجة، فوجب أن يبقى بعد خلق العرش غنيًّا عنه، ولكن لما قال هو ﷻ باستوائه عليه وجب الإيمان به على ما يليق بجلاله»[٢].

تنبيه: قد تقدمت مباحث الاستواء مستوفاة في سورة (الأعراف)[٣]، فلا معنى للإعادة.

* * *

(١) رواه أبو بكر الخلال في كتاب السنة، قال الذهبي: «رواته ثقات، رواه أبو بكر الخلال في كتاب السنة له» [مختصر العلو، ص: ٩٨]. وصحح إسناده ابن القيم على شرط البخاري في [اجتماع الجيوش الإسلامية، ص: ١٠١].

(٢) فتح البيان (٦/ ١٢-١٣).

(٣) عند: الآية (٥٤).

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حميم: الحميم: الماء الحار الساخن، يقال: حَمَمْت الماء أَحُمُّه فهو حميم أي محموم، فعيل بمعنى مفعول. وكل مسخّن عند العرب فهو حميم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «هذه الآية بيان للركن الثاني من أركان الدين، وهو البعث بعد الموت والجزاء على الأعمال؛ يقول تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: إلى ربكم دون غيره من معبوداتكم وشفعائكم وأوليائكم ترجعون جميعًا بعد الموت وفناء هذا العالم الذي أنتم فيه، لا يتخلف منكم أحد»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إلى ربكم الذي صفته ما وصف -جل ثناؤه- في الآية قبل هذه معادكم أيها الناس يوم القيامة جميعًا. ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ فأخرج ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ مصدرا من قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ لأن فيه معنى الوعد، ومعناه: يعدكم اللّه أن يحييكم بعد مماتكم وعدا حقًّا، فلذلك نصب وَعْدَ اللّه حقًا. ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن ربكم يبدأ إنشاء الخلق وإحداثه وإيجاده، يقول: ثم يعيده، فيوجده حيًّا كهيئته يوم ابتدأه بعد فنائه وبلائه...

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ يقول: ثم يعيده من بعد مماته كهيئته قبل مماته عند بعثه من قبره. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يقول: ليثيب من صدق اللّه ورسوله وعملوا ما أمرهم اللّه به من الأعمال، واجتنبوا ما نهاهم عنه؛ على

---

(١) تفسير المنار (١١/ ٢٩٨).

أعمالهم الحسنة ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ يقول: ليجزيهم على الحسن من أعمالهم التي عملوها في الدنيا الحسن من الثواب والصالح من الجزاء في الآخرة، وذلك هو القسط. والقسط العدل والإنصاف»[١].

قال محمد رشيد رضا: «هذا تعليل للإعادة، أي: يعيده لأجل جزائهم، والقسط العدل، وقال الراغب: النصيب من العدل، أي: ليجزيهم بعدله، وهو عبارة عن إعطاء كل عامل حقه من الثواب الذي جعله اللَّه لعمله، بمعنى أنه لا يظلم منه شيئًا؛ كما قال في سورة (الأنبياء): ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾[٢] الآية. ولا يمنع ذلك أن يزيدهم ويضاعف لهم كما وعد في آيات أخرى، منها قوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ﴾[٣]، وقوله في هذه السورة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[٤]؛ فالحسنى هي الجزاء بالقسط المضاد للجور والظلم. والزيادة فضل منه ﷻ. وسيأتي فيها أيضًا قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾[٥]. وقيل: إن المراد: يجزيهم بما كانوا عليه من القيام بالقسط، وهو الحق والعدل في الأمور كلها، الذي هو مقتضى الإيمان في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾[٦]، وقوله: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾[٧] على أن القسط في الآيتين عام شامل لأمور الدين كلها. وقيل: بل المراد منه الإيمان أو التوحيد المقابل لظلم الشرك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[٨]. والمتبادر الموافق لسائر الآيات الصريحة هو الأول، ولا يصح إرادة الثاني إلا بالتبع للأول، أو الجمع بين المعنيين على القول بأن كل ما يحتمله اللفظ من المعاني المشتركة فيه أو حقيقته ومجازه بمقتضى اللغة من غير مانع من الشرع يكون مرادًا منه»[٩].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ قال ابن جرير: «فإنه -جل ثناؤه-

---

(١) جامع البيان (١١/ ٨٤-٨٥).
(٢) الآية (٤٧).
(٣) النساء: الآية (١٧٣).
(٤) الآية (٢٦).
(٥) الآية (٥٤).
(٦) الحديد: الآية (٢٥).
(٧) الأعراف: الآية (٢٩).
(٨) لقمان: الآية (١٣).
(٩) تفسير المنار (١١/ ٢٩٩).

ابتدأ الخبر عما أعدّ اللَّه للذين كفروا من العذاب. وفيه معنى العطف على الأوّل، لأنه -تعالى ذكره- عمّ بالخبر عن معاد جميعهم: كفارهم ومؤمنيهم إليه، ثم أخبر أن إعادتهم ليجزي كلّ فريق بما عمل: المحسن منهم بالإحسان، والمسيء بالإساءة. ولكن لما كان قد تقدم الخبر المستأنف عما أعدّ للذين كفروا من العذاب ما يدلّ سامع ذلك على المراد؛ ابتدأ الخبر والمعنى العطف، فقال: والذين جحدوا اللَّه ورسوله وكذبوا بآيات اللَّه، لهم شراب في جهنم من حميم، وذلك شراب قد أغلي واشتدّ حرّه...

وقوله: ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول: ولهم مع ذلك عذاب موجع سوى الشراب من الحميم بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ باللَّه ورسوله»[١].

قال الشنقيطي: «وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ ذكر في هذه الآية الكريمة: أن الذين كفروا يعذبون يوم القيامة بشرب الحميم، وبالعذاب الأليم، والحميم: الماء الحار، وذكر أوصاف هذا الحميم في آيات أخر، كقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾[٢] وقوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[٣] وقوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾[٤] وقوله: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾[٥] وقوله: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾[٦].

وذكر في موضع آخر أن الماء الذي يسقون صديد[٧] -أعاذنا اللَّه وإخواننا المسلمين من ذلك بفضله ورحمته- وذلك في قوله تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾[٨].

وذكر في موضع آخر أنهم يسقون مع الحميم الغساق[٩]، كقوله: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ

---

(١) جامع البيان (١١/ ٨٥).
(٢) الرحمن: الآية (٤٤).
(٣) محمد: الآية (١٥).
(٤) الحج: الآيتان (١٩و٢٠).
(٥) الكهف: الآية (٢٩).
(٦) الواقعة: الآيتان (٥٤و٥٥).
(٧) الصَّدِيد: الدم المختلط بالقيح. المصباح المنير: مادة (صدد).
(٨) إبراهيم: الآيتان (١٦و١٧).
(٩) الغَسَّاقُ: البارد المُنتِن يُخفف ويُشدد وقُرِئ بهما. مختار الصحاح مادة (غسق).

حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾[١] ، وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾[٢]»[٣].

قال صديق حسن خان: «وفي الآية دليل على إمكان الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه، والرد على منكري البعث»[٤].

* * *

(١) ص: الآية (٥٧و٥٨).

(٢) النبأ: الآيتان (٢٤و٢٥).

(٣) أضواء البيان (٢/ ١٥١).

(٤) فتح البيان (٦/ ١٤).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

★ غريب الآية:

ضياءً: الضياء ما يضيء الأشياء وهو جمع ضوء، كالسياط والحياض جمع سوط وحوض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «ذكر ههنا بعض نعمه على المكلفين، وهي مما يستدل به على وجوده ووحدته وقدرته وعلمه وحكمته بإتقان صنعه في هذين النيرين المتعاقبين على الدوام بعد ما ذكر قبل هذا إبداعه للسموات والأرض، واستواءه على العرش وغير ذلك»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن ربكم اللَّه الذي خلق السموات والأرض ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ بالنهار ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ بالليل، ومعنى ذلك: هو الذي أضاء الشمس وأنار القمر، ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ يقول: قضاه فسوّاه منازل لا يجاوزها، ولا يقصر دونها على حال واحدة أبدًا...

وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ يقول: وقدّر ذلك منازل لتعلموا أنتم أيها الناس عدد السنين: دخول ما يدخل منها، وانقضاء ما يستقبل منها وحسابها، يقول: وحساب أوقات السنين وعدد أيامها وحساب ساعات أيامها. ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ يقول -جل ثناؤه-: لم يخلق اللَّه الشمس والقمر ومنازلهما إلا بالحقّ، يقول الحقّ -تعالى ذكره-: خلقت ذلك كله بحقّ وحدي بغير عون ولا

---

(١) فتح القدير (٢/ ٥٩٥).

شريك. ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يقول: يبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إذا تدبروها، حقيقة وحدانية اللَّه، وصحة ما يدعوهم إليه محمد ﷺ من خلع الأنداد والبراءة من الأوثان»[١].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء، وجعل شعاع القمر نورا، هذا فن، وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل؛ فأول ما يبدو صغيرا، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٢] وقال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ﴾[٣] الآية. وقال: في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي القمر ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام. ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ أي: لم يخلقه عبثا، بل له حكمة عظيمة في ذلك، وحجة بالغة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[٥]»[٦].

قال محمد رشيد رضا: «وفي الآية تنويه بفضل العلم، وكون الإسلام دينًا علميًا، لا تقليديًا؛ ولذلك قفى على هذه الآيات السماوية في الشمس والقمر بآية مذكرة بسائر الآيات السماوية والأرضية فقال: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾» الآية[٧].

* * *

(١) جامع البيان (١١/ ٨٦).
(٢) يس: الآيتان (٣٩و٤٠).
(٣) الأنعام: الآية (٩٦).
(٤) ص: الآية (٢٧).
(٥) المؤمنون: الآيتان (١١٥و١١٦).
(٦) تفسير القرآن (٤/ ٢٤٨).
(٧) تفسير المنار (١١/ ٣٠٤-٣٠٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦﴾

★ **غريب الآية:**

اختلاف: الاختلاف هنا بمعنى التعاقب: أي يخلف الليل النهار، ويخلف النهار الليل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- منبها عباده على موضع الدلالة على ربوبيته، وأنه خالق كلّ ما دونه: إن في اعتقاب الليل والنهار واعتقاب النهار الليل، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، وفيما خلق اللَّه في السموات من الشمس والقمر والنجوم، وفي الأرض من عجائب الخلق الدالة على أن لها صانعا ليس كمثله شيء؛ لآيات، يقول: لأدلة وحججا وأعلاما واضحة لقوم يتقون اللَّه، فيخافون وعيده، ويخشون عقابه على إخلاص العبادة لربهم.

فإن قال قائل: أوَ لا دلالة فيما خلق اللَّه فِي السموات والأرض على صانعه إلا لمن اتقى الله؟ قيل: في ذلك الدلالة الواضحة على صانعه لكلّ من صحت فطرته، وبرئ من العاهات قلبه، ولم يقصد بذلك الخبر عن أن فيه الدلالة لمن كان قد أشعر نفسه تقوى اللَّه، وإنما معناه: إن في ذلك لآيات لمن اتقى عقاب اللَّه فلم يحمله هواه على خلاف ما وضح له من الحقّ، لأن ذلك يدلّ كلّ ذي فطرة صحيحة على أن له مدبرا يستحقّ عليه الإذعان له بالعبودة دون ما سواه من الآلهة والأنداد»[1].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا لا يتأخر عنه شيئا كما قال تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ

(١) جامع البيان (١١/ ٨٦-٨٧).

ﱡﭐﭐٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًاﱠ[١] وقال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٢] الآية. وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾[٣] الآية.

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى كما قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[٤] الآية، وقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٥]، وقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٦]»[٧].

قال القاسمي: «في هذه الآيات إشارة إلى أن الذي أوجد هذه الآيات الباهرة، وأودع فيها المنافع الظاهرة، وأبدع في كل كائن صنعه، وأحسن كل شيء خلقه، وميز الإنسان، وعلمه البيان؛ يكون من رحمته وحكمته اصطفاء من يشاء لرسالته، ليبلغ عنه شرائع عامة، تحدد للناس سيْرهم في تقويم نفوسهم، وكبح شهواتهم، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم في الآخرة»[٨].

قال السعدي: «وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكير في مخلوقات اللَّه، والنظر فيها بعين الاعتبار. فإن بذلك تنفسح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القريحة. وفي إهمال ذلك تهاون بما أمر اللَّه به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقريحة»[٩].

* * *

---

(١) الأعراف: الآية (٥٤).
(٢) يسٓ: الآية (٤٠).
(٣) الأنعام: الآية (٩٦).
(٤) يوسف: الآية (١٠٥).
(٥) يونس: الآية (١٠١).
(٦) آل عمران: الآية (١٩٠).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٤٩).
(٨) محاسن التأويل (٩/ ١٠).
(٩) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٢٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

اطمأنوا بها: أي: فرحوا بها وسكنوا إليها.

غافلون: من الغفلة وهي السهو وقِلَّةُ التحفظ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الذين لا يخافون لقاءنا يوم القيامة، فهم لذلك مكذِّبون بالثواب والعقاب، متنافسون في زين الدنيا وزخارفها، راضون بها عوضا من الآخرة، مطمئنين إليها ساكنين، والذين هم عن آيات اللَّه، وهي أدلته على وحدانيته، وحججه على عباده في إخلاص العبادة له؛ غافلون معرضون عنها لاهون، لا يتأملونها تأمل ناصح لنفسه، فيعلموا بها حقيقة ما دلتهم عليه، ويعرفوا بها بطول ما هم عليه مقيمون؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ يقول -جل ثناؤه-: هؤلاء الذين هذه صفتهم مأواهم مصيرهم إلى النار نار جهنم في الآخرة، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا من الآثام والأجرام ويجترحون من السيئات. والعرب تقول: (فلان لا يرجو فلانا): إذا كان لا يخافه. ومنه قول اللَّه -جل ثناؤه-: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[1]»[2].

قال ابن عاشور: «وفي الآية إشارة إلى أن البهجة بالحياة الدنيا والرضا بها؛ يكون مقدار التوغل فيهما بمقدار ما يصرف عن الاستعداد إلى الحياة الآخرة،

---

(١) نوح: الآية (١٣).

(٢) جامع البيان (١١/ ٨٧).

وليس ذلك بمقتض الإعراض عن الحياة الدنيا ، فإن اللّٰه أنعم على عباده بنعم كثيرة فيها ، وجب الاعتراف بفضله بها ، وشكره عليها ، والتعرف بها إلى مراتب أعلى هي مراتب حياة أخرى، والتزود لها»[1] .

* * *

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٩٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾

★ غريب الآية:

دعواهم: أي دعاؤهم، والدعوى مصدر دعا يدعو، كالشكوى مصدر شكا يشكو، أي دعاؤهم في الجنة أن يقولوا: سبحانك اللهم.

تحيتهم: التحية في الأصل مصدر حَيًّا يُحَيِّي، أي دَعا لَهُ بالحياة، وغلبت على سلام الناس بعضهم على بعضهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إن الذين صدّقوا اللَّه ورسوله وعملوا الصالحات، وذلك العمل بطاعة اللَّه والانتهاء إلى أمره؛ ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ يقول: يرشدهم ربهم بإيمانهم به إلى الجنة. . .

وقوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ يقول: تجري من تحت هؤلاء المؤمنين الذين وصف -جل ثناؤه- صفتهم أنهار الجنة. ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يقول: في بساتين النعيم الذي نعمّ اللَّه به أهل طاعته والإيمان به.

فإن قال قائل: وكيف قيل تجري من تحتهم الأنهار، وإنما وصف -جل ثناؤه- أنهار الجنة في سائر القرآن أنها تجري تحت الجنات؟ وكيف يمكن الأنهار أن تجري من تحتهم إلا أن يكونوا فوق أرضها والأنهار تجري من تحت أرضها، وليس ذلك من صفة أنهار الجنة، لأن صفتها أنها تجري على وجه الأرض في غير أخاديد؟

قيل: إن معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهبتَ، وإنما معنى ذلك: تجري من دونهم الأنهار إلى ما بين أيديهم في بساتين النعيم، وذلك نظير قول الله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[1] ومعلوم أنه لم يجعل السريّ تحتها وهي عليه قاعدة، إذ كان السريّ هو الجدول، وإنما عنى به جعل دونها: بين يديها، وكما قال -جل ثناؤه- مخبرا عن قيل فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾[2] بمعنى: من دوني بين يدي.

وأما قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾فإن معناه: دعاؤهم فيها سبحانك اللهمّ. . .

وأما قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ فإن معناه: تنزيها لك يا ربّ مما أضاف إليك أهل الشرك بك من الكذب عليك والفرية. . .

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ يقول: وتحية بعضهم بعضا ﴿فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ : أي سلِمت وأمِنت مما ابتلي به أهل النار. . .

وقوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ يقول: وآخر دعائهم ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول: وآخر دعائهم أن يقولوا: الحمد لله ربّ العالمين، ولذلك خففت «أن» ولم تشدّد، لأنه أريد بها الحكاية»[3].

وقال الشنقيطي: قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾

«ذكر تعالى في هذه الآية: أن تحية أهل الجنة في الجنة سلام، أي يسلم بعضهم على بعض بذلك، ويسلمون على الملائكة، وتسلم عليهم الملائكة بذلك، وقد بين تعالى هذا في مواضع أخر، كقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾[4]، وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾[5]، وقوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾[6]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾[7]، وقوله:

(١) مريم: الآية (٢٤).
(٢) الزخرف: الآية (٥١).
(٣) جامع البيان (١١/ ٨٧-٩١).
(٤) الأحزاب: الآية (٤٤).
(٥) الرعد: الآيتان (٢٣و٢٤).
(٦) مريم: الآية (٦٢).
(٧) الواقعة: الآيتان (٢٥و٢٦).

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[١] إلى غير ذلك من الآيات»[٢].

وقال ابن عاشور: «ووجه ذكر تحيتهم في هذه الآية الإشارة إلى أنهم في أنس وحبور، وذلك من أعظم لذات النفس»[٣].

وقوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

قال ابن كثير: «هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبدا، المعبود على طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره وفي ابتداء كتابه وعند ابتداء تنزيله حيث يقول تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾[٤] إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وإنه المحمود في الأول وفي الآخر، وفي الحياة الدنيا وفي الآخرة، في جميع الأحوال»[٥].

قال ابن القيم: «هذا دعاء ثناء، وذكر يلهمه اللَّه أهل الجنة، فأخبر سبحانه عن أوله وآخره؛ فأوله تسبيح، وآخره حمد، يلهمونهما كما يلهمون النفس، وفي هذا إشارة إلى أن التكليف في الجنة يسقط عنهم، ولا تبقى عبادتهم إلا هذه الدعوى التي يلهمونها، وفي لفظة (اللهم) إشارة إلى صريح الدعاء فإنها متضمنة لمعنى (يا الله) فهي متضمنة للسؤال والثناء، وهذا هو الذي فهمه من قال: إذا أرادوا الشيء قالوا: سبحانك اللهم، فذكروا بعض المعنى ولم يستوفوه مع أنهم قصروا به، فإنهم أوهموا أنهم إنما يقولون ذلك عندما يريدون الشيء، وليس في الآية ما يدل على ذلك، بل يدل على أن أول دعائهم التسبيح وآخره الحمد، وقد دل الحديث الصحيح على أنهم يلهمون ذلك كما يلهمون النفس، فلا تختص الدعوى المذكورة بوقت إرادة الشيء، وهذا كما أنه لا يليق بمعنى الآية، فهو لا يليق بحالهم. واللَّه تعالى أعلم بالصواب»[٦].

---

(١) يس: الآية (٥٨).

(٢) أضواء البيان (٢/ ١٥١-١٥٢).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٠٤).

(٤) الكهف: الآية (١).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥٠-٢٥١).

(٦) حادي الأرواح (ص: ٣٦٣-٣٦٤).

قال المراغي: «فعلى كل مؤمن أن يستعد لها -الجنة- بتزكية نفسه وترقية روحه، ويعلم أنه لن يكون أهلًا لها إلا بالعمل ومجاهدة النفس والهوى، لا بالتوسلات للأولياء، والتمني لشفاعتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[1]»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن دعاء أهل الجنة التسبيح والتحميد وأنهم يلهمون ذلك

* عن جابر ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون**» قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «**جُشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس**»[3].

★ غريب الحديث:

لا يتفلون: التفل: نفخ معه أدنى بزاق وهو أكثر من النفث.

رشح: العرق؛ لأنه يخرج من البدن شيئًا فشيئًا كما يرشح الإناء المتخلخل الأجزاء.

يلهمون: الإلهام: أن يلقي اللَّه في النفْس أمرًا يبعثه على الفعل أو الترك.

النَّفَس: الهواء الذي يرده التنفس إلى الجوف، فيبرد من حرارته ويعدّلها.

★ فوائد الحديث:

قوله: «يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس»

---

(١) النساء: الآيتان (١٢٣و١٢٤).

(٢) تفسير المراغي (١١/ ٧٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣١٦)، ومسلم (٤/ ٢١٨٠-٢١٨١/ ٢٨٣٥)، وأبو داود (٥/ ١٠٧/ ٤٧٤١) مختصرًا.

قال القرطبي: «وجه التشبيه أن تنفس الإنسان لابد له منه، ولا كلفة ولا مشقة عليه في فعله، وآحاد التنفيسات مكتسبة للإنسان، وجملتها ضرورية في حقه؛ إذ يتمكن من ضبط قليل الأنفاس ولا يتمكن من جميعها، فكذلك يكون ذكر اللَّه تعالى على ألسنة أهل الجنة. وسر ذلك أن قلوبهم قد تنورت بمعرفته، وأبصارهم قد تمتعت برؤيته، وقد غمرتهم سوابغ نعمته، وامتلأت أفئدتهم بمحبته ومخاللته، فألسنتهم ملازمة ذكره، ورهينة بشكره، فإن من أحب شيئًا أكثر من ذكره»[1].

قال ابن كثير: «وإنما يكون ذلك -أي: تسبيح أهل الجنة وتحميدهم- كذلك؛ لما يرون من تضاعف نِعم اللَّه عليهم، فتكرر وتعاد وتزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله غيره، ولا رب سواه»[2].

* * *

---

(١) المفهم (٧/ ١٨١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥١).

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

طغيانهم: الطغيان: أصله مجاوزة الحد في كل شيء، وغَلب في تزايد العصيان والضلال.

يعمهون: أي يترددون في حيرتهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «تعجيل الشيء: تقديمه على أوانه المضروب أو المقدر له أو الموعود به، والاستعجال به طلب التعجيل. والعجل من غرائز الإنسان القابلة للتأديب والتثقيف كي لا تطغى به فتورده الموارد. قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[2]. فأما استعجاله بالخير والحسنة فلشدة حرصه على منافعه، وقلة صبره عنها، وأما استعجاله بالضر والسيئة فلا يكون لذاته؛ بل لسبب عارض كالغضب والجهل والعناد والاستهزاء والتعجيز، وقلما يكون مقصودًا بنفسه إلا للنجاة مما هو شر منه؛ كما يفعل اليائسون من الحياة أو النجاة من ذل وخزي أو ألم لا يطاق؛ إذ يتقحمون المهالك، أو يبخعون أنفسهم انتحارًا.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ الذي يستعجلونه به كاستعجال مشركي مكة رسول اللَّه ﷺ بالعذاب الذي أنذرهم نزوله بهم إجمالًا بما قصه عليهم في هذه السورة وغيرها من سنة اللَّه تعالى في أقوام الرسل المعاندين، وهو عذاب الاستئصال، وفيما دونه من عذاب الدنيا كخزيهم والتنكيل بهم، ونصره عليهم، أو

---

(١) الإسراء: الآية (١١).

(٢) الأنبياء: الآية (٣٧).

قيام الساعة، وعذاب الآخرة.

وقد حكى اللَّه تعالى كل ذلك عنهم؛ كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾[(١)] الآيـة، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾[(٢)]، وتقدم قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(٣)]، وقال في الساعة: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾[(٤)]، وفي العذاب: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[(٥)]. وكل هذه الضروب من الاستعجال كانوا يقصدون بها تعجيز الرسول ﷺ مبالغة في التكذيب، واستهزاء بالوعيد.

وقوله: ﴿اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾ معناه: كاستعجالهم بالخير الذي يطلبونه لذاته بدعاء اللَّه تعالى أو بمحاولة الأسباب التي يظنون أنها قد تأتي به قبل أوانه ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.. وقضاء الأجل إليهم انتهاؤه إليهم بإهلاكهم قبل وقته الطبيعي؛ كما هلك الذين كذبوا الرسل، واستعجلوهم بالعذاب من قبلهم، ولكن اللَّه تعالى أرحم بهم من أنفسهم، وقد بعث رسوله محمدًا خاتم النبيين رحمة للعالمين، بالهداية الدائمة إلى يوم الدين، وقضى بأن يؤمن به قومه من العرب، ويحملوا دينه إلى جميع أمم العجم، وأن يعاقب المعاندين من قومه في الدنيا بما يكون تأديبًا لسائرهم، بما بينه بقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[(٦)] الآية، ويؤخر سائر الكافرين منهم ومن غيرهم إلى يوم القيامة، فهو لا يقضي إليهم أجلهم بإهلاكهم واستئصالهم؛ لأن هذا العذاب إذا نزل يكون عامًّا؛ بل يذرهم وما هم فيه إلى نهاية آجالهم، وذلك قوله: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الطغيان مجاوزة الحد في الشر من كفر وظلم وعدوان. هذا هو الأصل، وطغيان السيل والبحر والدم مستعار منه. والعمه -كالتعب-: التردد والتحير في

---

(١) الرعد: الآية (٦).
(٢) العنكبوت: الآية (٥٣).
(٣) الأنفال: الآية (٣٢).
(٤) الشورى: الآية (١٨).
(٥) العنكبوت: الآية (٥٤).
(٦) التوبة: الآية (١٤).

الأمر أو في الشر. والمعنى: فنترك الذين لا يرجون لقاءنا ممن تقدم ذكرهم فيما هم فيه من طغيان في الكفر والتكذيب، يترددون فيه متحيرين لا يهتدون سبيلًا للخروج منه، لا نعجل لهم العذاب في الدنيا باستئصالهم، حتى يأتي أمر اللَّه تعالى في جماعتهم بنصر رسوله عليهم، وفي أفرادهم بقتل بعضهم وموت بعض، ومأواهم النار وبئس المصير، إلا من تاب وآمن منهم، أي: هذه سنتنا فيهم، لا نعجل شيئًا قبل أوانه المقدر له بمقتضى علمنا وحكمتنا.

وفي الآية وجه عام غير خاص بالكافرين، تقديره: ولو يعجل اللَّه للناس الشر الذي يستعجلونه بذنوبهم المقتضية له من ظلم وفساد في الأرض وفسوق لأهلكهم؛ كما قال في آية أخرى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[١] الآية. ويدخل في المعنى هنا دعاؤهم على أنفسهم عند اليأس، ودعاء بعضهم على بعض عند الغضب، لو يعجله اللَّه لهم لأهلكهم أيضًا. ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ بربهم أو بنعمه عليهم فيما يخالف شرعه وسننه في خلقه ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[٢] أي: ضياع لا يستجيبه اللَّه لهم؛ لحلمه ورحمته بهم»[٣].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم -والحالة هذه-؛ لطفًا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ الآية. أي: لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك.. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾[٤] الآية»[٥].

---

(١) فاطر: الآية (٤٥).

(٢) الرعد: الآية (١٤)، غافر: الآية (٥٠).

(٣) تفسير المنار (١١/ ٣١١-٣١٣).

(٤) الإسراء: الآية (١١).

(٥) تفسير القرآن (٤/ ١٥١).

وقال القرطبي: «فالآية نزلت ذامّة لخلق ذميم هو في بعض الناس يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة، ثم يحملهم أحيانًا سوء الخلق على الدعاء في الشر، فلو عجل لهم لهلكوا»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن الدعاء على النفس والمال والولد

* عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

في الحديث النهي عن دعاء الإنسان على نفسه أو أهله أو ماله، فربما وافق ساعة إجابة فينزل به ما يسوؤه، وهذا هو مضمون الآية الكريمة على قول مجاهد وغيره في تفسيرها: «هو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه، فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم»[٣].

قال في «بذل المجهود»: «قوله: «لا تدعوا على أنفسكم» بالنقصان والهلاك فإن بعض الناس يدعو على نفسه عند الضجر والملالة»[٤].

قال الشيخ سليم الهلالي: «الإنسان عجول بطبعه؛ كما في قوله: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾، فلذلك ينبغي تهذيب نفسه؛ فلا يدع على نفسه أو ولده أو ماله بشيء من الضرر.

وفي الحديث أن الدعاء بالشر والهلاك من صوارف الإجابة؛ كما قال تعالى:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٠١).

(٢) أخرجه: أبو داود (٢/ ١٨٥/ ١٥٣٢)، وأخرجه مسلم في جزء من حديث جابر الطويل (٤/ ٢٣٠٤/ ٣٠٠٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥١-٢٥٢).

(٤) (٧/ ٣٨٨).

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

وأن علة النهي: لئلا توافقوا ساعة الإجابة حال الدعاء، فيوافق القضاء، فتصبحوا نادمين وتسخطوا على القدر. وقد وردت علة أخرى في حديث أم سلمة رضي الله عنها عند مسلم: «**لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون**»[1][2].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٩٧)، ومسلم (٢/ ٦٣٤/ ٩٢٠)، وأبو داود (٣/ ٤٨٧/ ٣١١٨).

(٢) بهجة الناظرين (٢/ ٥٨٨) بتصرف يسير.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مسّ: المسّ يقال في كل ما ينال الإنسان من الأذى.

مرّ: المرور المُضيّ والاجتياز بالشيء، والمعنى استمرّ على كفره، ولم يشكر ولم يتعظ.

المسرفين: جمع مُسْرِف، وهو كل متجاوز لحدود اللَّه ﷻ. وخلافه المقتصد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «هذه الآية أيضًا عتاب على سوء الخلق من بعض الناس، ومضمنه النهي عن مثل هذا، والأمر بالتسليم إلى اللَّه تعالى، والضراعة إليه في كل حال، والعلم بأن الخير والشر منه، لا رب غيره»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا أصاب الإنسان الشدّة والجهد ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ يقول: استغاث بنا في كشف ذلك عنه، لجنبه: يعني مضطجعا لجنبه، ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ بالحال التي يكون بها عند نزول ذلك الضرّ به، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ يقول: فلما فرّجنا عنه الجهد الذي أصابه، ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ يقول: استمرّ على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضرّ، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء، أو تناساه، وترك الشكر لربه الذي فرّج عنه ما كان قد نزل به من البلاء حين استعاذ به، وعاد للشرك ودعوى الآلهة والأوثان أربابًا معه. يقول -تعالى

(١) المحرر الوجيز (٣/ ١٠٩).

ذكره- : ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يقول: كما زين لهذا الإنسان الذي وصفنا صفته استمراره على كفره بعد كشف اللَّه عنه ما كان فيه من الضرّ، كذلك زين للذين أسرفوا في الكذب على اللَّه وعلى أنبيائه، فتجاوزوا في القول فيهم إلى غير ما أذن اللَّه لهم به، ما كانوا يعملون من معاصي اللَّه والشرك به»[1].

قال الشوكاني: «وهذه الحالة التي ذكرها اللَّه سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر؛ بل تتفق لكثير من المسلمين، تلين ألسنهم بالدعاء، وقلوبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم. فإذا كشفه اللَّه عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرّع، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم اللَّه بها عليهم، من إجابة دعائهم، ورفع ما نزل بهم من الضرّ، ودفع ما أصابهم من المكروه. وهذا مما يدلّ على أن الآية تعمّ المسلم والكافر، كما يشعر به لفظ (الناس) ولفظ (الإنسان)»[2].

قال الخازن: «وبيان مقصود الآية أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء، قليل الشكر عند حصول النعماء والرخاء، فإذا مسه الضر أقبل على الدعاء والتضرع في جميع حالاته مجتهدا في الدعاء، طالبا من اللَّه إزالة ما نزل به من المحنة والبلاء، فإذا كشف اللَّه ذلك عنه أعرض عن الشكر ورجع إلى ما كان عليه أولًا، وهذه حالة الغافل الضعيف اليقين، فأما المؤمن العاقل فإنه بخلاف ذلك، فيكون صابرًا عند البلاء، شاكرًا اللَّه عند الرخاء والنعماء، كثير التضرع والدعاء في جميع أوقات الراحة والرفاهية، وههنا مقام أعلى من هذا، وهو أن المؤمن إذا ابتلي ببلية أو نزل به مكروه؛ يكون مع صبره على ذلك راضيا بقضاء اللَّه غير معرض بالقلب عنه، بل يكون شاكرًا اللَّه ﷻ في جميع أحواله، وليعلم العبد المؤمن أن اللَّه -تبارك وتعالى- مالك الملك على الإطلاق، حكيم في جميع أفعاله، وله التصرف في خلقه بما يشاء، ويعلم أنه إن أبقاه على تلك المحنة فهو عدل، وإن أزالها عنه فهو فضل»[3].

---

(١) جامع البيان (١١/ ٩٣).

(٢) فتح القدير (٢/ ٦٠١).

(٣) لباب التأويل (٢/ ٢٨٧).

قال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الإنسان في وقت الكرب، يبتهل إلى ربه بالدعاء في جميع أحواله؛ فإذا فرج اللّه كربه، أعرض عن ذكر ربه، ونسي ما كان فيه كأنه لم يكن فيه قط.

وبين هذا في مواضع أخر كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾[١]، وقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[٣] والآيات في مثل ذلك كثيرة.

إلا أن اللّه استثنى من هذه الصفات الذميمة عباده المؤمنين بقوله في سورة (هود): ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٤]»[٥].

«وفي الآية ذم لمن يترك الدعاء في الرخاء ويهرع إليه في الشدة. واللائق بحال الكامل التضرع إلى مولاه في السراء والضراء؛ فإن ذلك أرجى للإجابة؛ ففي الحديث: «تعرف إلى اللّه في الرخاء يعرفك في الشدة»[٦]»[٧].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن من صفات المؤمن الصبر على البلاء والشكر على النعماء وانه مستثنى ممن ذمه اللّه في الآية

* عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»**[٨].

---

(١) الزمر: الآية (٨).
(٢) الزمر: الآية (٤٩).
(٣) فصلت: الآية (٥١).
(٤) هود: الآيتان (١٠و١١).
(٥) أضواء البيان (٢/ ١٥٢).
(٦) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٤/ ٥٧٥-٥٧٦/ ٢٥١٦)، والحاكم (٣/ ٥٤٢).
(٧) روح المعاني (١١/ ٨٠).
(٨) أخرجه: أحمد (٦/ ١٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٥/ ٢٩٩٩).

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير»

قال القرطبي: «المؤمن هنا: هو العالم باللَّه، الراضي بأحكامه، العامل على تصديق موعوده وذلك أن المؤمن المذكور إما أن يبتلى بما يضره، أو بما يسره، فإن كان الأول صبر واحتسب ورضي، فحصل على خير الدنيا والآخرة وراحتهما، وإن كان الثاني عرف نعمة اللَّه عليه ومنته فيها فشكرها، وعمل بها، فحصل على نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

وقوله: «وليس ذلك إلا للمؤمن» أي المؤمن الموصوف بما ذكرته، لأنه إن لم يكن كذلك لم يصبر على المصيبة ولم يحتسبها، بل يتضجر ويتسخط فينضاف إلى مصيبته الدنيوية مصيبة في دينه، وكذلك لا يعرف النعمة، ولا يقوم بحقها، ولا يشكرها، فتنقلب النعمة نقمة والحسنة سيئة -نعوذ باللَّه من ذلك-»[1].

* * *

(١) المفهم (٦/ ٦٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

★ غريب الآية:

القرون: جمع قرن، وهو أهل كل عصر، سموا بذلك لاقترانهم في وقت واحد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «هذه الآية وعيد للكفار، وضرب أمثال لهم، أي: كما فعل هؤلاء فعلكم فكذلك يفعل بكم ما فعل بهم. وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ إخبار عن قسوة قلوبهم، وشدة كفرهم»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد أهلكنا الأمم التي كذّبت رسل اللّه من قبلكم أيها المشركون بربهم ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ يقول: لما أشركوا وخالفوا أمر اللّه ونهيه. ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ من عند اللّه، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهي الآيات والحجج التي تبين عن صدق من جاء بها. ومعنى الكلام: وجاءتهم رسلهم بالآيات البينات أنها حقّ. ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ يقول: فلم تكن هذه الأمم التي أهلكناها ليؤمنوا برسلهم ويصدّقوهم إلى ما دعوهم إليه من توحيد اللّه وإخلاص العبادة له. و﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: كما أهلكنا هذه القرون من قبلكم أيها المشركون بظلمهم أنفسهم، وتكذيبهم، رسلهم وردّهم نصيحتهم، كذلك أفعل بكم فأهلككم كما أهلكتهم بتكذيبكم رسولكم محمدا ﷺ، وظلمكم أنفسكم بشرككم بربكم، إن أنتم لم تنيبوا وتتوبوا إلى اللّه من شرككم، فإن من ثواب الكافر بي على كفره عندي أن أهلكه بسخطي في الدنيا، وأورده النار في الآخرة»[2].

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ١٠٩-١١٠).

(٢) جامع البيان (١١/ ٩٣).

وقال القرطبي: «وهذه الآية ترد على أهل الضلال القائلين بخلق الهدى والإيمان. وقيل: معنى (ما كانوا ليؤمنوا) أي: جازاهم على كفرهم بأن طبع على قلوبهم. ويدل على هذا أنه قال: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾»[1].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٠٣).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾

* **غريب الآية:**

خلائف: أي خلفاء، جمع خليفة: وهو الذي يخلف غيره في تدبير شؤونه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ أيها الناس ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ من بعد هؤلاء القرون الذين أهلكناهم لما ظلموا، تخلفونهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وتكونون فيها بعدهم. ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ يقول: لينظر ربكم أين عملكم من عمل من هلك من قبلكم من الأمم بذنوبهم وكفرهم بربهم، تحتذون مثالهم فيه، فتستحقون من العقاب ما استحقوا، أم تخالفون سبيلهم، فتؤمنون بالله ورسوله، وتقرّون بالبعث بعد الممات، فتستحقون من ربكم الثواب الجزيل»[1].

قال رشيد رضا: «الخطاب معطوف على الذي قبله، أي: ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعد أولئك الأقوام كلهم بما آتيناكم في هذا الدين من أسباب الملك والحكم، وقدرناه لكم باتباعه إذ كان الرسول الذي به جاءكم هو خاتم النبيين، فلا يوجد بعد أمته أمة أخرى لنبي آخر. وقد كان لتلك الأمم دول وحكم في الأرض، كملك النصارى واليهود والمجوس، والوثنيين من قبلهم كالفراعنة والهنود، فالله يبشر قوم محمد ﷺ وأمة محمد ﷺ بأنها ستخلفهم في الأرض إذا آمنت به واتبعت النور الذي أنزل معه، كما صرح بذلك في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2] الآية. وقد علل هذا الاستخلاف عند الإخبار الأول به هنا بقوله: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: لنرى

---

(١) جامع البيان (١١/ ٩٤).

(٢) النور: الآية (٥٥).

ونشاهد أيّ عمل تعملون في خلافتكم فنجازيكم به بمقتضى سنتنا فيمن قبلكم، فإن هذه الخلافة إنما جعلها لكم لإقامة الحق والعدل في الأرض، وتطهيرها من رجس الشرك والفسق، لا لمجرد التمتع بذلك الملك، كما قال في أول آيات الإذن لهم بالقتال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[1] فأعلمهم سبحانه بأن أمر بقاء خلافتهم منوط بأعمالهم، وأنه تعالى يكون ناظرًا إلى هذه الأعمال لا يغفل عنهم فيها حتى لا يغتروا بما سينالونه ويظنون أنه باق لهم لذاتهم أو لنسبتهم إلى نبيه ﷺ، وأنهم يتفلتون من سننه في الظالمين، وقد بيّنها لهم آنفًا، وقال في سورة (الأعراف): ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾[2] الآية. وقد قص علينا فيها ما حذر به موسى عند ما وعدهم على لسانه بإرث الأرض التي وعد بها آباءهم، في إثر ما شكوا إليه من إيذاء قوم فرعون لهم قبل مجيئه وبعد ذلك؛ قوله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[3] الآية.

.. وقد صدق اللّه وعده ووعيده للمسلمين كغيرهم بما تبين به إعجاز كتابه وصدق رسوله ﷺ وكونه ربّى أمته بما علمه ربُّه من هداية الدين وطبائع العمران، وسنن الاجتماع التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه الأميون، بل لم تصِر عِلما مدونا إلا من بعد نزول القرآن بعدة قرون، لغفلة علماء المسلمين عما فيه من أصولها وقواعدها الصريحة كهذه الآيات»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في استخلاف الله لأمة محمد ﷺ في الأرض لينظر كيف يعملون

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن اللّه مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛**

---

(١) الحج: الآية (٤١).
(٢) الأعراف: الآية (١٠٠).
(٣) الأعراف: الآية (١٢٩).
(٤) تفسير المنار (١١/ ٣١٦).

فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[1].

★ فوائد الحديث:

وجه مطابقة الحديث للآية أن اللَّه قد استخلف أمة محمد ﷺ في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وبين أن الغاية من هذا الاستخلاف هو الاختبار والامتحان، وقد أشار إلى ذلك بقوله في الحديث: «فينظر كيف تعملون» «أي: جعل اللَّه الدنيا مزينة لكم ابتلاء واختبارًا، فينظر هل تتصرفون فيها كما يحب ويرضى، أو تُسخطونه وتتصرفون فيها بغير ما يحب ويرضى»[2]. «أو معناه: جاعلكم خلفاء من كان قبلكم، وقد أعطى ما في أيديهم إياكم، فينظر كيف تعتبرون بحالهم، وتتدبرون في مآلهم»[3]. وقد أخبر اللَّه تعالى أنه قد وعد قوم موسى في زمانهم باستخلافهم في الأرض لما شكوا إليه إيذاء فرعون فقال حاكيا عن موسى أنه قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[4].

قلت: هذه الآية وأمثالها وعد من اللَّه لعباده بالاستخلاف في الأرض وأن اللَّه تعالى يمكن لهم فينظر كيف يكون وجودهم في الأرض؛ هل هو وجود الشكر والحمد والثناء والعبادة وكمالها، وحب ما يحبه اللَّه وبغض من يبغضهم اللَّه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ونصرة دينه بكل ما أوتيه المستخلف، والدعوة إليه، والجهاد في سبيله، والرحمة بعباده صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم؟ وهذه الأوصاف قد حصلت للجيل الأول أصحاب النبي ﷺ فمكن اللَّه لهم فرادى وجماعات، فأقاموا دين اللَّه في أنفسهم وفي ذويهم، وفتحوا الأمصار شرقًا وغربًا، حتى إن الذي يقرأ تاريخهم ويقارن بينهم وبين الأمم المعاصرة لهم يعلم علم اليقين أن تلك الأمم وإن كثر عددهم

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٨/ ٢٧٤٢)، والترمذي (٤/ ٤١٩-٤٢٠/ ٢١٩١) ضمن حديث طويل، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٥/ ٤٠٠٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٠٠/ ٩٢٦٩).

(٢) شرح الطيبي (٧/ ٢٢٦٠).

(٣) المرقاة (٦/ ٢٦٧).

(٤) الأعراف: الآية (١٢٩).

وقويت عدتهم فهم أموات غير أحياء؛ لما لأمة محمد ﷺ من الحياة العلمية والعملية، ولما لأولئك الأمم من الانحراف عن تعاليم الأنبياء السابقين الذين بعثوا في أجدادهم، وهكذا يكون الأمر في كل زمن، فمن أحيا دين اللَّه أحياه اللَّه بكل ما في الكلمة من معنى ومن أمات دين اللَّه أماته اللَّه، ولو كان ينتسب إلى ذرية النبي ﷺ، فإن ذلك لا يشفع له إذا لم يقترن بمتابعته والدعوة إلى دينه والذب عنه والجهاد في سبيله، فالاستخلاف لا يكون بالقوة والعدة والعدد، وإنما يكون بالشكر والثناء والحمد والدعاء إلى دينه والجهاد في سبيله.

تنبيه: وقد تقدم الكلام على الحديث عند هذه الآية (١٢٩) من سورة (الأعراف).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

★ غريب الآية:

تلقاء: التلقاء: الجهة المقابلة للشيء، وقد يستعمل ظرفًا فيقال: تلقاءه. نحو: حذاءه وقبالته وإزاءه. المعنى: من عِنْدِي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا قرئ على هؤلاء المشركين آيات كتاب اللَّه الذي أنزلناه إليك يا محمد بينات واضحات على الحقّ دالات، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يقول: قال الذين لا يخافون عقابنا ولا يوقنون بالمعاد إلينا ولا يصدّقون بالبعث لك: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ يقول: أو غيّره. قُلْ لهم يا محمد: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ أي: من عندي.

والتبديل الذي سألوه فيما ذُكر، أن يحوّل آية الوعيد آية وعد، وآية الوعد وعيدا، والحرام حلالًا، والحلال حراما، فأمر اللَّه نبيه ﷺ أن يخبرهم أن ذلك ليس إليه، وأن ذلك إلى من لا يردّ حكمه ولا يتعقب قضاؤه، وإنما هو رسول مبلغ ومأمور متبع.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ يقول: قل لهم: ما أتبع في كلّ ما آمركم به أيها القوم وأنهاكم عنه إلا ما ينزله إليّ ربي ويأمرني به. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يقول إني أخشى من اللَّه إن خالفت أمره، وغيرت أحكام كتابه، وبدّلت وحيه فعصيته بذلك؛ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هَوْله، وذلك ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ

مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾(١)»(٢).

وقال محمد رشيد رضا: «يظهر في هذه الآية أن نكتة حكاية هذا الاقتراح السخيف بأسلوب الإخبار عن قوم غائبين إفادة أمرين؛ أحدهما: إظهار الإعراض عنهم كأنهم غير حاضرين؛ لأنهم لا يستحقون الخطاب به من اللَّه تعالى. ثانيهما: تلقينه ﷺ الجواب عنه بما ترى من العبارة البليغة التأثير. والمعنى: وإذا تتلى على أولئك القوم آياتنا المنزلة حالة كونها بارزة في أعلى معارض البيان، وأظهر مقدمات الوحي والبرهان، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، وهم من تقدم ذكرهم قريبًا -وأعاده واضعًا إياه موضع الضمير للإشعار بعلة القول- أي: قالوا لمن يتلوها عليهم، وهو الرسول ﷺ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ الأظهر في سبب قولهم هذا أنه ﷺ بلغهم أن هذا القرآن من عند اللَّه أوحاه إليه لينذرهم به، وتحداهم بالإتيان بمثله أو بسورة من مثله فعجزوا، وكانوا في ريب من كونه وحيًا من اللَّه لبشر مثلهم كما تقدم في أول السورة، وفي ريب من كونه من عند محمد ﷺ، وهو لم يكن يفوقهم في الفصاحة والبلاغة ولا في شيء من العلم؛ بل كانوا يرونه دون كبار فصحائهم من بلغاء الشعراء ومصاقع الخطباء، فأرادوا أن يمتحنوه بمطالبته بالإتيان بقرآن غيره في جملة ما بلغهم من سوره في أسلوبها ونظمها ودعوتها، أو بالتصرف فيه بالتغيير والتبديل لما يكرهونه منه كتحقير آلهتهم وتكفير آبائهم، حتى إذا فعل هذا أو ذاك كانت دعواه أنه كلام اللَّه أوحاه إليه منقوضة من أساسها، وكان قصارى أمره أنه امتاز عليهم بهذا النوع من البيان بقوة نفسية فيه كانت خفية عنهم كأسباب السحر، لا بوحي اللَّه إليه»(٣).

وقال الزمخشري: «فإن قلت: فما كان غرضهم وهم أدهى الناس وأمكرهم في هذا الاقتراح؟ قلت: الكيد والمكر. أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن، ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله، فأبدل مكانه آخر. وأما اقتراح التبديل والتغيير، فللطمع

---

(١) الحج: الآية (٢).

(٢) جامع البيان (١١/ ٩٤-٩٥).

(٣) تفسير المنار (١١/ ٣١٨-٣١٩).

ولاختبار الحال، وأنه إن وجد منه تبديل، فإما أن يهلكه اللَّه فينجوا منه، أو لا يهلكه فيسخروا منه، ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحًا لافترائه على الله»[١].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِيٓ﴾ أمر اللَّه تعالى في هذه الآية الكريمة نبيه ﷺ أن يقول: إنه ما يكون له أن يبدل شيئًا من القرآن من تلقاء نفسه، ويفهم من قوله: ﴿مِن تِلْقَآئِ نَفْسِيٓ﴾، أن اللَّه تعالى يبدل منه ما شاء بما شاء.

وصرح بهذا المفهوم في مواضع أخر كقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾[٢]، وقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[٣]، وقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾[٤]»[٥].

* * *

(١) الكشاف (٢/ ٢٢٩).

(٢) النحل: الآية (١٠١).

(٣) البقرة: الآية (١٠٦).

(٤) الأعلى: الآيتان (٦و٧).

(٥) أضواء البيان (٢/ ١٥٢).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أدراكم: أعْلَمَكُم.

لبثت فيكم: مكثت وأقمت بين أظهركم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الزمخشري: «﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ يعني أن تلاوته ليست إلَّا بمشيئة اللَّه وإحداثه أمرًا عجيبًا خارجًا عن العادات، وهو أن يخرج رجل أميّ لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه علماء، فيقرأ عليكم كتابًا فصيحًا، يبهر كل كلام فصيح، ويعلو على كل منثور ومنظوم، مشحونًا بعلوم من علوم الأصول والفروع، وأخبار مما كان وما يكون، ناطقًا بالغيوب التي لا يعلمها إلاّ اللَّه، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطلعون على أحواله، ولا يخفى عليكم شيء من أسراره، وما سمعتم منه حرفًا من ذلك، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه وألصقهم به»[1].

قال ابن كثير: «أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن اللّه لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوّله من عندي ولا افتريته؛ أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني اللّه عزَّ وجلَّ، لا تنتقدون عليَّ شيئًا تغمصوني به، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؟..

(١) الكشاف (٢/ ٢٢٩).

وقد كانت مدة مقامه ﷺ بين أظهرهم قبل النبوة أربعين سنة، وعن سعيد بن المسيب: ثلاثا وأربعين سنة والصحيح المشهور الأول»[١].

وقال الألوسي: «﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، أي: ألا تلاحظون ذلك فلا تعقلون امتناع صدوره عن مثلي، ووجوب كونه منزلًا من عند اللَّه العزيز الحكيم؛ فإن ذلك غير خافٍ على من له عقل سليم وذهن مستقيم، بل لعمري أن من كان له أدنى مسكة من عقل إذا تأمل في أمره صلى اللَّه تعالى عليه وسلم، وأنه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل من غير مصاحبة العلماء في شأن من الشؤون، ولا مراجعة إليهم في فن من الفنون، ولا مخالطة للبلغاء في المحاورة والمفاوضة، ولا خوض معهم في إنشاء الخطب والمعارضة، ثم أتى بكتاب بهرت فصاحته كل ذي أدب، وحيرت بلاغته مصاقع العرب، واحتوى على بدائع أصناف العلوم، ودقائق حقائق المنطوق والمفهوم، وغدا كاشفًا عن أسرار الغيب التي لا تنالها الظنون، ومعربًا عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين من القرون، ومصدقًا لما بين يديه من الكتب المنزلة، ومهيمنًا عليها في أحكامه المجملة والمفصلة، لا يبقى عنده اشتباه في أنه وحي منزل من عند اللَّه ﷻ وعم إفضاله، هذا هو الذي اتفقت عليه كلمة الجمهور، وهو أوفق بالرد عليهم كما لا يخفى على المتأمل»[٢].

قلت: للَّه در الإمام الألوسي على هذا الفهم الطيب للآية، فإن كفار قريش ظهر عنادهم وحمقهم وتلاعبهم وطيشهم وسفاهتهم واضطرابهم وحيرتهم، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- جاء بأمر لا سابقة له في تاريخهم، وجاء بما يعجز عنه الأولون والآخرون، فمنذ بدأ ﷺ وأمره في رقي وظهور، فلا يأتي يوم إلا وينصره اللَّه عليهم، ولا يأتي يوم إلا وتجد من يقبل دعوته، ويدخل في دين اللَّه، وقد حثهم اللَّه على التعقل والتدبر. فحياة النبي ﷺ وسيرته فيهم شاهدة على صدقه، وصدق دعوته، فهؤلاء شعراؤهم وخطباؤهم وفصحاؤهم لا يلتقون معه في أدنى شيء مما جاء به في اللفظ والمعنى؛ فهو جاء بالتوحيد والهداية وهم على الشرك والغواية،

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٠).

(٢) روح المعاني (١١/ ٨٦-٨٧).

وجاء بالخير والاستقامة وهم على الانحراف والضلالة، وجاء بالنقاء والطهارة وهم على الخبث والنجاسة، وجاء بالفضائل والأخلاق الحسنة وهم كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[1]. وهكذا من قارن بين ما جاء به الرسول ﷺ وواقعهم المعيش عَلِمَ عِلْمَ اليقين صدقه وانحرافهم، وضلالهم بكفرهم وشركهم.

وقال الشنقيطي: «في هذه الآية الكريمة حجة واضحة على كفار مكة، لأن النَّبي ﷺ لم يبعث إليهم رسولًا حتى لبث فيهم عمرًا من الزمن. وقدر ذلك أربعون سنة، فعرفوا صدقه، وأمانته، وعدله، وأنه بعيد كل البعد من أن يكون كاذبًا على اللَّه تعالى، وكانوا في الجاهلية يسمونه الأمين، وقد ألقمهم اللَّه حجرًا بهذه الحجة في موضع آخر، وهو قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[2]»[3].

قال ابن القيم: «فتأمل هاتين الحجتين القاطعتين تحت هذا اللفظ الوجيز؛ إحداهما أن هذا من اللَّه لا من قبلي، ولا هو مقدور لي، ولا من جنس مقدور البشر، وأن اللَّه ﷻ لو شاء لأمسك عنه قلبي ولساني وأسماعكم وأفهامكم؛ فلم أتمكن من تلاوته عليكم ولم تتمكنوا من درايته وفهمه.

الحجة الثانية أني قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به وأنتم تشاهدوني وتعرفون حالي، وتصحبوني حضرًا وسفرًا، وتعرفون دقيق أمري وجليله، وتتحققون سيرتي هل كانت سيرة من هو من أكذب الخلق وأفجرهم وأظلمهم، فإنه لا أكذب ولا أظلم ولا أقبح سيرة ممن جاهر ربه وخالفه بالكذب والفرية عليه، وطلب إفساد العالم وظلم النفوس والبغي في الأرض بغير الحق، هذا؛ وأنتم تعلمون أني لم أكن أقرأ كتابًا ولا أخطه بيميني، ولا صاحبت من أتعلم منه، بل صحبتكم أنتم في أسفاركم لمن تتعلمون منه وتسألونه عن أخبار الأمم والملوك وغيرها ما لم أشارككم فيه بوجه ثم جئتكم بهذا النبأ العظيم الذي فيه علم الأولين

---

(١) الشعراء: الآيات (٢٢٤-٢٢٦).

(٢) المؤمنون: الآية (٦٩).

(٣) أضواء البيان (٢/ ١٥٣).

والآخرين، وعلم ما كان وما سيكون على التفصيل، فأي برهان أوضح من هذا، وأي عبارة أفصح وأوجز من هذه العبارة المتضمنة له»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اعتراف أهل مكة بصدق النبي ﷺ وأمانته، وأنهم لم يجربوا عليه كذبا مدة لبثه ﷺ فيهم قبل النبوة، وأن تلك المدة أربعون سنة

* عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في قصة أبي سفيان بن حرب مع هرقل، وذكر الحديث وفيه: «.. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله..»[2].

* عن أم سلمة ابنة أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ في قصة هجرة الحبشة، وذكرت الحديث، وفيه: «.. فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك! كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله..»[3].

★ **فوائد الحديثين:**

الغرض من الحديثين شهادة كل من أبي سفيان بن حرب -وكان إذ ذاك كافرًا- عند ملك الروم، وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عند ملك الحبشة بصدق النبي ﷺ وأمانته وذلك من خلال ما عرفوه من سيرته مدة لبثه فيهم.

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٧٠-٤٧٢).

(٢) أخرجه بطوله: أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣)، والبخاري (١/ ٤٢-٤٤/ ٧)، ومسلم (٣/ ١٣٩٣-١٣٩٧/ ١٧٧٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٩/ ١١٠٦٤). وأخرجه مختصرًا: أبو داود (٥/ ٣٤٨-٣٤٩/ ٥١٣٦)، والترمذي (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٠١-٢٠٣)، والطبراني (٢/ ١١١/ ١٤٧٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٤-٢٧) وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحق، وقد صرح بالسماع».

قال ابن كثير : «وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة، وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق، والفضل ما شهدت به الأعداء»[(١)].

قال شيخ الإسلام: «وقد ذكرنا أن قومه المعادين له غاية العداوة ما زالوا معترفين بصدقه ﷺ، وأنهم لم يجربوا عليه كذبًا، بل ومعترفين بأن ما يقوله ليس بشعر ولا كهانة، وأنه ليس بساحر، وكانوا في أول أمره يرسلون إلى البلاد التي فيها علماء أهل الكتاب يسألونهم عنه، لأن مكة لم يكن بها ذلك»[(٢)].

وقال ابن القيم: «فهذا ملك الروم -وكان من علمائهم (أي من علماء النصارى)- عرف وأقرّ أنه ﷺ نبي، وأنه سيملك ما تحت قدميه، وأحب الدخول في الإسلام، فدعا قومه إليه فولوا عنه معرضين، كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة، فمنعه من الإسلام الخوف على ملكه ورياسته، ومنع أشباه الحمير ما منع الأمم قبلهم..

ولما عرف النجاشي ملك الحبشة أن عباد الصليب لا يخرجون عن عبادة الصليب إلى عبادة اللَّه وحده؛ أسلم سرًّا، وكان يكتم إسلامه بينهم هو وأهل بيته، ولا يمكنه مجاهرتهم»[(٣)].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أنزل على رسول اللَّه ﷺ وهو ابن أربعين، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة، ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة فمكث بها عشر سنين، ثم توفي ﷺ[(٤)].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، ولا بالأبيض الأمهق وليس بالآدم، وليس بالجعد القطط ولا بالسبط، بعثه اللَّه على رأس أربعين سنة، فأقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، فتوفاه

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥٤).
(٢) الجواب الصحيح (٥/ ٣٥٨).
(٣) هداية الحيارى (ص: ٧٣) بتصرف يسير.
(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤٩)، والبخاري (٧/ ٢٠٦/ ٣٨٥١)، ومسلم (٤/ ١٨٢٦/ ٢٣٥١)، والترمذي (٥/ ٥٦٥/ ٣٦٥٢).

اللَّه وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء[١].

★ **غريب الحديث:**

الطويل البائن: هو البعيد الطول، المشرف المتفاوت الذي يضطرب من طوله، وهو عيب في الرجال والنساء.

الأبيض الأمهق: المهق: البياض الشديد الذي ليس بمشرق ولا يخالطه شيء من الحمرة يخاله الناظر إليه برصا.

الآدم: الأسمر الذي تغلب سمرته السواد، والأدمة السمرة.

الجعد القَطَط: القطط: هو الشديد الجعودة مثل الحبش.

السَّبِط: المرسل الشعر، الذي ليس في شعره شيء من التكسير.

★ **فوائد الحديثين:**

«قوله: بعثه اللَّه على رأس أربعين سنة، يعني من مولده، أي عند كمالها بعثه اللَّه رسولا، وهذا هو أكثر الأقوال[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «بعثه اللَّه على رأس أربعين، وهي سن الكمال، قيل: ولها تبعث الرسل»[٣].

وقد ذكر الحافظ ابن عبد البر عن ابن عباس وسعيد بن المسيب أنه ﷺ بعث على رأس ثلاث وأربعين سنة. قال: وممن قال إنه بعث على رأس ثلاث وأربعين: ابن عباس في رواية هشام الدستوائي عن عكرمة عنه، خلاف ما رواه هشام بن حسان عنه، وقاله أيضًا سعيد بن المسيب[٤].

وقد حكى ذلك أيضًا القاضي عياض في «الإكمال»، والقرطبي في «المفهم» وغيرهما.

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٤٠)، والبخاري (٦/ ٧٠٠/ ٣٥٤٨)، ومسلم (٤/ ١٨٢٤/ ٢٣٤٧)، والترمذي (٥/ ٥٥٢/ ٣٦٢٣).

(٢) المفهم (٦/ ١٤٠).

(٣) زاد المعاد (١/ ٨٤).

(٤) فتح البر (١/ ١٧).

قال النووي: «وهذا الذي ذكرناه -أنه بعث على رأس أربعين سنة- هو الصواب المشهور الذي أطبق عليه العلماء، وحكى القاضي عياض عن ابن عباس وسعيد بن المسيب رواية شاذة أنه ﷺ بعث على رأس ثلاث وأربعين سنة والصواب أربعون كما سبق»[١].

* * *

(١) شرح صحيح مسلم (١٥/ ٨١).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجرامًا ممن افترى على اللّٰه كذبا وتقوّل على اللّٰه، وزعم أن اللّٰه أرسله ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرمًا ولا أعظم ظلمًا من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء؟ فإن من قال هذه المقالة صادقًا أو كاذبًا فلا بدّ أن اللّٰه ينصب عليه من الأدلة على بِرّه أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لعنه الله- لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حندس الظلماء، فمِن سيما كلٍّ منهما وكلامه وفعاله يَستدِل مَن له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذّاب، وسَجَاح، والأسود العنسي . . .

أما مسيلمة فمن شاهده من ذوي البصائر، علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة، وكم مِن فرق بين قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[1] وبين عَلاكِ[2] مسيلمة قبّحه اللّٰه ولعنه: «يا ضفدع بنت الضفدعين، نِقّي كما تَنِقّين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين». وقوله -قُبّح ولُعن-: «لقد أنعم اللّٰه على الحبلى، إذ أخرج منها نسَمَة

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٢) العلاك -بضم العين وفتحها- ما يُعلَك ويمضغ.

تسعى، من بين صفاق وحشى» وقوله -خلده اللَّه في نار جهنم، وقد فعل-: «الفيل وما أدراك ما الفيل، له زلقوم طويل». وقوله -أبعده اللَّه من رحمته-: «والعاجنات عجنًا، والخابزات خبزًا، واللاقمات لقمًا، إهالة وسمنًا، إن قريشًا قوم يعتدون»، إلى غير ذلك من الهذيانات والخرافات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها، إلا على وجه السخرية والاستهزاء، ولهذا أرغم اللَّه أنفه، وشرب يوم «حديقة الموت»[١] حتفه، ومزّق شمله، ولعنه صحبُه وأهله. وقدِموا على الصدّيق تائبين، وجاءوا في دين اللَّه راغبين، فسألهم الصديق خليفة الرسول صلوات اللَّه وسلامه عليه، ورضي الله عنه، أن يقرأوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة لعنه اللَّه، فسألوه أن يعفيهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أن يقرأوا شيئا منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس، فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم. فقرأوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه، فلما فرغوا قال لهم الصديق رضي الله عنه: وَيْحكم أي كان يُذهب بعقولكم؟ واللَّه إن هذا لم يخرج من إله.

وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة، وكان صديقًا له في الجاهلية، وكان عمرو لم يُسلم بعد، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو، ماذا أنزل على صاحبكم، يعني رسول اللَّه ﷺ في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة، فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[٢]، ففكر مسيلمة ساعة، ثم قال: وأنا قد أنزل عليَّ مثله، فقال: وما هو؟ فقال: (يا وبر، يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حَقْرٌ نَقْر)، كيف ترى يا عمرو، فقال له عمرو: واللَّه إنك لتعلم أني أعلم أنك لتكذب. فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه لم يشتبه عليه حالُ محمد ﷺ وصدقُه، وحالُ مسيلمة لعنه اللَّه وكذبُه، فكيف بأولي البصائر والنهى، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى؟! ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ

(١) هي بستان في أرض اليمامة لمسيلمة مسوّر بحائط قوي كانوا يسمونه «حديقة الرحمن»، فلما قتل عنده سموه «حديقة الموت».

(٢) سورة (العصر).

ٱللَّهُ﴾(١) وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صدق النبي ﷺ وكذب كل من ادعى النبوة بعده، وأن الصدق والكذب لا يخفى على أهل العلم والعقلاء وذوي الفراسة

* عن عبد اللَّه بن سلام قال: لما قدم رسول اللَّه ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول اللَّه ﷺ، قدم رسول اللَّه ﷺ، قدم رسول اللَّه ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبتّ وجه رسول اللَّه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: **«أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»**(٣).

★ غريب الحديث:

انجفل الناس إليه: ذهبوا مسرعين إليه.

أفشوا السلام: أظهروه وأكثروه على من تعرفون وعلى من لا تعرفون.

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال لهم: أيكم محمد؟ -والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم- فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبي ﷺ: **«قد أجبتك»** فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك. فقال: **«سل عما بدا لك»**. فقال: أسألك بربك ورب من قبلك؛ آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: **«اللهم نعم»**. قال: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: **«اللهم نعم»**. قال: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن نصوم هذا

---

(١) الأنعام: الآية (٩٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٠-١٩١).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٥١)، والترمذي (٤/ ٥٦٢-٥٦٣/ ٢٤٨٥) وقال: «هذا حديث صحيح»، وابن ماجه (١/ ٤٢٣/ ١٣٣٤)، والحاكم (٣/ ١٣) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

الشهر من السنة؟ قال: «**اللهم نعم**». قال: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: «**اللهم نعم**». فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر[1].

★ غريب الحديث:

أنشدك بالله: النشيد هو الصوت. قيل: أصله سألت اللَّه برفع صوتي، والمعنى سألتك باللَّه أو ذكّرتك به.

★ فوائد الحديثين:

الغرض من إيراد هذين الحديثين في تفسير الآية بيان أن كل من ادعى النبوة صادقًا أو كاذبًا فلابد أن ينصب اللَّه من الأدلة ما يبيّن به صدق هذا وكذب الآخر، فإن الصادق تبدو مخايل الصدق والبرّ على وجهه وبما يأمر به وينهى عنه، ولذلك قال عبداللَّه بن سلام: «فلما استثبت» وفي رواية: «تبيّنت وجه رسول اللَّه ﷺ عرفت أن وجهه ليس وجه كذاب» فاستدل على نبوته بما رآه في وجهه من مخايل الصدق والبرّ، وكذلك ضمام بن ثعلبة استدل على صدقه ﷺ بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، ولذلك قال ابن تيمية رحمه الله:

«وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين؛ إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشيطان عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز. وما من أحد ادعى النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما ظهر لمن له أدنى تمييز؛ فإن الرسول لابد أن يخبر الناس بأمور، ويأمرهم بأمور، ولابد أن يفعل أمورًا، والكذاب يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله؛ ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة، والصادق يظهر في نفس ما يأمر به وما يخبر عنه ويفعله؛ ما يظهر به صدقه من وجوه كثيرة، بل كل شخصين ادعيا أمرًا من الأمور

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٦٨)، والبخاري (١/ ١٩٧/ ٦٣)، ومسلم (١/ ٤١-٤٢/ ١٢)، وأبو داود (١/ ٣٢٦-٣٢٨/ ٤٨٦)، والنسائي (٤/ ٤٢٨-٤٢٩/ ٢٠٩٢)، وابن ماجه (١/ ٤٤٩/ ١٤٠٢).

أحدهما صادق في دعواه، والآخر كاذب، فلابد أن يبين صدق هذا وكذب هذا من وجوه كثيرة، إذ الصدق مستلزم للبرّ، والكذب مستلزم للفجور كما في الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند اللَّه صديقًا. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند اللَّه كذابًا»[(١)]»[(٢)].

«ودلائل صدق النبي الصادق، وكذب المتنبي الكذاب كثيرة جدًّا، فإن من ادعى النبوة وكان صادقا فهو من أفضل خلق اللَّه، وأكملهم في العلم والدين، فإنه لا أحد أفضل من رسل اللَّه وأنبيائه صلوات اللَّه عليهم وسلامه -وإن كان بعضهم أفضل من بعض- كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[(٣)] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[(٤)] وإن كان المدعي للنبوة كاذبًا فهو من أكفر خلق اللَّه وشرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[(٥)] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٦)] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[(٧)] فالكذب أصل للشر، وأعظمه الكذب على اللَّه ﷻ، والصدق أصل للخير، وأعظمه الصدق على اللَّه -تبارك وتعالى-. ولما كان هذا من أعلى الدرجات، وهذا في أسفل الدركات؛ كان بينهما من الفروق

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٤)، والبخاري (١٠/ ٦٢١/ ٦٠٩٤)، ومسلم (٤/ ٢٠١٢-٢٠١٣/ ٢٦٠٧)، وأبو داود (٥/ ٢٦٤/ ٤٩٨٩)، والترمذي (٤/ ٣٠٦/ ١٩٧١)، وابن ماجه (١/ ١٨/ ٤٦).

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٢١-١٢٢).

(٣) البقرة: الآية (٢٥٣).

(٤) الإسراء: الآية (٥٥).

(٥) الأنعام: الآية (٩٣).

(٦) الزمر: الآيات (٣٢-٣٤).

(٧) الزمر: الآية (٦٠).

والدلائل والبراهين التي تدل على صدق أحدهما وكذب الآخر ما يظهر لكل من عرف حالهما، ولهذا كانت دلائل الأنبياء وأعلامهم الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة، كما أن دلائل كذب المتنبئين كثيرة متنوعة»[١].

* * *

(١) الجواب الصحيح (١/ ١٢٧-١٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويعبد هؤلاء المشركون الذين وصفت لك يا محمد صفتهم من دون اللَّه الذي لا يضرّهم شيئا ولا ينفعهم في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك هو الآلهة والأصنام التي كانوا يعبدونها. ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ يعني أنهم كانوا يعبدونها رجاء شفاعتها عند اللَّه، قال اللَّه لنبيه محمد ﷺ: قُلْ لَهُمْ: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ يقول: أتخبرون اللَّه بما لا يكون في السموات ولا في الأرض وذلك أن الآلهة لا تشفع لهم عند اللَّه في السموات ولا في الأرض. وكان المشركون يزعمون أنها تشفع لهم عند اللَّه، فقال اللَّه لنبيه ﷺ: قل لهم: أتخبرون اللَّه أن ما لا يشفع في السموات ولا في الأرض يشفع لكم فيهما، وذلك باطل لا تعلم حقيقته وصحته، بل يعلم اللَّه أن ذلك خلاف ما تقولون وأنها لا تشفع لأحد ولا تنفع ولا تضرّ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول: تنزيها لله وعلوّا عما يفعله هؤلاء المشركون من إشراكهم في عبادة ما لا يضرّ ولا ينفع وافترائهم عليه الكذب»[1].

قال المراغي: «وفي الآية إيماء إلى أن سبب عبادتها وضلالهم فيما يدّعون هو اعتقادهم فيها القدرة على الضر والنفع، فرد عليهم خطأهم بأنه وحده هو القادر على نفع من يعبده، وضر من يشرك بعبادته غيره في الدنيا والآخرة.

وقد دل تاريخ البشر في كل طور من أطواره على أن كل ما عبده من دون اللَّه من

---

(١) جامع البيان (١١/ ٩٨).

صنم أو وثن فإنما عبده لاعتقاده فيه القدرة على النفع والضر بسلطان له فوق الأسباب المعروفة؛ كعبادته للأوثان المتخذة من الحجارة أو الخشب والأصنام المصنوعة من المعادن والحجارة أو غير المصنوعة كاللات، وهي صخرة كانت بالطائف يلتّ عليها السويق عُظِّمت حتى عُبدت، أو الأشجار كالعزّى معبودة قريش.

﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ويقولون في سبب عبادتهم لهم مع اعتقادهم أنهم لا يملكون الضر والنفع بأنفسهم إيمانهم بأن الرب الخالق هو اللّه تعالى، وهؤلاء شفعاء عنده، ونحن إنما نعبدهم ونعظم هياكلهم ونطيّبها بالعطر، ونقدم لهم النذور، ونهلّ لهم عند ذبح القرابين بذكر أسمائهم وبدعائهم والاستغاثة بهم؛ لأنهم يشفعون لنا عند اللّه، ويقربوننا إليه زلفى، ويدفعون بجاههم عنا البلاء، ويعطوننا ما نطلب من النعماء..

فأساس عقيدة الشرك أن جميع ما يطلب من اللّه لا بد أن يكون بوساطة المقربين عنده؛ إذ هم لا يمكنهم التقرب من اللّه والحظوة عنده بأنفسهم؛ لأنها مدنّسة بالمعاصي. أما الموحدون فيعتقدون أنه يجب على العاصي أن يتوجه إلى اللّه وحده، تائبًا إليه، طالبًا مغفرته ورحمته.

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ أي: قل لهم أيها الرسول مبينًا لهم كذبهم، ومنكرًا عليهم افتراءهم على ربهم: أتخبرون اللّه بشيء لا يعلمه من أمر هؤلاء الشفعاء في السموات من ملائكته وفي الأرض من خواصّ خلقه؟! ولو كان له شفعاء يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم؛ إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فإذًا هؤلاء لا وجود لهم عنده، وأنكم قد اتخذتم ذلك قياسًا على ما ترونه من الوساطة عند الملوك الجاهلين بأمور رعيتهم، والعاجزين عن تنفيذ مشيئتهم فيهم بدون وساطة الوزراء وذوي المكانة فيهم.

وبهذا ثبت بطلان الشرك في الألوهية، وهو عبادة غير اللّه مهما يكن المعبود، وبطلان الشرك في الربوبية بادعاء وساطة المعبود في الخلق والتدبير، أو الشفاعة عند الله؛ إذ ليس لمعبود بذاته ولا بتأثير خاص له عند خالقه يحمله على نفع من شاء ولا ضر من شاء أو كشف ضر عنه؛ كما يعتقده عباد الأولياء من البشر إلى اليوم،

فكل ذلك للرب وحده، ولا يعلم إلا بوحيه، فادعاء ذلك لغيره كذب لا مستند له.

وفي هذا حجة أيُّما حجة على زوار الأضرحة والقبور الذين يقولون: إن هؤلاء الأولياء أحياء عند ربهم كالشهداء، فهم يضرون وينفعون لا كالأصنام، وقد جهلوا أن اللّه يقول للنصارى: إن المسيح لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا بعبادتهم له مع ما آتاه من المعجزات..

وقد أمر اللّه رسوله ﷺ أن يخبر الناس بأنه لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه ربنا وعلا علوًّا كبيرًا عما يشركون به من الشفاعة والوسطاء وما يفترونه عليه من أن لأحد من خلقه وساطة عنده، وشفاعة لديه تقرب إليه زلفى، ففي هذا تحقير لمقام الربوبية والألوهية، وتشبيه الرب بعبيده من الملوك الجاهلين.

وفي هذا إيماء إلى أن شؤون الرب وسائر ما في عالم الغيب لا يعلم إلا بخبر الوحي، ومن ذلك اتخاذ الشفعاء والوسطاء عنده، فيكون كفرًا صراحًا»[2].

قلت: هذا الشيخ المراغي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ شيخ الأزهر في وقته والمؤلف لعدة مؤلفات والمفسر لكتاب الله؛ بين ما عليه أحوال أهل مصر في أضرحتهم وما يفعلون من شركيات فيها؛ من ذبح وقسم ونذر وإيقاد للشموع ومن طواف بها ومن صلاة عندها ومن شد الرحال إليها ومن إقامة مواسم وتعيينها وجمع الناس فيها، ولاسيما وثن البدوي الذي يجتمع فيه من الأعداد مثل ما يكون في يوم الوقوف بعرفة، وأمثال البدوي في مصر وفي العالم الإسلامي كثير يستحيل إحصاؤهم لكثرة عددهم في البوادي والحواضر والمدن والقرى، فقد بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية ما تبرأ به الذمة، وأن ما يقع عند هذه الأضرحة فهو من الشرك والوثنية لا محالة، فيجب على علماء الإسلام أن يحذروا الناس من هذه الشركيات، ولا يحملهم الطمع وحب الذات على موافقة المشركين في شركهم، مهما كانت رتبهم سواء كانوا حاكمين أو

---

(١) يونس: الآية (٤٩).

(٢) تفسير المراغي (١١/ ٨١-٨٣).

محكومين، فالله أحق أن يُهاب ويُخاف منه ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١) ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾(٢).

وقال ابن القيم: «فبين سبحانه أن المتخذين شفعاء مشركون، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم، وإنما تحصل بإذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له، وسر الفرق بين الشفاعتين: أن شفاعة المخلوق للمخلوق وسؤاله للمشفوع عنده لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده لا خلقا ولا أمرا ولا إذنا، بل هو سبب محرك له من خارج كسائر الأسباب التي تحرك الأسباب، وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لأجل ما يوافقه كمن يشفع عنده في أمر يحبه ويرضاه، وقد يكون عنده ما يخالفه كمن يشفع إليه في أمر يكرهه، ثم قد يكون سؤاله وشفاعته أقوى من المعارض، فيقبل شفاعة الشافع، وقد يكون المعارض الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع فيردها ولا يقبلها، وقد يتعارض عنده الأمران فيبقى مترددا بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد وبين الشفاعة التي تقتضي القبول، فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحد الأمرين بمرجح، فشفاعة الإنسان عند المخلوق مثله هي سعي في سبب منفصل عن المشفوع إليه يحركه به، ولو على كُره منه، فمنزلة الشفاعة عنده منزلة من يأمر غيره أو يكرهه على الفعل إما بقوة وسلطان، وإما بما يرغّبه، فلابد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع إما رغبة ينتفع بها، وإما رهبة منه تندفع عنه بشفاعته، وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه، فإنه ما لم يخلق شفاعة الشافع ويأذن له فيها ويحبها منه ويرضى عن الشافع؛ لم يمكن أن توجد، والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب إليه، ولا لرهبته منه، ولا لرغبته فيما لديه، وإنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له، فهو مأمور بالشفاعة مطيع بامتثال الأمر، فإن أحدا من الأنبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعة ولا غيرها إلا بمشيئة الله تعالى وخلقه، فالرب تعالى هو الذي يحرك الشفيع حتى يشفع، والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتى يقبل، والشافعُ عند المخلوق مستغن عنه في أكثر

---

(١) آل عمران: الآية (١٧٥).

(٢) الأحزاب: الآية (٣٧).

أموره وهو في الحقيقة شريكه ولو كان مملوكه وعبده، فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله منه من النفع بالنصر والمعاونة وغير ذلك، كما أن الشافع محتاج إليه فيما يناله منه من رزق أو نصر أو غيره، فكل منهما محتاج إلى الآخر. ومن وفقه اللَّه تعالى لفهم هذا الموضع ومعرفته؛ تبين له حقيقة التوحيد والشرك، والفرق بين ما أثبته اللَّه تعالى من الشفاعة وبين ما نفاه وأبطله، ومن لم يجعل اللَّه له نورًا فما له من نور»[١].

* * *

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٤٣-٣٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما كان الناس إلا أهل دين واحد وملة واحدة، فاختلفوا في دينهم، فافترقت بهم السبل في ذلك. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يقول: ولولا أنه سبق من اللّٰه أنه لا يهلك قوما إلا بعد انقضاء آجالهم، ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يقول: لقضي بينهم بأن يهلك أهل الباطل منهم وينجي أهل الحقّ»[١].

قال ابن كثير: «أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام، قال ابن عباس: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام»[٢] ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان فبعث اللّٰه الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[٣]»[٤].

قال القرطبي: «﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ إشارة إلى القضاء والقدر أي لولا ما سبق في حكمه أنه لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة لقضي بينهم في الدنيا فأدخل المؤمنين الجنة بأعمالهم والكافرين النار بكفرهم ولكنه سبق من اللّٰه الأجل مع علمه بصنيعهم فجعل موعدهم القيامة قاله

---

(١) جامع البيان (١١/ ٩٨).

(٢) أخرجه: ابن جرير (٢/ ٣٣٤)، والحاكم (٢/ ٥٤٦-٥٤٧) وقال: «صحيح على شرط البخاري»، وأقره الذهبي.

(٣) الأنفال: الآية (٤٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥٧).

الحسن. . . والآية تسلية للنبي ﷺ في تأخير العذاب عمن كفر به»[١].

قال محمد رشيد رضا: «والآية تتضمن الوعيد على اختلاف الناس، المفضي إلى الشقاق والعدوان، سيما الاختلاف في كتاب اللَّه الذي أنزله لإزالة الشقاق بحكمه»[٢].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٠٦).
(٢) تفسير المنار (١١/ ٢٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الزمخشري: «أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها، وكانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات، دقيقة المسلك من بين المعجزات، وجعلوا نزولها كلا نزول، وكأنه لم ينزل عليه آية قط، حتى قالوا: لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه؛ وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمرّد وانهماكهم في الغيّ»[(١)].

قال ابن كثير: «ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون لولا أنزل على محمد آية من ربه يعنون كما أعطى اللَّه ثمود الناقة أو أن يحول لهم الصفا ذهبًا أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارًا ونحو ذلك مما اللَّه عليه قادر ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾[(٢)] وكقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾[(٣)] الآية، يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة، ولهذا لما خير رسول اللَّه ﷺ بين أن يعطى ما سألوا فإن أجابوا وإلا عوجلوا وبين إنظارهم اختار إنظارهم كما حلم عنهم غير مرة صلوات اللَّه عليه، ولهذا قال تعالى إرشادًا لنبيه ﷺ إلى الجواب عما سألوا ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٣٠).

(٢) الفرقان: الآيتان (١٠و١١).

(٣) الإسراء: الآية (٥٩).

الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيّ وفيكم، هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره فانشق اثنين: فرقة من وراء الجبل وفرقة من دونه، وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا ومالم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادًا وتثبتًا لأجابهم ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادًا وتعنتًا، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾[1] الآية. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[2] الآية، ولما فيهم من المكابرة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[3] الآية. وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾[4] الآية. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[5]. فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوا؛ لأنه لا فائدة في جواب هؤلاء؛ لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم؛ ولهذا قال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾»[6].

* * *

(١) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧).
(٢) الأنعام: الآية (١١١).
(٣) الحجر: الآيتان (١٤و١٥).
(٤) الطور: الآية (٤٤).
(٥) الأنعام: الآية (٧).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥٧-٢٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال صديق حسن خان: «لما بين سبحانه في الآية المتقدمة أنهم طلبوا آيةً عنادًا ومكرًا ولجاجًا؛ أكد ذلك بما ذكره هنا من أنه سبحانه إذا أذاقهم رحمة منه من بعد أن مستهم الضراء فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم في آيات اللَّه، والمراد بإذاقتهم رحمته سبحانه أنه وسّع عليهم في الأرزاق، وأدرّ عليهم النعم بالمطر والخصب، وصلاح الثمار، بعد أن مسهم الضر بالجذب وضيق المعايش، فما شكروا نعمته، ولا قدروها حق قدرها، بل أضافوها إلى أصنامهم التي لا تنفع ولا تضر، وطعنوا في آيات اللَّه، واحتالوا في دفعها بكل حيلة، وهو معنى المكر فيها، و﴿إِذَا﴾ الأولى شرطية، وجوابها: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ وهي فجائية، ذكر معنى ذلك الخليل وسيبويه، ويستفاد منه السرعة؛ لأن المعنى أنهم فاجأوا المكر، أي: أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة. وقال مجاهد في الآية: استهزاء وتكذيب. وهذا تفسير مراد، وإلا فأصل المكر إخفاء الحيل والمكايد. وقال مقاتل: لا يقولون: هذا رزق اللَّه، وإنما يقولون سقينا بنوء كذا وكذا.

ثم أمر سبحانه رسوله أن يجيب عنهم فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾أي: أعجل عقوبة، وأشد أخذًا، وأقدر على الجزاء من سرعة مكرهم. وقد دل أفعل التفضيل على أن مكرهم كان سريعا، ولكنّ مكر اللَّه أسرع منه»[1].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾الآية. المعنى أن هؤلاء الكفار لما قابلوا نعمة اللَّه بالمكر؛ فاللَّه ﷻ قابل مكرهم بمكر أشد من ذلك، وهو من

---

(١) فتح البيان (٦/ ٣٦).

وجهين: الأول ما أعد لهم يوم القيامة من العذاب الشديد، وفي الدنيا من الفضيحة والخزي والنكال. والثاني: أن رسل اللَّه يكتبون مكرهم ويحفظونه، وتعرِض عليهم ما في بواطنهم الخبيثة يوم القيامة، ويكون ذلك سببًا للفضيحة التامة، والخزي والنكال، نعوذ باللَّه تعالى منه»(١).

وقال أبو حيان: «وهذه وإن كانت في الكفار فهي تتناول من العاصين من لا يؤدّي شكر اللَّه عند زوال المكروه عنه، ولا يرتدع بذلك عن معاصيه، وذلك في الناس كثير؛ تجد الإنسان يعقد عند مس الضر التوبة والتنصل من سائر المعاصي، فإذا زال عنه رجع إلى أقبح عاداته»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن إضافة النعم إلى غير الله؛ من المكر في آياته

* عن زيد بن خالد الجهني ﷺ أنه قال: صلى لنا رسول اللَّه ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف النبي ﷺ أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ما ذا قال ربكم؟» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم، قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل اللَّه ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذاو كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»(٣).

⋆ غريب الحديث:

نوء: قال ابن الأثير: «الأنواء هي ثمانية وعشرون منزلة، ينزل القمر كل ليلة في منزلة منها، ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾(٤) ويسقط في الغرب كلَّ ثلاثة عشرة ليلةً منزلةٌ مع طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلها ذلك الوقت في الشرق،

(١) مفاتح الغيب (١٧/ ٦٩). (٢) البحر المحيط (٥/ ١٤٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٧)، والبخاري (٢/ ٦٦٣-٦٦٤/ ١٠٣٨)، ومسلم (١/ ٨٣-٨٤/ ٧١)، وأبو داود (٤/ ٢٢٧-٢٢٨/ ٣٩٠٦)، والنسائي (٣/ ١٨٣-١٨٤/ ١٥٢٤).

(٤) يس: الآية (٣٩).

فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة. وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إليها، فيقولون: مطرنا بنوء كذا، وإنما سمي نوءًا؛ لأنه إذا سقط الساقط منها بالغرب ناء الطالع بالمشرق ينوء نوءًا أي: نهض وطلع. وقيل: أراد بالنوء الغروب، وهو من الأضداد. قال أبو عبيد: لم نسمع في النوء أنه السقوط إلا في هذا الموضع[(١)].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«ألم تروا إلى ما قال ربكم عز وجل؟ قال: ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين؛ يقولون: الكوكب بالكوكب»**[(٢)].

★ فوائد الحديثين:

هذان الحديثان شاهدان لصحة قول من قال من المفسرين: إن المراد بقوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ أنهم لا يقولون في المطر النازل: هذا رزق اللَّه، وإنما يقولون: سقينا بنوء كذا وكذا. وهذا قول مقاتل كما تقدم، ولهذا الغرض أورد الخازن الحديث الأول في تفسيره واستشهد به على صحة قول مقاتل. ثم قال في شرح الحديث:

«قوله: «على إثر سماء كانت من الليل» أي مطر كان قد وقع في الليل، وسمي المطر سماء لأنه يقطر من السماء، والأنواء عند العرب هي منازل القمر؛ إذا طلع نجم سقط نظيره، وكانوا يعتقدون في الجاهلية أنه لابد عند ذلك من وجود مطر أو ريح، كما يزعم المنجمون أيضًا، فمن العرب من يجعل ذلك تأثيرا للطالع لأنه ناء، أي: ظهر وطلع، ومنهم من ينسبه للغارب. فنفى النبي ﷺ صحة ذلك، ونهى عنه، وكفر معتقده، إذا اعتقد أن النجم فاعل ذلك التأثير، وأما من يجعله دليلًا فهو جاهل بمعنى الدلالة، وأما من أسند ذلك إلى العادة التي يجوز انخرامها فقد كرهه قوم وحرمه قوم، ومنهم من تأول الكفر بكفر نعمة اللَّه. واللَّه أعلم»[(٣)].

---

(١) النهاية (٥/ ١٢٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٢)، ومسلم (١/ ٨٤/ ٧٢)، والنسائي (٣/ ١٨٣/ ١٥٢٣).

(٣) لباب التأويل (٢/ ٢٩١).

قال الحافظ ابن عبد البر: «وأما قوله ﷺ حاكيًا عن اللَّه ﷻ: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»، فمعناه عندي على وجهين:

أما أحدهما: فإن المعتقد أن النوء هو الموجب لنزول الماء، وهو المنشئ للسحاب دون اللَّه ﷻ، فذلك كافر كفرًا صريحًا يجب استتابته عليه وقتله، لنبذه الإسلام وردّه القرآن.

والوجه الآخر: أن يعتقد أن النوء ينزل اللَّه به الماء، وأن سبب الماء ما قدره اللَّه وسبق في علمه، فهذا وإن كان وجهًا مباحًا فإن فيه أيضا كفرًا بنعمة اللَّه ﷻ، وجهلًا بلطيف حكمته، لأنه ينزل الماء متى شاء، مرّة بنوء كذا، ومرّة دون النوء وكثيرًا ما يخوى النوء فلا يتنزل معه شيء من الماء، وذلك من اللَّه لا من النوء»[1].

قال صاحب «تيسير العزيز الحميد»[2]: «ولما كان إنزال الغيث من أعظم نعم اللَّه وإحسانه إلى عباده لما اشتمل عليه من منافعهم، فلا يستغنون عنه أبدًا كان من شكره الواجب عليهم أن يضيفوه إلى البرّ الرحيم المنعم، ويشكروه فإن النفوس قد جبلت على حب من أحسن إليها، واللَّه تعالى هو المحسن المنعم على الإطلاق الذي ما بالعباد من نعمة فمِنه وحده كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[3]».

قال المهلب: «كانوا ينسبون الأفعال إلى غير اللَّه فيظنون أن النجوم تمطرهم وترزقهم فهذا تكذيبهم، فنهاهم اللَّه عن نسبة الغيوث التي جعلها اللَّه حياة لعباده وبلاده إلى الأنواء، وأمرهم أن ينسبوا ذلك إليه لأنه من نعمته وتفضله عليهم وأن يفردوه بالشكر على ذلك، والحمد على تفضله»[4].

* * *

(١) فتح البر (١/ ٣٥٢).
(٢) (ص: ٤٧١).
(٣) النحل: الآية (٥٣).
(٤) شرح ابن بطال (٣/ ٢٨).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

★ غريب الآية:

يُسيركم: مأخوذ من السَّيْر: وهو المُضِيُّ في الأرض، على التكثير.

الفلك: السفينة، سميت بذلك لدورانها في الماء.

عاصف: العاصف: الريح الشديدة. تقول: عصفت الريح فهي عاصف إذا اشتدت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: اللَّه الذي يسيركم أيها الناس في البرّ على الظهر وفي البحر في الفلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وهي السفن، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ يعني: وجرت الفلك بالناس، ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ في البحر، ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ يعني: وفرح ركبان الفلك بالريح الطيبة التي يسيرون بها. والهاء في قوله: «بها» عائدة على الريح الطيبة. ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾يقول: جاءت الفلك ريح عاصف، وهي الشديدة. . .

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وجاء ركبانَ السفينة الموج من كلّ مكان. ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾يقول: وظنوا أن الهلاك قد أحاط بهم وأحدق. ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يقول: أخلصوا الدعاء لله هنالك دون أوثانهم وآلهتهم، وكان مفزعهم حينئذ إلى اللَّه دونها. . . ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾من هذه الشدّة التي نحن فيها ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾لك على نعمك وتخليصك إيانا مما نحن

فيه بإخلاصنا العبادة لك وإفراد الطاعة دون الآلهة والأنداد»[١].

قال الشوكاني: «وفي هذا دليل على أن الخلق جُبلوا على الرجوع إلى اللَّه في الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافرًا، وفي هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم في هذه الحالة وما يشابهها، فيا عجبًا لما حدث في الإسلام، من طوائف يعتقدون في الأموات، فإذا عَرضتْ لهم في البحر مثل هذه الحالة؛ دعوا الأموات ولم يخلصوا الدعاء لله كما فعله المشركون كما تواتر ذلك إلينا تواترا يحصل به القطع! فانظر هداك الله! ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية، وأين وصل بها أهلها، وإلى أين رمى بهم الشيطان، وكيف اقتادهم وتسلط عليهم، حتى انقادوا له انقيادًا ما كان يطمع في مثله ولا في بعضه من عباد الأوثان! فإنا لله وإنا إليه راجعون»[٢].

وقال الألوسي: «وظاهر الآية أنه ليس المراد تخصيص الدعاء فقط به سبحانه بل تخصيص العبادة به تعالى أيضا؛ لأنهم بمجرد ذلك لا يكونون مخلصين له الدين.

وأيًّا ما كان؛ فالآية دالة على أن المشركين لا يدعون غيره تعالى في تلك الحال وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير، وخطب جسيم، في بر أو بحر؛ دعوا من لا يضر ولا ينفع، ولا يرى ولا يسمع، فمنهم من يدعو الخضِر وإلياس، ومنهم من ينادي أبا الخميس والعباس، ومنهم من يستغيث بأحد الأئمة، ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأمة، ولا ترى فيهم أحدا يخص مولاه بتضرعه ودعاه، ولا يكاد يمر له بباله أنه لو دعا اللَّه تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال، فباللَّه تعالى عليك؛ قل لي: أي الفريقين من هذه الحيثية أهدى سبيلًا؟ وأي الداعيين أقوم قيلًا؟ وإلى اللَّه تعالى المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة، وتلاطمت أمواج الضلالة، وخرقت سفينة الشريعة، واتخذت الاستغاثة بغير اللَّه تعالى للنجاة ذريعة، وتعذر على العارفين الأمر بالمعروف، وحالت دون النهي عن المنكر صنوف الحتوف»[٣].

---

(١) جامع البيان (١١/٩٩-١٠٠).
(٢) فتح القدير (٢/٦٠٨-٦٠٩).
(٣) روح المعاني (١١/٩٨).

قلت: وصف هؤلاء المفسرون مشركي زمانهم، وذكروا الفرق بينهم وبين المشركين الذين حاربوا دعوة رسول اللَّه ﷺ حيث كانوا أكثر عقلًا وأقرب إلى الفطرة من هؤلاء المشركين المعاصرين، كما ذكر اللَّه عنهم أنهم إذا اشتدت بهم الأزمات في البر والبحر أنهم يخلصون الدعاء للَّه ولا يشركون به غيره، أما المشركون المعاصرون فإنه لا فرق عندهم في حال شدة ولا في حال رخاء، فهم مشركون به على كل حال رغم نزول القرآن فيهم، ورغم بلوغ دعوة الرسول ﷺ وأحاديثه فيهم، وقد يوجد فيهم من العلماء المخلصين من يحذرهم وينهاهم عن الوقوع في الشرك ومع ذلك يختارون الشرك الأكبر والأصغر.

وقد نبتت نابتة يحملون أعلى المناصب زورًا وبهتانًا، ويلقبون بأعلى الألقاب زورًا وبهتانًا، وقد مكن لهم بواسطة القوة والعدة، فتبنوا رفع راية الشرك وإحياء كل ما اندثر من شركيات وزوايا ومواسم، فسخروا أموال الأمة وأوقاف المسلمين على الدعوة إلى الشرك الصريح والخرافات التي بادت أو كادت أن تبيد، ومعهم عصابات تؤيدهم في ذلك لتستفيد وتبتز ما استطاعت من الأموال، فيرفعون شعارات جاهلية لا يوافقهم عليها إلا معتوه عنده من الخلل العقلي والانفصام الشخصي ما يليق بحالهم، فاللهم فك أسر الإسلام والمسلمين من شرك هذه العصابات المتسلطة على التوحيد وأهله والسنة وأهلها، إنك سميع مجيب فإنهم لا يعجزونك.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا

* عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: «لما كان يوم فتح مكة أمّن رسول اللَّه ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين، وقال: «اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلّقين بأستار الكعبة»، عكرمةُ بن أبي جهل وعبدُاللَّه بن خطل ومَقيسُ بن صُبابة وعبدُاللَّه بنُ سعد ابنِ أبي السَّرح، فأما عبداللَّه بن خطل فأُدرك وهو متعلق بأستار الكعبة، فاستبق إليه سعيد بن حُرَيث وعمّار بن ياسر، فسبق سعيدٌ عمارًا -وكان أشبَّ الرجلين- فقتله،

وأما مَقيسُ بن صبابة فأدركه الناس في السوق فقتلوه، وأما عكرمة فركب البحرَ فأصابتهم عاصفٌ، فقال أصحاب السفينة: أخلِصوا فإنّ آلهتكم لا تُغني عنكم شيئًا ههنا، فقال عكرمةُ: واللّه لئن لم يُنجّني من البحر إلا الإخلاصُ لا يُنجّني في البر غيرُه، اللهمّ إنَّ لك عليّ عهدًا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتيَ محمدا ﷺ حتى أضع يدِي في يدِه فلَأجدنّه عفوًّا كريمًا، فجاء فأسلم. وأما عبداللّه بن سعد بن أبي السرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفّان، فلما دعا رسول اللّه ﷺ الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ قال: يا رسول الله! بايع عبداللّه، قال: فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثًا، كلّ ذلك يأبى، فبايَعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: «**أمَا كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدِي عن بيعته فيقتله**» فقالوا: وما يدرينا يا رسول اللّه ما في نفسك؟ هلّا أومأت إلينا بعينك، قال: «**إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين**»[1].

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث «البيان الصريح لكون المشركين كانوا لا يدعون في أوقات الشدائد وتقطع الأسباب بهم إلا اللّه ربهم، ولكن من لا يحصى عددهم من مسلمي هذا الزمان بزعمهم لا يدعون عند أشد الضيق إلا معبوديهم من الميتين»[2].

قال صديق حسن خان القنوجي: «وإذا أحطت بما ذكرنا علما؛ أدركت أن كفر المشركين.. من أمة رسولنا ﷺ في العرب والعجم أعظم من كفر الذين قاتلهم النبي ﷺ، وقد سمعت أن اللّه تعالى ذكر عن الكفار أنهم إذا مسهم الضر تركوا غير اللّه من السادة والقادة والطواغيت فلم يدعوا أحدًا منهم، ولم يستغيثوا بهم، بل أخلصوا لله وحده لا شريك له، وأنت ترى المشركين المدعين للإيمان من المسلمين، وفيهم من يدعي أنه من أهل العلم والفضل، وفيه الصلاح والزهد، والاجتهاد في العبادة، إذا مسه الضر، وأهمه أمر من أمور الدنيا؛ قام يستغيث بغير

---

(١) أخرجه: أبو داود (٣/ ١٣٣/ ٢٦٨٣) مختصرًا، والنسائي (٧/ ١٢٢/ ٤٠٧٨)، والحاكم (٣/ ٤٥) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢) تفسير المنار (١١/ ٣٣٨).

اللَّه من الأولياء. . وأشنع وأفظع وأقبح وأعظم جرمًا وأطمّ ضلالة أنهم يستغيثون بالطواغيت، والأجداث، وأهل القبور، والمردة من الجن والشياطين، ويذبحون لهم، وينذرون لهم، ويسافرون إلى أنصابهم، ويفزعون إلى أحبارهم ورهبانهم، تقليدًا في الفروع والأصول المبنية على شفا جرف هار، فإنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم توفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، ولا تشركنا يوم الدين مع المشركين. رحم اللَّه من نصح نفسه، وعرف أن وراءه جنة ونارًا، وأن اللَّه تعالى جعل لكل منهما أهلًا وأعمالًا»[١].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «فاعلم أن شرك الأولين أخفّ من شرك أهل زماننا بأمرين؛ أحدهما: أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع اللَّه إلا في الرخاء، وأما الشدة فيخلصون لله الدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[٢] وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾[٤] وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٥]، فمن فهم هذه المسألة التي وضحها اللَّه في كتابه وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول اللَّه ﷺ يدعون اللَّه ويدعون غيره في الرخاء، وأما في الضراء فلا يدعون إلا اللَّه وحده لا شريك له وينسون سادتهم؛ تبيّن له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين، ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهمًا راسخًا واللَّه المستعان»[٦].

* * *

(١) الدين الخالص (١/ ١٣٣-١٣٤).
(٢) الإسراء: الآية (٦٧).
(٣) الأنعام: الآيتان (٤٠و٤١).
(٤) الزمر: الآية (٨).
(٥) لقمان: الآية (٣٢).
(٦) كشف الشبهات (ص: ١٠٠-١٠٣).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

⋆ غريب الآية:

يبغون: البغي: الفساد والشرك، مِن بغى الجرح إذا فسد، وأصله الطلب، أي: يطلبون الاستعلاء بالفساد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فلما أنجى اللَّه هؤلاء الذين ظنوا في البحر أنهم أحيط بهم من الجهد الذي كانوا فيه؛ أخلفوا اللَّه ما وعدوه، وبغوا في الأرض، فتجاوزوا فيها إلى غير ما أذن اللَّه لهم فيه من الكفر به والعمل بمعاصيه على ظهرها. يقول الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إنما اعتداؤكم الذي تعتدونه على أنفسكم، وإياها تظلمون، وهذا الذي أنتم فيه ﴿مَّتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ يقول: ذلك بلاغ تبلغون به في عاجل دنياكم... وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾يقول: ثم إلينا بعد ذلك معادكم ومصيركم، وذلك بعد الممات. ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾يقول: فنخبركم يوم القيامة بما كنتم تعملون في الدنيا من معاصي اللَّه، ونجازيكم على أعمالكم التي سلفت منكم في الدنيا»(١).

قال ابن عطية: «ومعنى الآية: إنما بغيكم وإفسادكم مضرّ لكم، وهو في حالة الدنيا ثم تلقون عقابه في الآخرة. قال سفيان بن عيينة: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تُعجل لكم عقوبته في الحياة الدنيا. وعلى هذا قالوا: البغي يصرع أهله. قال القاضي أبو محمد: وقالوا الباغي مصروع، قال اللَّه تعالى: ﴿ثُمَّ

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٠١).

بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾[(١)]»[(٢)].

وقال المراغي: «وفي الآية إيماء إلى أن البغي مجزي عليه في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلقوله: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾.. وأما في الآخرة فكفى دلالة على ذلك ما أفادته الآية من التهديد والوعيد.

والخلاصة: إن البغي -وهو أشنع أنواع الظلم- يرجع على صاحبه؛ لما يولّد من العداوة والبغضاء بين الأفراد، ولما يوقد من نيران الفتن والثورات في الشعوب. انظر إلى من يبغي على مثله تجده قد خلق له عدوًّا أو أعداءً ممن يبغي عليهم.

ولا شك أن وجود الأعداء ضرب من العقوبة، فهم يقتصون لأنفسهم منه بكل الوسائل التي يقدرون عليها. وإن هم لم يفعلوا ذلك فإنه يرى في أعينهم من أنواع الحَنَق والغضب ما لا يخفى عليه، فيتأجج قلبه حسرة وندامة على ما فعل، ويود أن لو لم يكن قد خلق لنفسه هذه الحزازات والضغائن المتغلغلة في النفوس»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثم البغي وعقوبة الباغي عاجلًا أو آجلًا

* عن أبي بكرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تبغ ولا تكن باغيًا، فإن الله يقول**: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾»[(٤)].

* عن أبي بكرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدّخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم**»[(٥)].

★ **غريب الحديث:**

أجدر: بالجيم أي أحق وأولى.

---

(١) الحج: الآية (٦٠).
(٢) المحرر الوجيز (٣/ ١١٣-١١٤).
(٣) تفسير المراغي (١١/ ٩١-٩٢).
(٤) أخرجه: البيهقي في الشعب (٥/ ٢٨٥/ ٦٦٧١)، وصححه الحاكم (٢/ ٣٣٨)، ووافقه الذهبي.
(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٦)، وأبو داود (٥/ ٢٠٨/ ٤٩٠٢)، والترمذي (٤/ ٥٧٣/ ٢٥١١) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٨/ ٤٢١١)، وصححه ابن حبان (٢/ ٢٠٠/ ٤٥٥-٤٥٦)، و الحاكم (٤/ ١٦٣).

★ **فوائد الحديثين:**

التنبيه على خطورة البغي، وأن الباغي الظالم يعجل اللَّه له العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة.

قال شيخ الإسلام: «فالباغي الظالم ينتقم اللَّه منه في الدنيا والآخرة؛ فإن البغي مصرعة، قال ابن مسعود: ولو بغى جبل على جبل لجعل اللَّه الباغي منهما دكًا. ومن حكمة الشِّعر:

قضى اللَّه أن البغي يصرع أهله وأن على الباغي تدور الدوائر

ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية»[1].

«فالباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفورًا له مرحوما في الآخرة، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل؛ قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بالعدل؛ لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة»[2].

* عن عائشة ﵂ قالت: «مكث النبي ﷺ كذا وكذا يخيل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتي. قالت عائشة: فقال لي ذات يوم: **«يا عائشة! إن اللَّه تعالى أفتاني في أمر استفتيته فيه، أتاني رجلان فجلس أحدهما عند رجليّ والآخر عند رأسي، فقال الذي عند رجليّ للذي عند رأسي: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب يعني مسحورًا- قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن أعصم قال: وفيم؟ قال: في جفّ طلعة ذَكر في مشط ومشاطة تحت رعوفة في بئر ذروان»**. فجاء النبي ﷺ فقال: **«هذه البئر التي أريتها، كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين، وكأن ماءها نقاعة الحناء»**. فأمر به النبي ﷺ فأخرج قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله! فهلا... تعني تنشرت؟ فقال النبي ﷺ: **«أمّا اللَّه فقد شفاني، وأما أنا فأكره أن أثير على الناس شرًّا»**. قالت: ولبيد بن أعصم رجل من بني زريق، حليف ليهود»[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٨٢).
(٢) الاستقامة لشيخ الإسلام (٢/ ٢٤٧-٢٤٨).
(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٦٣)، والبخاري (١٠/ ٤٧٩/ ٦٠٦٣)، ومسلم (٤/ ١٧١٩-١٧٢٠/ ٢١٨٩)، وابن ماجه (٢/ ١١٧٣/ ٣٥٤٥).

★ **غريب الحديث:**

جفّ طلعة ذَكر: الجفّ: وِعاء الطَّلْع وهو الغِشاء الذي يكون فَوْقَه.

رعوفة: رعوفة البئر: صخرة تترك في أسفل البئر إذا احتفرت تكون ثابتة هناك فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقي عليها. ويقال: بل هو حجر ناتئ في بعض البئر يكون صُلبا لا يمكنهم حفره فيترك على حاله. ويقال: هو حجر يكون على رأس البئر يقوم عليه المستقي.

نقاعة الحناء: بضم النون وتخفيف القاف، والحناء معروف وهو بالمد أي لون ماء البئر لون الماء الذي ينقع في الحناء يعني أحمر.

مشاطة: المشاطة ما يخرج من الشعر الذي سقط من الرأس إذا سُرّح بالمُشط وكذا من اللحية.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال مبينًا وجه مطابقة الحديث للآية: «وجه ذلك -واللَّه أعلم- أنه لما أعلم اللَّه عباده أن البغي ينصرف على الباغي بقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وضمن تعالى نصره لمن بُغي عليه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ كان الأولى لمن بغي عليه شكر اللَّه على ما ضمن من نصره، ومقابلة ذلك بالعفو عمن بغى عليه، وكذلك فعل النبي ﷺ باليهودي الذي سحره حين عفا عنه، وقد كان له الانتقام بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[1] لكن آثر الصفح عنه أخذًا بقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[2] وكذلك أخبرت عائشة عنه ﷺ أنه كان لا ينتقم لنفسه ويعفو عمن ظلمه»[3].

* * *

(١) النحل: الآية (١٢٦).

(٢) الشورى: الآية (٤٣).

(٣) شرح صحيح البخاري (٩/ ٢٥٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾

★ **غريب الآية:**

زخرفها: الزخرف: الزينة وكمال حسن الشيء. يقال: زخرفته أي حسنته.

ازّينت: أي: تزيّنت بالحبوب والثمار والأزهار.

لم تغن: لم تَقُم ولم تكن. يقال: غني بالمكان يَغْنَى به: إذا أقام به. والمغاني: المنازل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضرب -تبارك وتعالى- مثلًا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها، وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه اللّه من الأرض -بما أنزل من السماء من الماء- مما يأكل الناس من زرع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أبّ وقضب وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: زينتها الفانية، ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي: حسنت بما خرج في رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: على جذاذها وحصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة، فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ أي: يابسًا بعد الخضرة والنضارة، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك، وقال قتادة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ كأن لم

تنعم، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن . . قال تعالى إخبارًا عن المهلَكين: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩٤ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾[١].

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾أي: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعًا، مع اغترارهم بها وتمكنهم بمواعيدها وتفلُّتها منهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب اللَّه تعالى مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز فقال في سورة الكهف: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[٢].. يضرب اللَّه بذلك مثل الحياة الدنيا»[٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه، فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها؛ سلبها بغتة أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها، فشبهها بالأرض الذي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر؛ فيغتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها، فيأتيها أمر اللَّه فتدرك نباتها الآفةُ بغتة، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يداه صفرا منهما، فهكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس»[٤].

قال الشنقيطي: «ضرب اللَّه تعالى في هذه الآية الكريمة المثل للدنيا بالنبات الناعم المختلط بعضه ببعض، وعما قليل ييبس، ويكون حصيدًا يابسًا كأنه لم يكن قط، وضرب لها أيضًا المثل المذكور في (الكهف) في قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾، وأشار لهذا المثل بقوله في (الزمر): ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٥]، وقوله في (الحديد): ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ

(١) هود: الآيتان (٩٤و٩٥).
(٢) الكهف: الآية (٤٥). (٣) التفسير (٤/ ١٩٦-١٩٧).
(٤) إعلام الموقعين (١/ ١٥٣).
(٥) الزمر: الآية (٢١).

يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾[(١)]»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حقارة الدنيا وفناء نعيمها وسرعة زوالها وبقاء الآخرة ودوام نعيمها

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة؛ فيصبغ في النار صبغة. ثم يقال: يا ابن آدم! هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا واللَّه يا رب!. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة؛ فيصبغ صبغة في الجنة. فيقال له: يا ابن آدم! هل رأيت بؤسا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا واللَّه يارب! ما مر بي بؤس قط. ولا رأيت شدة قط**»[(٣)].

⋆ غريب الحديث:

فيصبغ في النار: الصبغة، بفتح الصاد، أي: يغمس غمسة.

البؤس: بالهمز هو الشدة.

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن الجوزي: «هذا الحديث يحثّ على مراعاة العواقب، فإن التعب إذا أُعقب الراحة هان، والراحة إذا أثمرت النّصب فليست راحة، فالعاقل من نظر في المآل لا في عاجل الحال، وقد كشف هذا المعنى قوله في الحديث: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»[(٤)] وقد قالت الحكماء: لا تنال الراحة بالراحة، وقلّ أن يلمع برق لذّة إلا وتقع صاعقة ندم»[(٥)].

وفي الحديث: «أن أهل النعيم في الدنيا من غير المؤمنين هم أهل الشقاء في الآخرة.

---

(١) الحديد: الآية (٢٠). (٢) أضواء البيان (٢/ ١٥٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٠٣)، ومسلم (٤/ ٢١٦٢/ ٢٨٠٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٥/ ٤٣٢١).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٥٣)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤/ ٢٨٢٢)، والترمذي (٤/ ٥٠٩٨/ ٢٥٥٩).

(٥) كشف المشكل (٣/ ٣٠٩-٣١٠) بتصرف يسير.

وأن إنعام اللَّه على أهل الفساد في الدنيا ليس دليل محبة، إنما هو استدراج وتعجيل لهم بالطيبات حتى إذا لاقوا اللَّه لم يكن لهم في الآخرة نصيب إلا العذاب.

وأن نعيم الجنة ينسي أهل الإيمان والصبر واليقين شقاء الدنيا وبؤسها»[1].

وأن الدنيا بنعيمها وزينتها، وبؤسها وشقائها زائلة فانية، ففيه الحث على طلب الآخرة والسعي إليها.

قال ابن القيم رحمه الله: «لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول: النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخِسّتها، وألَم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف، فطالبها لا ينفكّ من همّ قبل حصولها، وهمٍّ في حال الظفر بها، وغمٍّ وحزن بعد فواتها. فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولابد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما ههنا. فهي كما قال اللَّه سبحانه: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[2] فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة، فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقلُ إيثارَه، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه، فكل أحد مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرَة إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له، وإما لعدم رغبته في الأفضل؛ وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان وضعف العقل والبصيرة.

فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤثر لها إما أن يصَدِّق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى؛ وإما أن لا يصدِّق؛ فإن لم يصدّق بذلك كان عادما للإيمان

---

(١) بهجة الناظرين (١/ ٥٣٠).

(٢) الأعلى: الآية (١٧).

رأسًا؛ وإن صدق بذلك ولم يؤثره كان فاسد العقل سيئ الاختيار لنفسه. وهذا تقسيم حاضر ضروري لا ينفك العبد من أحد القسمين منه، فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل، وما أكثر ما يكون منهما ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه، وصرفوا عنها قلوبهم واطّرحوها ولم يألفوها، وهجروها ولم يميلوا إليها، وعدُّوها سِجنًا لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب، ولوصلوا منها إلى كل مرغوب، فقد عرضت عليه مفاتيح كنوزها فردّها، وفاضت على أصحابه فآثروا بها ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها مَعْبر وممرّ، لا دار مقام ومستقرّ، وأنها دار عبور، لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتمّ الزيارة حتى أذن بالرحيل.

قال النبي ﷺ: «**ما لي وللدنيا، إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها**»[1] وقال: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم ترجع»[2].

وقال خالقها سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فأخبر عن خِسّة الدنيا وزهّد فيها، وأخبر عن دار السلام ودعا إليها»[3].

* * *

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٤١)، والترمذي (٤/ ٥٠٨/ ٢٣٧٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٦/ ٤١٠٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٢٨)، ومسلم (٤/ ٢١٩٣/ ٢٨٥٨)، والترمذي (٤/ ٤٨٦/ ٢٣٢٣) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٦/ ٤١٠٨) من حديث المستورد بن شداد ﷺ.

(٣) الفوائد (ص: ١٢٢-١٢٧).

قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما ذكر تعالى مثل الحياة الدنيا، وما يؤول إليه من الفناء والاضمحلال، وما تضمنه من الآفات والعاهات، ذكر تعالى أنه داعٍ إلى دار السلامة، والصحة، والأمن، وهي الجنة؛ إذ أهلها سالمون من كل مكروه»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لعباده: أيها الناس لا تطلبوا الدنيا وزينتها، فإن مصيرها إلى فناء وزوال كما مصير النبات الذي ضربه اللَّه لها مثلًا إلى هلاك وبوار، ولكن اطلبوا الآخرة الباقية، ولها فاعملوا، وما عند اللَّه فالتمسوا بطاعته، فإن اللَّه يدعوكم إلى داره، وهي جنّاته التي أعدّها لأوليائه، تسلموا من الهموم والأحزان فيها وتأمنوا من فناء ما فيها من النعيم والكرامة التي أعدّها لمن دخلها، وهو يَهْدى من يشاء من خلقه فيوفقه لإصابة الطريق المستقيم، وهو الإسلام الذي جعله -جل ثناؤه- سببًا للوصول إلى رضاه، وطريقًا لمن ركبه وسلك فيه إلى جنانه وكرامته»[٢].

قال الألوسي: «قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ترغيب للناس في الحياة الأخروية الباقية، إثر ترغيبهم عن الحياة الدنيا الفانية، أي يدعو الناس جميعًا إلى الجنة، حيث يأمرهم بما يفضي إليها»[٣].

وقال القرطبي: «وهذه الآية بينة الحجة في الرد على القدرية؛ لأنهم قالوا: هدى اللَّه الخلق كلهم إلى صراط مستقيم، واللَّه قال: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ

---

(١) البحر المحيط (٥/ ١٤٦).

(٢) جامع البيان (١١/ ١٠٣).

(٣) روح المعاني (١٢/ ١٠٢).

مُّسْتَقِيمٍ﴾ ، فردوا على الله نصوص القرآن»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الترغيب في الآخرة والدعوة إلى الجنة دار السلام

* عن أبي الدرداء ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: «**ما من يوم طلعت فيه شمسه إلا وبجنبتيها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، إنّ ما قلّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى**» قال: «وأنزل ذلك في القرآن في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾»[2].

* عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلا، قال: فاضربوا له مثلا. فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى دارًا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيًا، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة. فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: فالدار الجنة والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمدًا ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمدًا ﷺ فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس»[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢١٠).

(٢) أخرجه: ابن جرير (١١/ ١٠٤). وفي سنده عباد بن راشد روى له البخاري مقرونا بغيره وأبو داود والنسائي وابن ماجه وقد اختلفوا في توثيقه وتضعيفه ولخص ذلك الحافظ في التقريب بقوله: «صدوق له أوهام». وانظر تهذيب الكمال: (١٤/ ١١٦/ ٣٠٧٧)، وقد توبع على هذا الحديث تابعه هشام بن أبي عبد الله عند الحاكم (٢/ ٤٤٤-٤٤٥) وصححه ووافقه الذهبي إلا أن في سنده أبا قلابة الرقاشي هو: عبد الملك بن محمد بن عبد الله قال عنه الحافظ في التقريب: «صدوق يخطئ تغير حفظه لما سكن بغداد». ولم يذكر هذه الآية، بل ذكر آية (الشورى): ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ﴾ الآية، فالحديث حسن إن شاء الله.
وله متابع آخر: أخرجه: أحمد (٥/ ١٩٧) بنحوه ولم يذكر الآية، رجاله ثقات إلا أن قتادة عنعنه. قال في المجمع (٢/ ١٢٢): «رجاله رجال الصحيح»، وصححه ابن حبان (٢/ ٤٦٢/ ٦٨٦) مختصرًا. وله شاهد من حديث أبي هريرة في الصحيحين مختصرًا. وانظر تعليق أحمد شاكر على تفسير الطبري (١٥/ ٦١).

(٣) أخرجه: البخاري (١٣/ ٣١٠/ ٧٢٨١)، الترمذي (٥/ ١٣٤/ ٢٨٦٠).

★ **غريب الحديث:**

المأدبة: هي الطعام الذي يصنعه الرجل يدعو إليه الناس، والمشهور في المأدُبة ضم الدال، وأجاز فيها بعضهم الفتح.

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن عطية: «قد وردت في دعوة اللَّه عباده أحاديث منها» ثم ذكر حديث جابر بمعناه.

وأما حديث أبي الدرداء فقد ذكره الطبري وابن كثير في تفسير الآية.

ووجه مطابقة الحديثين للآية أن اللَّه تعالى يرغب عباده في الآخرة، ويدعوهم على ألسنة رسله وملائكته إلى دار السلام وهي الجنة، بما أوضحه وبينه من الطرق المؤدية إليها والأعمال الموجبة لها، فمن أجاب الداعي وأطاعه دخل الجنة، ومن عصاه وخالفه حرمها.

قال الحافظ: «وفي حديث ابن مسعود عند أحمد: «أما السيد فهو رب العالمين، وأما البنيان فهو الإسلام، والطعام الجنة، ومحمد الداعي فمن اتبعه كان في الجنة»[1]. قوله: «فمن أطاع محمدًا فقد أطاع الله» أي: لأنه رسول صاحب المأدبة فمن أجابه ودخل في دعوته أكل من المأدبة وهو كناية عن دخول الجنة، ووقع بيان ذلك في رواية سعيد، ولفظه: «وأنت يا محمد رسول اللَّه، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها»»[2].

* * *

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه أحمد (١/ ٣٩٩) وأورده ابن كثير في تفسيره (٧/ ٣٩٣) من طريق الإمام أحمد وقال: فيه غرابة شديدة.

(٢) الفتح (١٣/ ٣١٨).

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[(١)]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: للذين أحسنوا عبادة اللَّه في الدنيا من خلقه فأطاعوه فيما أمر ونَهَى: الحُسْنَى.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى الحسنى والزيادة اللتين وعدهما المحسنين من خلقه، فقال بعضهم: الحسنى: هي الجنة، جعلها اللَّه للمحسنين من خلقه جزاء، والزيادة عليها النظر إلى اللَّه تعالى. . .

وقال آخرون في الزيادة. . . غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب. . .

وقال آخرون: الحسنى واحدة من الحسنات بواحدة، والزيادة: التضعيف إلى تمام العشر. . .

وقال آخرون: الحسنى: حسنة مثل حسنة، والزيادة: زيادة مغفرة من اللَّه ورضوان. . .

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه -تبارك وتعالى- وعد المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى أن يجزيهم على طاعتهم إياه الجنة وأن تبيض وجوههم، ووعدهم مع الحسنى الزيادة عليها، ومن الزيادة على إدخالهم الجنة أن يكرمهم بالنظر إليه، وأن يعطيهم غرفا من لآلىء، وأن يزيدهم غفرانا ورضوانا كلّ ذلك من زيادات عطاء اللَّه إياهم على الحسنى التي جعلها اللَّه لأهل جناته. وعمّ ربنا -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَزِيَادَةٞۖ﴾ الزيادات على الحسنى، فلم يخصص منها شيئا دون شيء، وغير مستنكر من فضل اللَّه أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء اللَّه. فأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يعمّ كما

(١) يونس: الآية (٢٦).

عمه -عزّ ذكره-»[١].

قال ابن كثير: «وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبدالله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبدالرحمن بن أبي ليلى وعبدالرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف»[٢].

قال ابن القيم: «والأحاديث عنهم بذلك صحيحة ولما عطف سبحانه الزيادة على الحسنى التي هي الجنة؛ دل على أنها أمر آخر من وراء الجنة وقدر زائد عليها، ومن فسر الزيادة بالمغفرة والرضوان فهومن لوازم رؤية الرب -تبارك وتعالى-»[٣].

وقال الزمخشري بعدما ذكر في الزيادة تفاسير كثيرة: «وزعمت المشبهة والمجبرة أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى، وجاءت بحديث مرفوع: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، نودوا أن يا أهل الجنة، فيكشف الحجاب، فينظرون إليه..» الحديث»[٤].

قال أحمد بن المنير في الرد عليه: «نسبة تفسير الزيادة برؤية الله تعالى إلى زعم أهل السنة الملقبين عنده بالمشبهة والمجبرة مرور على ديدنه المعروف في التكذيب بما لم يحط به علمًا. هذا التفسير مستفيض منقول عن جملة الصحابة، والحديث المروي فيه مدوّن في الصحاح، متفق على صحته، وقد جعل أهل السنة جاؤوا به من عند أنفسهم، ومن قبل قال المصرّون على الكفر لسيد البشر وصاحب السنة: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾[٥] حملًا له على أنه جاء به من عنده؛ فلأهل السنة إذًا أسوة بصاحبها، و﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٦]؛ فابتلاء الحق بالباطل قديم، والله الموفق.

---

(١) جامع البيان (١١/١٠٣-١٠٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٢).

(٣) حادي الأرواح (ص: ٢٠١).

(٤) الكشاف (٢/ ٢٣٤).

(٥) يونس: الآية (١٥).

(٦) الأحزاب: الآية (٢١).

وإن في قوله تعالى على أثر ذلك: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ مصداقًا لصحة هذا التفسير؛ فإن فيه تنبيهًا على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه اللَّه تعالى، فجدير بهم أن لا يرهق وجوههم قتر البعد ولا ذلة الحجاب، عكس المحرومين المحجوبين فإن وجوههم مرهقة بقتر الطرد وذلة البعد. نسأل اللَّه الكفاية»[1].

وقال الشوكاني: «قد ثبت التفسير بذلك من قول رسول اللَّه ﷺ، فلم يبق حينئذ لقائل مقال، ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين المتمذهبة الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به، فإنهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم، واللَّه المستعان»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه اللَّه ﷻ في الآخرة وأنها أعلى مراتب نعيم أهل الجنة

* عن صهيب ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال في هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة! إن لكم عند اللَّه موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يبيّض وجوهنا؟ ألم يثقّل موازيننا؟ ألم يزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة؟ فيكشف لهم عن الحجاب، فينظرون إلى اللَّه ﷻ، فما شيء أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة»[3].

★ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام: «ورؤيته سبحانه هي أعلى مراتب نعيم الجنة، وغاية مطلوب الذين عبدوا اللَّه مخلصين له الدين، وإن كانوا في الرؤية على درجات على حسب

---

(١) حاشية الكشاف (٢/ ٢٣٣-٢٣٤).

(٢) فتح القدير (٢/ ٦١٨).

(٣) أخرجه: الطبراني في الأوسط (١/ ٤٢٣-٤٢٤/ ٧٦٠) وإسناده صحيح على شرط مسلم. وأخرجه بنحوه: أحمد (٤/ ٣٣٢-٣٣٣)، ومسلم (١/ ١٦٣/ ١٨١)، والترمذي (٤/ ٥٩٣/ ٢٥٥٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦١-٣٦٢/ ١١٢٣٤)، وابن ماجه (١/ ٦٧/ ١٨٧).

قربهم من اللَّه ومعرفتهم به، والذي عليه جمهور السلف أن من جحد رؤية اللَّه في الدار الآخرة فهو كافر، فإن كان ممن لم يبلغه العلم في ذلك عُرّف ذلك كما يعرف من لم تبلغه شرائع الإسلام، فإن أصرّ على الجحود بعد بلوغ العلم له فهو كافر»(١).

«فبيّن النبي ﷺ أنهم مع كمال تنعّمهم بما أعطاهم اللَّه في الجنة؛ لم يعطهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه، وإنما يكون أحب إليهم؛ لأن تنعمهم وتلذذهم به أعظم من التنعم والتلذذ بغيره؛ فإن اللذة تتبع الشعور بالمحبوب، فكلما كان الشيء أحب إلى الإنسان؛ كان حصوله ألذ له، وتنعمه به أعظم، وروي أن يوم الجمعة يوم المزيد، وهو يوم الجمعة من أيام الآخرة، وفي الأحاديث والآثار ما يصدق هذا، قال اللَّه تعالى في حق الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾(٢) فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب، ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم منه تعالى، وهذان الأصلان ثابتان في الكتاب والسنة، وعليهما أهل العلم والإيمان»(٣).

تنبيه: تقدم الكلام على صفة الرؤية بشيء من التفصيل في سورة (الأعراف)، الآية (١٤٣).

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٨٦).

(٢) المطففين: الآية (١٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٢٦-٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٦﴾

★ غريب الآية:

يرهق: يقال: رهقه الأمر: إذا غشيه وعلاه. ومنه غلام مراهق إذا لحق بالرجال.

قتر: القتر والقترة: الغبار مع اسْوِدَاد. وأصل ذلك من القُتَارِ: وهو الدخان من الشواء والعود.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «قال الناصر: وفي تعقيب الزيادة بهذه الجملة مصداق لصحة تفسير الزيادة بالرؤية الكريمة؛ فإن فيه تنبيها على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه اللَّه تعالى، فجدير بهم ألا يرهق وجوههم قتر البعد، ولا ذلة الحجاب، عكس المحرومين المحجوبين، فإن وجوههم مرهقة بقتر الطرد، وذلة البعد»[(١)].

قال ابن كثير: «﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾أي: قتام وسواد في عرصات المحشر كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة. ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار، أي: لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر؛ بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[(٢)] أي: نضرة في وجوههم، وسرورًا في قلوبهم، جعلنا اللَّه منهم بفضله ورحمته؛ آمين»[(٣)].

قال الرازي: «واعلم أن حكماء الإسلام قالوا: المراد من هذا السواد المذكور ههنا سواد الجهل وظلمة الضلالة؛ فإن العلم طبعه طبع النور، والجهل طبعه طبع

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٢٦).
(٢) الإنسان: الآية (١١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٣).

الظلمة، فقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾[1] المراد منه نور العلم وروحه وبشره وبشارته، وقوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾[2] المراد منه ظلمة الجهل وكدورة الضلالة»[3].

وتعقبه أبو حيان حيث قال: «وكثيرًا ما ينقل هذا الرجل عن حكماء الإسلام في التفسير، وينقل كلامهم تارة منسوبًا إليهم، وتارة مستندًا به، ويعني بحكماء الإسلام الفلاسفة الذين خلقوا في مدة الملة الإسلامية، وهم أحق بأن يسمّوا سفهاء جهلاء من أن يسموا حكماء؛ إذ هم أعداء الأنبياء، والمحرفون للشريعة الإسلامية، وهم أضر على المسلمين من اليهود والنصارى. وإذا كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ نهي عن قراءة التوراة مع كونها كتابًا إلهيًا، فلأنْ ينهى عن قراءة كلام الفلاسفة أحق. وقد غلب في هذا الزمان وقبله بقليل الاشتغال بجهالات الفلاسفة على أكثر الناس، ويسمونها الحكمة، ويستجهلون من عري عنها، ويعتقدون أنهم الكملة من الناس، ويعكفون على دراستها، ولا تكاد تلقى أحدًا منهم يحفظ قرآنًا، ولا حديثًا عن رسول اللَّه ﷺ. ولقد غضضت مرة من ابن سينا، ونسبته للجهل، فقال لي بعضهم -وأظهر التعجب من كون أحد يغض من ابن سينا-: كيف يكون أعلم الناس باللَّه ينسب للجهل؟ ولما ظهر من قاضي الجماعة أبي الوليد محمد بن أبي القاسم أحمد بن أبي الوليد بن رشد الاعتناء بمقالات الفلاسفة والتعظيم لهم، أغرى به علماء الإسلام بالأندلس المنصور منصور الموحدين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، ملك المغرب والأندلس، حتى أوقع به ما هو مشهور من ضربه ولعنه وإهانته، وإهانة جماعة منهم على رؤوس الأشهاد..

ولما حللت بديار مصر، ورأيت كثيرًا من أهلها يشتغلون بجهالات الفلاسفة ظاهرًا من غير أن ينكر ذلك أحد، تعجبت من ذلك؛ إذ كنا نشأنا في جزيرة الأندلس على التبرؤ من ذلك والإنكار له، وأنه إذا بيع كتاب في المنطق إنما يباع خفية، وأنه

---

(١) عبس: الآيتان (٣٨و٣٩).

(٢) عبس: الآيتان (٤٠و٤١).

(٣) مفاتح الغيب (١٧/ ٨٤).

لا يتجاسر أن ينطق بلفظ (المنطق)، إنما يسمونه (المفعل)، حتى إنّ صاحبنا وزير الملك ابن الأحمر، أبا عبدالله محمد بن عبدالرحمن، المعروف بابن الحكيم، كتب إلينا كتابًا من الأندلس، يسألني أن أشتري أو أستنسخ كتابًا لبعض شيوخنا في المنطق، فلم يتجاسر أن ينطق بالمنطق وهو وزير، فسماه في كتابه لي بالمفعل»[١].

قلت: رحمة الله على إمام اللغة أبي حيان صاحب البحر المحيط على هذه الكلمة القيمة، وعلى هذه الغيرة الطيبة على القرآن والسنة وعلى الصحابة والتابعين، فإن ما وصف به فلاسفة الإسلام من الانحراف والزندقة هو أقل ما يقال فيهم، فإنهم أفسدوا على الأمة دينها وعقيدتها كما أفسد شؤول دين النصرانية فحرفه وبدله، فانتهى بفساده إلى عقيدة التثليث وعبادة الصليب وبقي دين عيسى محرفًا إلى يومنا هذا، وأنزل الله فيه قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة، وكذلك تُرجمت كتب اليونان في عهد المأمون، فأفسدت الأجيال والأديان، وبقي ضلالها منتشرًا إلى اليوم، ودخل -باسم الفلسفة- إلى الإسلام كل زنديق يريد هدمه وإفساده وتشويهه، فكان ما كان، وجاء المعاصرون الذين هم على منهاج هدم الإسلام فأدخلوا هذا الوباء في مقرر الإسلام باسم الفكر الإسلامي، وتبنى هذا الفكر الكفري جماعة من الزنادقة، ألفوا فيه وزينوه للناس وأقنعوا الحكومات فأسسوا باسمه الكليات، يكفر فيها بالله، وتعطى أكبر المناصب لأكبر زنديق باسم الدكتوراه والدراسات الفكرية، ولهذا تجد الذي يتولى هذه الدراسة في كل مراحل التعليم زنادقة متصفون بالخمر والانحلال، فهذا واقعهم، فنسأل الله السلامة والعافية.

وقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾

قال ابن جرير: «يقول: هؤلاء الذين وصفت صفتهم هم أهل الجنة وسكانها، ومن هم فيها ﴿هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ يقول: هم فيها ماكثون أبدًا، لا تبيد فيخافون زوال نعيمهم، ولا هم بمخرجين فتنغص عليهم لذتهم»[٢].

---

(١) البحر المحيط (٥/ ١٥١-١٥٢).
(٢) جامع البيان (١١/ ١٠٨-١٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والذين عملوا السيئات في الدنيا، فعصوا اللَّه فيها، وكفروا به وبرسوله، جزاء سيئة من عمله السيء الذي عمله في الدنيا بمثلها من عقاب اللَّه في الآخرة. ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يقول: وتغشاهم ذلة وهوان بعقاب اللَّه إياهم. ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يقول: ما لهم من اللَّه من مانع يمنعهم إذا عاقبهم يحول بينه وبينهم. . .

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

يقول -تعالى ذكره-: كأنما ألبست وجوه هؤلاء الذين كسبوا السيئات قِطَعًا من الليل، وهي جمع قِطعة (والمعنى): كأنما أغشيت وجه كلّ إنسان منهم قطعة من سواد الليل، ثم جمع ذلك فقيل: كأنما أغشيت وجوههم قطعا من سواد، إذ جمُع (الوجه). وقرأه بعض متأخري القرّاء: (قِطْعًا) بسكون الطاء، بمعنى: كأنما أغشيت وجوههم سوادًا من الليل، وبقية من الليل، ساعة منه، كما قال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[1] أي ببقية قد بقيت منه. . .

وقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يقول: هؤلاء الذين وصفت لك صفتهم أهل النار الذين هم أهلها، ﴿هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ يقول: هم فيها ماكثون»[2].

---

(١) هود: الآية (٨١)، الحجر: الآية (٦٥).

(٢) جامع البيان (١١/ ١٠٩-١١١).

قال ابن كثير: «لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ويزدادون على ذلك؛ عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر تعالى عدلَه فيهم وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك، ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[1] الآية. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾[2] الآيات.

وقوله: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: مانع ولا واقٍ يقيهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾[3].

وقوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ الآية إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[4] وكما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾[5] الآية»[6].

قال الألوسي: «احتجت الوعيدية بهذه الآية على قولهم الفاسد بخلود أهل الكبائر، وأجيب بأن السيئات شاملة للكفر وسائر المعاصي، وقد قامت الأدلة على أنه لا خلود لأصحاب المعاصي، فخصصت الآية بمن عداهم»[7].

* * *

(١) الشورى: الآية (٤٥).
(٢) إبراهيم: الآيات (٤٢-٤٤).
(٣) القيامة: الآيات (١٠-١٢).
(٤) آل عمران: الآيتان (١٠٦و١٠٧).
(٥) عبس: الآيات (٣٨-٤٢).
(٦) تفسير القرآن (٤/ ٢٦٣-٢٦٤).
(٧) روح المعاني (١١/ ١٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

★ غريب الآية:

فزيلنا: زيلنا أي: ميزنا وفرقنا، من قولك: زِلْتُه أَزِيلُه أي: ميّزته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويوم نجمع الخلق لموقف الحساب جميعا، ثم نقول حينئذ للذين أشركوا بالله الآلهة والأنداد: مكانكم أي امكثوا مكانكم، وقفوا في موضعكم أنتم أيها المشركون، وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله من الآلهة والأوثان. ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ يقول: ففرّقنا بين المشركين بالله وما أشركوه به وبين غيره وأبنته منه... ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ وذلك حين ﴿تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[1] لما قيل للمشركين: اتبعوا ما كنتم تعبدون من دون الله، ونصبت لهم آلهتهم، قالوا: كنا نعبد هؤلاء، فقالت الآلهة لهم: ما كنتم إيانا تعبدون...

قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل شركاء المشركين من الآلهة والأوثان لهم يوم القيامة، إذ قال المشركون بالله لها: إياكم كنا نعبد، كفى بالله شهيدا بيننا وبينكم؛ أي: إنها تقول: حسبنا الله شاهدا بيننا وبينكم أيها المشركون، فإنه قد علم أنا ما علمنا ما تقولون. ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ يقول: ما كنا عن عبادتكم إيانا دون الله إلا غافلين، لا نشعر به ولا نعلم»[2].

---

(١) البقرة: الآية (١٦٦).

(٢) جامع البيان (١١/ ١١١-١١٢).

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾، أي: أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر كقوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[١]. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ الآية. أي: الزموا أنتم وهم مكانًا معينًا امتازوا فيه عن مقام المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[٢]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[٣] وفي الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[٤]، أي: يصيرون صدعين، وهذا يكون إذا جاء الرب -تبارك وتعالى- لفصل القضاء، ولهذا (جاء في الحديث) يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء...

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخبارا عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ الآية. أنكروا عبادتهم وتبرءوا منهم كما قال تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[٥] الآية وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾[٦] وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[٧] الآية. وقال في هذه الآية إخبارا عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم ثم ادعائهم عبادتهم: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ الآية. أي ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا أمرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك، وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئا، ولم يأمرهم بذلك، ولا رضي به، ولا أراده؛ بل تبرأ منهم في وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع البصير القادر العليم بكل شيء، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه آمرًا بعبادته وحده لا شريك له، ناهيًا عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ

(١) الكهف: الآية (٤٧).
(٢) يس: الآية (٥٩).
(٣) الروم: الآية (١٤).
(٤) الروم: الآية (٤٣).
(٥) مريم: الآية (٨٢).
(٦) البقرة: الآية (١٦٦).
(٧) الأحقاف: الآيتان (٥و٦).

هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[(٢)] وقال: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[(٣)] والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم اللَّه في كتابه وبين أحوالهم وأقوالهم، ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التفريق بين المؤمنين والمشركين في المحشر

* عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«يجمع اللَّه الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك»** وقال ابن عبيد: **«فيلهمون لذلك، فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا. قال: فيأتون آدم ﷺ، فيقولون: أنت آدم أبو الخلق، خلقك اللَّه بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. .»** الحديث[(٥)].

★ **غريب الحديث:**

فيهتمّون، وفي رواية: **فيُلهمون**: معنى اللفظين متقارب، فمعنى الأول: أنهم يعتنون بسؤال الشفاعة وزوال الكرب الذي هم فيه. ومعنى الثاني: أن اللَّه تعالى يلهمهم سؤال ذلك، والإلهام أن يلقي اللَّه تعالى في النفس أمرًا يحمل على فعل الشيء أو تركه.

* عن جابر رضي الله عنه أنه سئل عن الورود قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«نحن يوم القيامة على كَوم فوق الناس، فيدعى بالأمم بأوثانها وما كانت تعبد، الأول فالأول. . .» الحديث**[(٦)].

---

(١) النحل: الآية (٣٦).
(٢) الأنبياء: الآية (٢٥).
(٣) الزخرف: الآية (٤٥).
(٤) التفسير (٤/ ٢٦٤).
(٥) رواه: أحمد (٣/ ١١٦)، والبخاري (٨/ ٢٠٢-٢٠٣/ ٤٤٧٦)، ومسلم (١/ ١٨٠/ ١٩٣) واللفظ له، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٢/ ٤٣١٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٠-٣٣١/ ١١١٣١).
(٦) رواه: أحمد (٣/ ٣٤٥-٣٤٦) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٧٧/ ١٩١).

★ غريب الحديث:

على كَوم: الكوم بالفتح: المواضع المشرفة، واحدها كومة.

★ فوائد الحديثين:

هذان الحديثان لهما تعلق بقوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ ، ووجه مطابقة الحديثين للآية أن للمشركين ومعبوداتهم في المحشر مقامًا يتميزون فيه عن مقام المؤمنين، وهذا -يقول ابن كثير رحمه الله- إنما يكون إذا جاء الرب -تبارك وتعالى- لفصل القضاء، كما في حديث الشفاعة أن المؤمنين يستشفعون إلى اللَّه تعالى لفصل القضاء. وأورد ابن كثير رحمه اللَّه حديث جابر الدال على هذه الحالة التي يتميز فيها المشركون عن المؤمنين، بحيث يكون المؤمنون على كوم فوق الناس متميزين عنهم. واستشهد رحمه اللَّه على تقوية هذا المعنى بآيات كثيرة كما تقدم في النقل عنه، وهذا الذي قرره رحمه اللَّه قد ذهب إليه السيوطي أيضًا كما نقل ذلك عنه صديق حسن خان القنوجي في تفسيره «فتح البيان»[1].

لكن القول الذي عليه أكثر المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرقنا بين العابدين والمعبودين من المشركين، وميزنا بينهم، وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا[2].

وهذا القول يشهد له ظاهر السياق، إذ الكلام في المشركين ومعبوداتهم. واللَّه أعلم.

* * *

(١) (٦/ ٥٣).

(٢) انظر لباب التأويل (٢/ ٢٩٥).

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أسلفت: أي: ما قدمت، ومنه السلف الآباء الماضون، والسالف المتقدم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي: في ذلك المكان، وهو موقف الحساب، أو في ذلك الوقت أو اليوم تختبر كل نفس من عابدة ومعبودة، ومؤمنة وجاحدة، وشاكرة وكافرة، ما قدمت في حياتها الدنيا من عمل، وما كان لكسبها في صفاتها من أثر، من خير وشر، ونفع وضر، بما ترى من الجزاء عليه، وكونه ثمرة طبيعية له، لا شأن فيه لولي ولا شفيع، ولا معبود ولا شريك. وهنالك مواقف وأوقات أخرى لا سؤال فيها ولا جدال، تغني فيها دلالة الحال عن المقال، ولكل مقام مقال»[١].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي: في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس، وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٤]»[٥].

وقال ابن جرير: «اختلفت القرّاء في قراءة قوله: ﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ بالباء، بمعنى: عند ذلك تختبر كلّ نفس بما قدّمت من خير أو شرّ. . .

---

(١) تفسير المنار (١١/ ٣٥٤).
(٢) الطارق: الآية (٩).
(٣) القيامة: الآية (١٣).
(٤) الإسراء: الآيتان (١٣و١٤).
(٥) التفسير (٤/ ٢٦٥).

وقرأ ذلك جماعة من أهل الكوفة وبعض أهل الحجاز: ﴿تتلو كل نفس ما أسلفت﴾ بالتاء.

واختلف قارئوا ذلك كذلك في تأويله، فقال بعضهم: معناه وتأويله: هنالك تتبع كلّ نفس ما قدمت في الدنيا لذلك اليوم... وقال بعضهم: بل معناه: تتلو كتاب حسناته وسيئاته، يعني تقرأ، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾.

وقال آخرون: تبلو: تعاين...

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان قد قرأ بكلّ واحدة منهما أئمة من القرّاء، وهما متقاربتا المعنى وذلك أن من تبع في الآخرة ما أسلف من العمل في الدنيا، هجم به على مورده، فيخبر هنالك ما أسلف من صالح أو سيئ في الدنيا، وإن من خبر من أسلف في الدنيا من أعماله في الآخرة، فإنما يخبر بعد مصيره إلى حيث أحله ما قدم في الدنيا من عمله، فهو في كلتا الحالتين متبع ما أسلف من عمله مختبر له، فبأيتهما قرأ القارئ كما وصفنا فمصيب الصواب في ذلك.

أما قوله: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ فإنه يقول: ورجع هؤلاء المشركون يومئذ إلى اللّه الذي هو ربهم ومالكهم الحقّ، لا شك فيه دون ما كانوا يزعمون أنهم لهم أرباب من الآلهة والأنداد. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ يقول: ويطل عنهم ما كانوا يتخرّصون من الفرية والكذب على اللّه بدعواهم أوثانهم أنها لله شركاء، وأنها تقرّبهم منه زلفى»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن كل أمة تتبع عملها وما كانت تعبد يوم القيامة

* عن أبي هريرة ﷺ: أن ناسًا قالوا لرسول اللّه ﷺ: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة..» الحديث. وفيه: «يجمع اللّه الناس يوم القيامة، فيقول: من كان

(١) جامع البيان (١١/ ١١٢-١١٣).

يعبد شيئا فليتّبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت. . »[١].

★ فوائد الحديث:

ذكر ابن كثير رحمه اللَّه أن بعض المفسرين فسر الآية بهذا الحديث، حيث قال:

«وفسرها بعضهم بحديث: «تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس. . » الحديث»[٢].

قلت: ولا يستقيم تفسير الآية بالحديث الذي ذكره إلا على قراءة من قرأ ﴿تَتْلُواْ﴾ بتاءين، «وفي معنى الآية على هذه القراءة وجهان -كما تقدم-؛ أحدهما: تتلو بمعنى تقرأ في كتاب أعمالها جميع ما قدمت. والثاني: أن كل أمة تتبع عملها كما في هذا الحديث. واللَّه أعلم»[٣].

«فإن عمله -يقول الزمخشري- هو الذي يهديه إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار»[٤].

قال ابن أبي جمرة: «قوله ﷺ: «من كان يعبد شيئًا فليتبعه» (شيء) يعم جميع الأشياء مدرَكَةً كانت أو غير مُدرَكة، فالمدرَك منها مثل الشمس والقمر والنجوم والأوثان على اختلافها، وغير المدرك منها مثل الملائكة وهوى النفوس، لقوله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[٥] وما أشبهها. **وفي قوله ﷺ أولًا: «من كان يعبد شيئًا» ثم ذكر الشمس والقمر، ثم عمّ بذكر الطواغيت؛ دليل على أن كل ما يعبد من دون اللَّه كائنا ما كان؛ هو من جملة الطواغيت»[٦].**

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧٥-٢٧٦)، والبخاري (١١/ ٥٤٣-٥٤٤/ ٦٥٧٣)، ومسلم (١/ ١٦٣-١٦٤/ ١٨٢) واللفظ له.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٥-٢٦٦).

(٣) أضواء البيان (٢/ ١٥٤).

(٤) الكشاف (٢/ ٢٣٥).

(٥) الجاثية: الآية (٢٣).

(٦) بهجة النفوس (٢/ ٢٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الإله، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقا بقدرته ومشيئته، فيخرج منها حبًّا وعنبًا وقضبًا، وزيتونًا ونخلًا وحدائق غلبًا، وفاكهة وأبًّا، أإله مع الله؟ فسيقولون اللَّه. أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه؟

وكذلك قوله ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها وسلبكم إياها كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[(١)] الآية. وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾[(٢)] الآية.

وقوله: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: بقدرته العظيمة، ومنته العميمة..

وقوله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن، فالملك كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه.

---

(١) الملك: الآية (٢٣).

(٢) الأنعام: الآية (٤٦).

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: هم يعلمون ذلك ويعترفون به. ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم»[1].

قال الشنقيطي: «صرح اللَّه تعالى في هذه الآية الكريمة، بأن الكفار يقرون بأنه -جل وعلا- هو ربهم الرزاق المدبر للأمور المتصرف في ملكه بما يشاء، وهو صريح في اعترافهم بربوبيته، ومع هذا أشركوا به -جل وعلا-.

والآيات الدالة على أن المشركين مقرون بربوبيته -جل وعلا-. ولم ينفعهم ذلك لإشراكهم معه غيره في حقوقه -جل وعلا- كثيرة، كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[2] وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3] وقوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[5].

والآيات المذكورة صريحة في أن الاعتراف بربوبيته -جل وعلا-، لا يكفي في الدخول في دين الإسلام إلا بتحقيق معنى لا إله إلا اللَّه نفيًا وإثباتًا.. أما تجاهل فرعون لعنه اللَّه لربوبيته -جل وعلا-، في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[6] فإنه تجاهل عارف لأنه عبد مربوب، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[7] وقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[8]»[9].

وقال ابن القيم: «فإن قيل فهل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة (يونس): ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ وبين قوله في سورة (سبأ): ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾[10]؟ قيل: هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها، وألطفها فرقا، فتدبر السياق تجده نقيضا لما وقع، فإن الآيات

---

(١) التفسير (٤/ ٢٦٦).
(٢) الزخرف: الآية (٨٧).
(٣) الزخرف: الآية (٩).
(٤) المؤمنون: الآيات (٨٤-٨٩).
(٥) يوسف: الآية (١٠٦).
(٦) الشعراء: الآية (٢٣).
(٧) الإسراء: الآية (١٠٢).
(٨) النمل: الآية (١٤).
(٩) أضواء البيان (٢/ ١٥٤-١٥٥).
(١٠) سبأ: الآية (٢٤).

التي في (يونس) سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به، ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رازقهم ومالك أسماعهم وأبصارهم، ومدبر أمورهم وغيرها، ومخرج الحي من الميت والميت من الحي، فلما كانوا مقرين بهذا كله؛ حسن الاحتجاج به عليهم: إن فاعل هذا هو اللَّه الذي لا إله غيره، فكيف يعبدون معه غيره، ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئا من هذا، ولا يستطيعون فعل شيء منه، ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى: فسيقولون اللَّه، أي: لا بد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه، فلا بد أن يكون المذكور مما يقرون به، والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم، ولم يصل علمهم إلى هذا، فأفردت لفظ السماء هنا، فإنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها، لا سيما والرزق ههنا إن كان هو المطر فمجيئه من السماء التي هي السحاب، فإنه يسمى سماء لعلوه، وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[1]، والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو، لا في نفس الفلَك، وهذا معلوم بالحس فلا يلتفت إلى غيره، فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم لم يصلح فيه إلا إفراد السماء؛ لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح، ولا بد من الوحي الذي به الحياة الحقيقية الأبدية، وهو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياة الفانية المنقضية، فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة والألطاف والموارد الربانية والتنزلات الإلهية، وما به قوام العالم العلوي والسفلي؛ من أعظم أنواع الرزق ولكن القوم لم يكونوا مقرين به، فخوطبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم بحيث لا يمكنهم إنكاره. وأما الآية التي في سورة سبأ فلم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السموات، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها، ولم يذكر عنهم أنهم المجيبون المقرون، فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ ولم يقل: سيقولون اللَّه، فأمر تعالى نبيه أن يجيب بأن

---

(١) الروم: الآية (٤٨).

ذلك هو اللَّه وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السموات السبع، وأما الأرض فلم يدْع السياق إلى جمعها في واحدة من الاثنين إذ يقر به كل أحد مؤمن وكافر وبر وفاجر»[١].

* * *

(١) بدائع الفوائد (١/ ١١٧-١١٨).

قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- للخلق: أيها الناس! فهذا الذي يفعل هذه الأفعال، فيرزقكم من السماء والأرض ويملك السمع والأبصار ويخرج الحي من الميت والميت من الحي، ويدبر الأمر؛ ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ لا شك فيه ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ يقول: فأيّ شيء سوى الحق إلا الضلال، وهو الجور عن قصد السبيل، يقول: فإذا كان الحق هو ذا؛ فادعاؤكم غيره إلهًا وربًّا هو الضلال والذهاب عن الحق لا شك فيه، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ يقول: فأيّ وجه عن الهدى والحق تصرفون وسواهما تسلكون، وأنتم مقرون بأن الذي تصرفون عنه هو الحق»[1].

«وفي الآية من قواعد العقائد الدينية، وأصول التشريع والعلم أن الحق والباطل فيهما ضدان لا يجتمعان، وأن الهدى والضلال ضدان لا يجتمعان، ولهذا الأصل فروع كثيرة في الدين والعلم العقلي. وفيها من حسنات الإيجاز في التعبير ما يسميه علماء البديع بالاحتباك، وهو أن يحذف من كل من المتقابلين ما يدل عليه مقابله في الآخر، وهو ظاهر في الآية أتم الظهور، وإن غفل عنه الجمهور»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات اسم (الحق) لله تعالى

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: **«اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت**

(١) جامع البيان (١١/ ١١٤).
(٢) تفسير المنار (١١/ ٣٥٩).

ملك السموات والأرض، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت، أو لا إله غيرك»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «أنت الحق» هذا الطرف من الحديث مطابق لقوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ ومعنى قوله: «أنت الحق» -يقول الحافظ ابن حجر- أي: المتحقق الوجود الثابت بلا شك فيه[٢].

وقال الخطابي: «والحق هو المتحقق كونه ووجوده، وكل شيء صحّ وجوده وكونه فهو حق، ومنه قوله سبحانه: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾[٣] معناه -والله أعلم- الكائنة حقًا لا شك في كونها، ولا مدفع لوقوعها، ويقال: الجنة حق والنار حق والساعة حق، يراد أن هذه الأشياء كائنة لا محالة، والعرب تقول: إن فلانًا الرجل حق الرجل، والشجاع حق الشجاع، وحاق الشجاع، وحاقة الشجاعة، إذا أثبتوا له الشجاعة وحقيقتها»[٤].

وقال الحليمي: «والحق ما لا يسع إنكاره، ويلزم إثباته والاعتراف به، ووجود الباري تعالى أولى ما يجب الاعتراف به، ولا يسع جحده، إذ لا مثبَت يتظاهر عليه من الدلائل البينة الظاهرة، ما تظاهرت على وجود الباري ﷻ»[٥].

قال السعدي: «الحق في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فهو الذي لم

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٨)، والبخاري (٣/ ٣/ ١١٢٠)، ومسلم (١/ ٥٣٢/ ٧٦٩)، وأبو داود (١/ ٤٨٨/ ٧٧١)، والترمذي (٥/ ٤٤٩/ ٣٤١٨)، والنسائي (٣/ ٢٣١-٢٣٢/ ١٦١٨)، وابن ماجه (١/ ٤٣٠/ ١٣٥٥).

(٢) فتح الباري (٣/ ٤).

(٣) الحاقة: الآيتان (١و٢).

(٤) بواسطة النهج الأسنى للنجدي (٢/ ٩-١٠).

(٥) المنهاج في شعب الإيمان (١/ ١٨٨).

يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفا، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفًا، فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو الحق، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[1]، ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾[2]، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ﴾، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[3]، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»[4].

* * *

(١) الحج: الآية (٦٢).

(٢) الكهف: الآية (٢٩).

(٣) الإسراء: الآية (٨١).

(٤) مقدمة تيسير الكريم الرحمن (١٩).

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع اللَّه غيره مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده الذي بعث رسله بتوحيده؛ فلهذا حقت عليهم كلمة اللَّه أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١]»[٢].

قال القرطبي: «وفي هذا أوفى دليل على القدرية»[٣].

وقال الألوسي: «وفيه دلالة على شرف الإيمان؛ بأن عذاب المتمردين في الكفر بسبب انتفاء الإيمان»[٤].

* * *

---

(١) الزمر: الآية (٧١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢١٧).

(٤) روح المعاني (١١/ ١١٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

★ غريب الآية:

تؤفكون: الأَفْكُ بالفتح: مصدر أَفَكَهُ، أي: قلبه وصرفه عن الشيء، وبابه ضرب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قُلْ يا محمد ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ يعني من الآلهة والأوثان ﴿مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يقول: من ينشىء خلق شيء من غير أصل، فيحدث خلقه ابتداء ثم يعيده، يقول: ثم يفنيه بعد إنشائه، ثم يعيده كهيئته قبل أن يفنيه؟ فإنهم لا يقدرون على دعوى ذلك لها. وفي ذلك الحجة القاطعة والدلالة الواضحة على أنهم في دعواهم أنها أرباب وهي لله في العبادة شركاء؛ كاذبون مفترون. فقُل لهم حينئذ يا محمد: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ فينشئه من غير شيء ويحدثه من غير أصل ثم يفنيه إذا شاء، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إذا أراد كهيئته قبل الفناء. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ يقول: فأيّ وجه عن قصد السبيل وطريق الرشد تصرفون وتقلبون»[1].

قال الشنقيطي: «ألقم اللَّه تعالى المشركين في هذه الآيات حجرًا، بأن الشركاء التي يعبدونها من دونه لا قدرة لها على فعل شيء، وأنه هو وحده -جل وعلا- الذي يبدأ الخلق ثم يعيده بالإحياء مرة أخرى، وأنه يهدي من يشاء.

وصرح بمثل هذا في آيات كثيرة كقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2]،

(١) جامع البيان (١١/ ١١٥).

(٢) الروم: الآية (٤٠).

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[1]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾[3]، وقوله: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾[4]، وقوله: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾[5]، وقوله: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ﴾[6]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقًا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾[7].

والآيات في مثل ذلك كثيرة، ومعلوم أن تسوية ما لا يضر ولا ينفع ولا يقدر على شيء، مع من بيده الخير كله المتصرف بكل ما شاء، لا تصدر إلا ممن لا عقل له، كما قال تعالى عن أصحاب ذلك: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[8]»[9].

* * *

(١) الفرقان: الآية (٣).
(٢) فاطر: الآية (٣).
(٣) النحل: الآية (١٧).
(٤) الرعد: الآية (١٦).
(٥) الزمر: الآية (٣٨).
(٦) الملك: الآية (٢١).
(٧) العنكبوت: الآية (١٧).
(٨) الملك: الآية (١٠).
(٩) أضواء البيان (٢/ ١٥٥).

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ الذين تدعون من دون اللّٰه، وذلك آلهتهم وأوثانهم، ﴿مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يقول: من يرشد ضالاً من ضلالته إلى قصد السبيل، ويسدّد جائرا عن الهدى إلى واضح الطريق المستقيم فإنهم لا يقدرون أن يدّعوا أن آلهتهم وأوثانهم ترشد ضالاً أو تهدي حائرا. وذلك أنهم إن ادّعوا ذلك لها أكذبتهم المشاهدة وأبان عجزها عن ذلك الاختبار بالمعاينة، فإذا قالوا لا وأقرّوا بذلك، فقل لهم. فاللّٰه يهدي الضالّ عن الهدى إلى الحقّ. ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ﴾ أيها القوم ضالاً ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وجائرا عن الرشد إلى الرشد، ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ إلى ما يدعو إليه ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ ؟!

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ألا تعلمون أن من يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يُتّبع من الذي لا يهتدي إلى شيء إلا أن يهديه إليه هاد غيره، فتتركوا اتباع من لا يهتدي إلى شيء وعبادته وتتبعوا من يهديكم في ظلمات البرّ والبحر، وتخلصوا له العبادة فتفردوه بها وحده دون ما تشركونه فيها من آلهتكم وأوثانكم»[1].

* * *

(١) جامع البيان (١١/ ١١٥-١١٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين إلا ظنًّا، يقول: إلا ما لا علم لهم بحقيقته وصحته، بل هم منه في شكّ وريبة. ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾يقول: إن الشكّ لا يغني من اليقين شيئًا، ولا يقوم في شيء مقامه، ولا ينتفع به حيث يحتاج إلى اليقين. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن اللَّه ذو علم بما يفعل هؤلاء المشركون من اتباعهم الظنّ وتكذيبهم الحقّ اليقين، وهو لهم بالمرصاد، حيث لا يغني عنهم ظنهم من اللَّه شيئًا»[(١)].

وقال الشوكاني: «والمعنى: ما يتبع هؤلاء المشركون في إشراكهم باللَّه، وجعلهم له أندادًا إلا مجرّد الظن والتخمين والحدس، ولم يكن ذلك عن بصيرة؛ بل ظن من ظن من سلفهم أن هذه المعبودات تقرّبهم إلى اللَّه، وأنها تشفع لهم، ولم يكن ظنه هذا لمستند قط؛ بل مجرد خيال مختل وحدس باطل، ولعل تنكير الظن هنا للتحقير، أي: إلا ظنًّا ضعيفًا لا يستند إلى ما تستند إليه سائر الظنون.

وقيل: المراد بالآية: إنه ما يتبع أكثرهم في الإيمان باللَّه والإقرار به إلا ظنًّا. والأوّل أولى.

ثم أخبرنا اللَّه سبحانه بأن مجرد الظن لا يغني من الحق شيئًا؛ لأن أمر الدين إنما يبنى على العلم، وبه يتضح الحق من الباطل، والظن لا يقوم مقام العلم، ولا يدرك به الحق، ولا يغني عن الحق في شيء من الأشياء»[(٢)].

وقال المراغي: «وفي الآية إيماء إلى أن أصول الإيمان تبنى على اليقين دون

---

(١) جامع البيان (١١٦).

(٢) فتح القدير (٢/ ٦٢٢).

الظن؛ فالعلم المفيد للحق ما كان قطعيًّا من كتاب أو سنة، وهو الدين الذي لا يجوز للمسلمين التفرق والاختلاف فيه، وما دونه مما لا يفيد إلا الظن فلا يؤخذ به في الاعتقاد، وهو متروك للاجتهاد في الأعمال، اجتهاد الأفراد في الأعمال الشخصية، واجتهاد أولي الأمر في القضاء مع سلوك طريق الشورى حتى يتحقق العدل والمساواة في المصالح العامة»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من اتباع الظن

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث. ولا تحسسوا ولا تجسسوا، ولا تناجشوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد اللَّه إخوانًا**»[2].

★ غريب الحديث:

تحسّسوا: بالحاء؛ البحث عما يدرك بحاسة العين والأذن.

تجسّسوا: بالجيم؛ البحث عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر.

تحاسدوا: تمني الشخص زوال النعمة عن مستحق لها.

تدابروا: تهاجروا، مأخوذ من تولية الرجل الآخرَ دبره إذا أعرض عنه حين يراه.

★ فوائد الحديث:

وجه مطابقة الحديث للآية أن المشركين الذين أخبر اللَّه عنهم في هذه الآية «لا يتبعون في دينهم هذا دليلًا ولا برهانًا، وإنما هو ظن منهم، أي: توهم وتخييل، وذلك لا يغني عنهم شيئًا»[3].

فحذر النبي ﷺ من اتباع الظن في أمور الدين التي مبناها على اليقين والقطع.

---

(١) تفسير المراغي (١١/ ١٠٥-١٠٦).

(٢) رواه: أحمد (٢/ ٥١٧)، والبخاري (١٠/ ٥٩٣/ ٦٠٦٦)، ومسلم (٤/ ١٩٨٥/ ٢٥٦٣)، وأبو داود (٥/ ٢١٦-٢١٧/ ٤٩١٧)، والترمذي (٤/ ٣١٣/ ١٩٨٨).

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢٦٨).

قال القاري في قوله ﷺ: «إياكم والظن» "أي: احذروا اتباع الظن في أمر الدين الذي مبناه على اليقين، قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ قال القاضي: التحذير من الظن فيما يجب فيه القطع، أو التحدث به عند الاستغناء عنه أو عما يظن كذبه»[١].

وذكر ابن عاشور أن الظن يطلق مجازًا على الاعتقاد المخطئ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[٢] وقول النبي ﷺ كما في هذا الحديث: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث**».

قال: والظن كثر إطلاقه في القرآن والسنة على العلم المخطئ أو الجهل المركب والتخييلات الباطلة»[٣].

قلت: والظن الذي اتبعه المشركون المخبر عنهم في الآية إنما هو من هذا الباب، والله أعلم.

قوله: «**فإن الظن أكذب الحديث**».

قال الحافظ: «وأما وصف الظن بكونه أكذب الحديث، مع أن تعمد الكذب الذي لا يستند إلى ظن أصلا أشدّ من الأمر الذي يستند إلى الظن، فللإشارة إلى أن الظن المنهي عنه هو الذي لا يستند إلى شيء يجوز الاعتماد عليه، فيعتمد عليه ويجعل أصلا، ويجزم به، فيكون الجازم به كاذبًا، وإنما صار أشد من الكاذب، لأن الكذب في أصله مستقبح مستغنى عن ذمه، بخلاف هذا فإن صاحبه بزعمه، مستند إلى شيء فوصف بكونه أشد الكذب مبالغة في ذمه، والتنفير منه، وإشارة إلى أن الاغترار به أكثر من الكذب المحض لخفائه غالبًا ووضوح الكذب المحض»[٤].

* * *

---

(١) المرقاة (٨/ ٧٦٠).

(٢) الحجرات: الآية (١٢).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٦٥-١٦٦).

(٤) الفتح (١٠/ ٥٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «لما فرغ سبحانه من دلائل التوحيد وحججه، شرع في تثبيت أمر النبوة، أي: وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة والبراهين الواضحة يفترى من الخلق من دون اللَّه، وإنما هو من عند اللَّه ﷻ، وكيف يصح أن يكون مفترىً وقد عجز عن الإتيان بسورة منه القوم الذين هم أفصح العرب لسانًا، وأدقهم أذهانًا؟!»[1].

قال ابن كثير: «هذا بيان لإعجاز القرآن وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله؛ لأنه بفصاحته وبلاغته، ووجازته وحلاوته، واشتماله على المعاني العزيزة الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة؛ لا يكون إلا من عند اللَّه الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند اللَّه، ولا يشبه هذا كلام البشر، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة، ومهيمنا عليها ومبينا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل، وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام بيانا شافيا كافيا، حقا لا مرية فيه من اللَّه رب العالمين...

(١) فتح القدير (٢/ ٦٢٣).

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند اللّه، وقلتم كذبا ومينا: إن هذا من عند محمد، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة مثله أي: من جنس هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان، وهذا هو المقام الثالث في التحدي؛ فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده، وليستعينوا بمن شاءوا، وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك ولا سبيل لهم إليه فقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1] ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال في أول سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2] ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وكذا في سورة البقرة وهي مدنية، تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبدًا، فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[3].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من اللّه ما لا قبل لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له، وأشدّهم له انقيادا، كما عرف السحرة بعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد مرسل من اللّه، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن اللّه، وكذلك عيسى عليه السلام بعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى فكان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن اللّه، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبداللّه ورسوله»[4].

---

(١) الإسراء: الآية (٨٨).

(٢) هود: الآية (١٣).

(٣) البقرة: الآية (٢٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٨-٢٦٩).

وقال الشوكاني: «وسبحان اللَّه العظيم! ما أقوى هذه الحجة وأوضحها وأظهرها للعقول! فإنهم لما نسبوا الافتراء إلى واحد منهم من البشرية والعربية، قال لهم: هذا الذي نسبتموه إليّ وأنا واحد منكم، ليس عليكم إلا أن تأتوا، وأنتم الجمع الجمّ، بسورة مماثلة لسورة من سوره، واستعينوا بمن شئتم من أهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم، أو من غيرهم من بني آدم، أو من الجنّ، أو من الأصنام، فإن فعلتم هذا بعد اللتيا والتي فأنتم صادقون فيما نسبتموه إليّ وألصقتموه بي. فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف والتنزّل البالغ بكلمة، ولا نطقوا ببنت شفة؛ بل كاعوا عن الجواب، وتشبثوا بأذيال العناد البارد، والمكابرة المجردة عن الحجة، وذلك مما لا يعجز عنه مبطل»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن أعظم ما أوتيه النبي ﷺ من الآيات: القرآن العظيم

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه اللَّه إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قوله ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي..»

قال القرطبي رحمه الله: «يعني أن كل رسول أُيّد بمعجزة تدل على صحة رسالته، فيظهر صدقه، وتثبت حجّته، كما قد علم من أحوالهم؛ بما أخبرنا اللَّه به وبيّنه عنهم؛ غير أن معجزاتهم تنقرض بانقراضهم، فلا يبقى منها بعدهم إلا الإخبار بها، وذلك قد يخفى مع توالي الأعصار. ونبيّنا ﷺ وإن كان قد أعطي من كل نوع من أنواع معجزات الأنبياء قبله، كما قد أوضحناه في كتابنا المسمّى بـ"الإعلام

(١) فتح القدير (٢/ ٦٢٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤١)، والبخاري (٩/ ٣/ ٤٩٨١)، ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣/ ٧٩٧٧).

بصحّة نبوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ؛ لكنّه فضّل على جميعهم بالمعجزة العظمى الباقية ما بقيت الدنيا ، وهي : الكتاب العزيز الذي أعجزت السورة منه الجنّ والإنس أيَّ تعجيز ، فإعجازه مشاهدٌ بالعيان ؛ متجدد ما تعاقب الجديدان ، فمن ارتاب الآن في صدق قوله ؛ قيل له : فائت بسورة من مثله ، ولما كانت هذه المعجزة قاطعة الظهور ، مستمرة مدى الدهور ، اشترك في معرفتها المتقدمون والمتأخرون ، واستوى في معرفة صدق محمد ﷺ السابقون واللاحقون ، فدخل العقلاء في دينه دخولًا متتابعًا ، وحقّق اللَّه تعالى له رجاءه ، فكان أكثر الأنبياء تابعًا»[١] .

وقال الحافظ : «ومعنى الحصر في قوله : «إنما كان الذي أوتيته» أن القرآن أعظم المعجزات وأفيدها وأدومها لاشتماله على الدعوة والحجة ودوام الانتفاع به إلى آخِر الدهر ، فلما كان لا شيء يقاربه فضلا عن أن يساويه كان ما عداه بالنسبة إليه كأن لم يقع»[٢] .

* * *

---

(١) المفهم (٦/ ٥٠).

(٢) الفتح (١٣/ ٣٠٩).

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الزمخشري: «﴿بَلْ كَذَّبُوا۟﴾: بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن، وفاجؤوه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم»[1].

وقال الشوكاني: «﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ بيان أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن قبل أن يتدبروه ويفهموا معانيه، وما اشتمل عليه، وهكذا صنع من تصلب في التقليد، ولم يبال لما جاء به من دعا إلى الحق وتمسك بذيول الإنصاف؛ بل يردّه بمجرد كونه لم يوافق هواه، ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه ويعلم مبناه، كما تراه عيانًا وتعلمه وجدانًا.

والحاصل أن من كذب بالحجة النيرة، والبرهان الواضح، قبل أن يحيط بعلمه، فهو لم يتمسك بشيء في هذا التكذيب، إلا مجرد كونه جاهلًا لما كذب به غير عالم به، فكان بهذا التكذيب مناديًا على نفسه بالجهل بأعلى صوت، ومسجلًا بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل، وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء»[2].

وقال ابن عطية: «هذا اللفظ يحتمل معنيين؛ أحدهما: أن يريد بها الوعيد الذي توعدهم الله ﷻ على الكفر، وتأويله على هذا يراد به ما يؤول إليه أمره؛ كما هو في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾[3]، والآية بجملتها على هذا التأويل تتضمن وعيدًا.

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٣٨).
(٢) فتح القدير (٢/ ٦٢٤).
(٣) الأعراف: الآية (٥٣).

والمعنى الثاني: أنه أراد: بل كذبوا بهذا القرآن العظيم المنبئ بالغيوب الذي لم تتقدم لهم به معرفة، ولا أحاطوا بعلم غيوبه وحسن نظمه، ولا جاءهم تفسير ذلك وبيانه»[١].

قال الشنقيطي: «التحقيق أن تأويله هنا هو حقيقة ما يؤول إليه الأمر يوم القيامة.. ويدل لصحة هذا قوله في (الأعراف): ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾[٢].

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾[٣]»[٤].

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كما كذّب هؤلاء المشركون يا محمد بوعيد اللّه، كذلك كذّب الأمم التي خلت قبلهم بوعيد اللّه إياهم على تكذيبهم رسلهم وكفرهم بربهم.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: فانظر يا محمد كيف كان عقبىَ كفر من كفر باللّه، ألم نهلك بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالغرق؟ يقول: فإن عاقبة هؤلاء الذي يكذّبونك ويجحدون بآياتي من كفار قومك، كالتي كانت عاقبة من قبلهم من كفرة الأمم، إن لم ينيبوا من كفرهم ويسارعوا إلى التوبة»[٥].

وفي الآية «دليل على وجوب التثبت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علمًا»[٦].

* * *

(١) المحرر الوجيز (٣/ ١٢١).
(٢) الأعراف: الآية (٥٣).
(٣) ص: الآية (٨).
(٤) أضواء البيان (٢/ ١٥٦).
(٥) جامع البيان (١١/ ١١٨).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يامحمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به، ومنهم من لا يؤمن به بل يموت على ذلك ويبعث عليه ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور بل يعطي كلا ما يستحقه، -تبارك وتعالى- وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو»[١].

* * *

(١) تفسير القرآن (٤/ ٢٧٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وإن كذّبك يا محمد هؤلاء المشركون، وردّوا عليك ما جئتهم به من عند ربك، فقل لهم: أيها القوم لي ديني وعملي ولكم دينكم وعملكم، لا يضرّني عملكم ولا يضرّكم عملي، وإنما يجازى كلّ عامل بعمله. ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾ لا تؤاخذون بجريرته، ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا أؤاخذ بجريرة عملكم»[١].

قال الشنقيطي: «أمر اللَّه تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يظهر البراءة من أعمال الكفار القبيحة إنكارًا لها، وإظهارًا لوجوب التباعد عنها، وبين هذا المعنى في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾[٢]، ونظير ذلك قول إبراهيم الخليل وأتباعه لقومه: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٣].

وبين تعالى في موضع آخر أن اعتزال الكفار، والأوثان والبراءة منهم؛ من فوائده تفضل اللَّه تعالى بالذرية الطيبة الصالحة، وهو قوله في «مريم»: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[٤].

وقال ابن زيد، وغيره، إن آية: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي﴾؛ منسوخة بآيات السيف. والظاهر أن معناها محكم. لأن البراءة إلى اللَّه من عمل السوء لا شك في بقاء مشروعيتها»[٥].

---

(١) جامع البيان (١١/ ١١٩).
(٢) سورة (الكافرون).
(٣) الممتحنة: الآية (٤).
(٤) مريم: الآيتان (٤٩و٥٠).
(٥) أضواء البيان (٢/ ١٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

★ غريب الآية:

الصمّ: جمع أصمّ وهو الذي لا يسمع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يسمعون كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة، النافعة في القلوب والأبدان والأديان، وفي هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم -وهو الأطرش- فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء اللَّه، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك اللَّه من التؤدة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1] الآية»[2].

قال أبو حيان: «والمقصود من الآيتين إعلامه ﷺ بأن هؤلاء الكفار قد انتهوا في النفرة والعداوة والبغض الشديد في رتبة من لا ينفع فيه علاج ألبتة؛ لأن من كان

---

(١) الفرقان: الآيتان (٤١و٤٢).

(٢) تفسير القرآن (٤/ ٢٧٠-٢٧١).

أصمّ أحمق، وأعمى فاقد البصيرة، لا يمكّن ذلك أن يقف على محاسن الكلام، وما انطوى عليه من الإعجاز، ولا يمكّن هذا أن يرى ما أجرى اللَّه على يد رسوله من الخوارق، فقد أيس من هداية هؤلاء»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «والمراد من الآيتين أن هداية الدين كهداية الحس، لا تكون إلا للمستعد لها بهداية العقل، وأن هداية العقل لا تحصل إلا بتوجه النفس وصحة القصد، وهذا الصنف من الكفار قد انصرفت أنفسهم عن استعمال عقولهم في الدلائل البصرية والسمعية لإدراك مطلب من المطالب مما وراء شهواتهم وتقاليدهم، وليس المراد أنهم فقدوا نعمة العقل الغريزي ولا نعمة الحواس؛ بل استعمالها النافع؛ كما قال في سورة (الأعراف): ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٢]»[٣].

وقال القرطبي: «والمراد تسلية النبي ﷺ، أي: كما لا تقدر أن تُسمع من سُلب السمع، ولا تقدر أن تخلق للأعمى بصرًا يهتدي به، فكذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء للإيمان وقد حكم اللَّه عليهم ألا يؤمنوا»[٤].

* * *

---

(١) البحر المحيط (٥/ ١٦٢).

(٢) الأعراف: الآية (١٧٩).

(٣) تفسير المنار (١١/ ٣٨٣-٣٨٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٢١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما ذكر تعالى هؤلاء الأشقياء، ذكر تعالى أنه لا يظلمهم شيئًا؛ إذ قد أزاح عللهم ببعثة الرسل، وتحذيرهم من عقابه، ولكن هم ظالمو أنفسهم بالكفر والتكذيب. واحتمل هذا النفي للظلم أن يكون في الدنيا، أي: لا يظلمهم شيئًا من مصالحهم، واحتمل أن يكون في الآخرة، وأن ما يلحقهم من العقاب هو عدل منه؛ لأنهم هم الذين تسببوا فيه باكتساب ذنوبهم كما قدّر تعالى عليهم، لا يُسأل عما يفعل»[1].

وقال الشوكاني: «ذكر هذا عقب ما تقدّم من عدم الاهتداء بالأسماع والأبصار؛ لبيان أن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه اللَّه لهم من السمع والعقل، والبصر والبصيرة؛ بل لأجل ما صار في طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق، والمجادلة بالباطل، والإصرار على الكفر، فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك، ولم يظلمهم اللَّه شيئًا من الأشياء؛ بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكمل إدراك، وركب فيهم من الحواس ما يصلون به إلى ما يريدون، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم، وخلى بينهم وبين مصالحهم الدينية، فعلى نفسها براقش تجني»[2].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن اللَّه لا يفعل بخلقه ما لا يستحقون منه، لا يعاقبهم إلا بمعصيتهم إياه، ولا يعذّبهم إلا بكفرهم به، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يقول: ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم باجترامهم ما يورثها

---

(١) البحر المحيط (٥/ ١٦٢).
(٢) فتح القدير (٢/ ٦٢٧).

غضب اللّه وسخطه. وإنما هذا إعلام من اللّه -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ والمؤمنين به، أنه لم يسلب هؤلاء الذين أخبر -جل ثناؤه- عنهم أنهم لا يؤمنون الإيمان ابتداء منه بغير جرم سَلَف منهم، وإخبار أنه إنما سلبهم ذلك باستحقاق منهم سَلْبه لذنوب اكتسبوها، فحقّ عليهم قول ربهم، وطبع على قلوبهم»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تنزيه اللّه -جل وعلا- عن الظلم

* عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن اللّه -تبارك وتعالى- أنه قال: «**يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما؛ فلا تظالموا. يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم. يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته؛ فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته؛ فاستكسوني أكسكم. يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم؛ كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم؛ كانوا على أفجر قلب رجل واحد؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم؛ قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد اللّه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي رحمه الله: «**قوله تعالى: «إني حرمت الظلم على نفسي» قال العلماء: معناه تقدّسْتُ عنه وتعاليت، والظلم مستحيل في حق اللّه** ﷻ، **كيف يجاوز سبحانه**

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٢٠).

(٢) أخرجه: مسلم (٤/ ١٩٩٤-١٩٩٥/ ٢٥٧٧) من طريق أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر به. وأخرجه بنحوه: أحمد (٥/ ١٥٤)، والترمذي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧/ ٢٤٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢/ ٤٢٥٧) ومن طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي ذر به.

حدًّا وليس فوقه من يطيعه؟! وكيف يتصرف في غير ملك والعالم كله في ملكه وسلطانه؟! وأصل التحريم في اللغة المنع، فسمى تقدُّسه عن الظلم تحريما لمشابهته للممنوع في أصل عدم الشيء»[١].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» يعني أنه منع نفسه من الظلم لعباده، كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[٢] وقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾[٣] وقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[٤] وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[٥] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾[٦] وقال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾[٧] والهضم: أن ينقص من جزاء حسناته، والظلم: أن يعاقَب بذنوب غيره، ومثل هذا كثير في القرآن.

وهو مما يدل على أن اللَّه قادر على الظلم، ولكنه لا يفعله فضلًا منه وَجودًا، وكرمًا وإحسانًا إلى عباده.

وقد فسّر كثير من العلماء الظلم: بأنه وضع الأشياء في غير موضعها. وأما من فسّره بالتصرف في ملك الغير بغير إذنه -وقد نقل نحوه عن إياس بن معاوية وغيره- فإنهم يقولون: إن الظلم مستحيل عليه، وغيره متصوَّر في حقّه، لأن كل ما يفعله فهو تصرّف في ملكه، وبنحو ذلك أجاب أبو الأسود الدؤلي لعمران بن حصين حين سأله عن القدر... وكونه خلق أفعال العباد -وفيها الظلم-؛ لا يقتضي وصفه بالظلم ﷻ، كما أنه لا يوصف بسائر القبائح التي يفعلها العباد، وهي خلقه وتقديرُه، فإنه لا يوصف إلاّ بأفعاله، لا يوصف بأفعال عباده، فإن أفعال عباده مخلوقاته ومفعولاتُه، وهو لا يوصف بشيء منها، إنما يوصف بما قام به من صفاته وأفعاله واللَّه أعلم»[٨].

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٠٨).
(٢) ق: الآية (٢٩).
(٣) غافر: الآية (٣١).
(٤) آل عمران: الآية (١٠٨).
(٥) فصلت: الآية (٤٦).
(٦) النساء: الآية (٤٠).
(٧) طه: الآية (١١٢).
(٨) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٤-٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويوم نحشر هؤلاء المشركين فنجمعهم في موقف الحساب، كأنهم كانوا قبل ذلك لم يلبثوا إلا ساعة من نهار يتعارفون فيما بينهم، ثم انقطعت المعرفة وانقضت تلك الساعة. يقول الله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾، قد غُبن الذين جحدوا ثواب اللَّه وعقابه وحظوظهم من الخير، وهلكوا. وما كانوا مهتدين، يقول: وما كانوا موفقين لإصابة الرشد مما فعلوا من تكذيبهم بلقاء الله؛ لأنه أكسبهم ذلك ما لا قِبَل لهم به من عذاب الله»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مذكرًا للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة، كأنهم يوم يوافونها لم يلبثوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾[2] وكما قال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾[3] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[5]، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كما قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٢٠).
(٢) الأحقاف: الآية (٣٥).
(٣) النازعات: الآية (٤٦).
(٤) طه: الآيات (١٠٢-١٠٤).
(٥) الروم: الآيتان (٥٥و٥٦).

أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

وقال الشنقيطي في وجه الجمع بين هذه الآيات المقتضية أن الدنيا عندهم كساعة وبين الآيات المقتضية أنها عندهم كأكثر من ذلك كقوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ وقوله: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قال: «والجواب عن هذا بما دل عليه القرآن؛ وذلك أن بعضهم يقول: لبثنا يومًا أو بعض يوم، وبعضهم يقول: لبثنا ساعة، وبعضهم يقول: لبثنا عشرا. ووجه دلالة القرآن على هذا أنه بيَّن أن أقواهم إدراكًا وأرجحهم عقلًا وأمثلهم طريقة هو من يقول: أن مدة لبثهم يومًا وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ فدل ذلك على اختلاف أقوالهم في مدة لبثهم والعلم عند الله»[(٣)].

وقال ابن كثير: «قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يعرف الأبناء الآباء، والقرابات بعضهم بعضا، كما كانوا في الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[(٤)] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾[(٥)]»[(٦)].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾

قال الشنقيطي: «صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بخسران المكذبين بلقائه، وأنهم لم يكونوا مهتدين، ولم يبين هنا المفعول به لقوله: ﴿خَسِرَ﴾، وذكر في مواضع كثيرة أسبابًا من أسباب الخسران، وبين في مواضع أخر المفعول المحذوف هنا، فمن الآيات المماثلة لهذه الآية، قوله تعالى في (الأنعام): ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾[(٧)]، وقوله تعالى في (البقرة): ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن

---

(١) المؤمنون: الآيات (١١٢-١١٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧١).

(٣) دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب (ص: ١٨٨).

(٤) المؤمنون: الآية (١٠١).

(٥) المعارج: الآيات (١٠-١٤).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧١).

(٧) الآية (٣١).

يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[١]، وقوله في (البقرة) أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٢]، وقوله في (الأعراف): ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٣]، وقوله في (الأعراف) أيضًا: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٤]، وقوله في (الزمر): ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٥].

والآيات في مثل هذا كثيرة، وقد أقسم تعالى على أن هذا الخسران لا ينجو منه إنسان إلا بأربعة أمور:

الأول: الإيمان.

الثاني: العمل الصالح.

الثالث: التواصي بالحق.

الرابع: التواصي بالصبر.

وذلك في قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ إلى آخر السورة[٦] الكريمة.
وبين في مواضع أخر، أن المفعول المحذوف الواقع عليه الخسران هو أنفسهم، كقوله في (الأعراف): ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[٧]، وقوله في (المؤمنون): ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[٨] وقوله في «هود»: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[٩].

وزاد في مواضع أخر خسران الأهل مع النفس، كقوله في (الزمر): ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[١٠]، وقوله في

---

(١) الآية (٢٧).
(٢) الآية (١٢١).
(٣) الآية (٩٩).
(٤) الآية (١٧٨).
(٥) الآية (٦٣).
(٦) سورة العصر.
(٧) الأعراف: الآية (٩).
(٨) المؤمنون: الآية (١٠٣).
(٩) هود: الآية (٢١).
(١٠) الزمر: الآية (١٥).

(الشورى): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾[1].

وبين في موضع آخر أن خسران الخاسرين قد يشمل الدنيا والآخرة، وهو قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[2]»[3].

* * *

(١) الشورى: الآية (٤٥).
(٢) الحج: الآية (١١).
(٣) أضواء البيان (٢/ ١٥٨-١٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإما نرينك يا محمد في حياتك بعض الذي نعد هؤلاء المشركين من قومك من العذاب، أو نتوفينك قبل أن نريك ذلك فيهم. فإلينا مرجعهم يقول: فمصيرهم بكلّ حال إلينا ومنقلبهم. ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ يقول -جل ثناؤه- ثم أنا شاهد على أفعالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا، وأنا عالم بها لا يخفى عليّ شيء منها، وأنا مجازيهم بها عند مصيرهم إليّ ومرجعِهم جزاءهم الذي يستحقونه»[1].

قال ابن عطية: «ومعنى هذه الآية الوعيد بالرجوع إلى اللَّه تعالى، أي: إن أريناك عقوبتهم أو لم نركها فهم على كل حال راجعون إلينا إلى الحساب والعذاب، ﴿ثُمَّ﴾ مع ذلك فاللَّه ﴿شَهِيدٌ﴾ من أول تكليفهم على جميع أعمالهم»[2].

وقال ابن عاشور: «والمراد بـ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ هو عذاب الدنيا؛ فإنهم أوعدوا بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾[3]. فالمعنى: إن وقع عذاب الدنيا بهم فرأيتَه أنت أو لم يقع فتوفاك اللَّه فمصيرهم إلينا على كل حال»[4].

قال الشنقيطي: «بين اللَّه تعالى في هذه الآية الكريمة لنبيه ﷺ أنه إما أن يريه في حياته بعض ما يعِد الكفار من النكال والانتقام، أو يتوفاه قبل ذلك، فمرجعهم إليه -

(١) جامع البيان (١١/ ١٢٠).
(٢) المحرر الوجيز (٣/ ١٢٣).
(٣) الطور: الآية (٤٧).
(٤) التحرير والتنوير (١١/ ١٨٤).

جل وعلا-، لا يفوته شيء مما يريد أن يفعله بهم، لكمال قدرته عليهم، ونفوذ مشيئته -جل وعلا- فيهم، وبيّن هذا المعنى أيضا في مواضع أخر؛ كقوله في سورة (المؤمن): ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[1] وقوله في (الزخرف): ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات»[3].

وقال الرازي: «واعلم أن هذا يدل على أنه تعالى يُري رسوله أنواعًا من ذل الكافرين وخزيهم في الدنيا، وسيزيد عليه بعد وفاته، ولا شك أنه حصل الكثير منه في زمان حياة رسول اللَّه ﷺ، وحصل الكثير أيضًا بعد وفاته، والذي سيحصل يوم القيامة أكثر، وهو تنبيه على أن عاقبة المحقين محمودة، وعاقبة المذنبين مذمومة»[4].

* * *

(١) غافر: الآية (٧٧).
(٢) الآيتان (٤١و٤٢).
(٣) أضواء البيان (٢/ ١٥٩).
(٤) مفاتح الغيب (١٧/ ١١٠).

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٤٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولكلّ أمة خلت قبلكم أيها الناس رسول أرسلته إليهم، كما أرسلت محمدًا إليكم، يدعون من أرسلتهم إليهم إلى دين اللَّه وطاعته. ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ يعني في الآخرة... ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ يقول: قضي حينئذ بينهم بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ من جزاء أعمالهم شيئًا، ولكن يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء من أهل الإيمان إما أن يعاقبه اللَّه وإما أن يعفو عنه، والكافر يخلد في النار فذلك قضاء اللَّه بينهم بالعدل، وذلك لا شك عدل لا ظلم»[1].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ صرح تعالى في هذه الآية الكريمة: أن لكل أمة رسولا، وبين هذا في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾[2] الآية. وقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[3] وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات»[5].

قال أبو حيان: «ودلت الآية على أنه تعالى ما أهمل أمة؛ بل بعث إليها رسولًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾، إما أن يكون إخبارًا عن حالة ماضية، فيكون ذلك في الدنيا، ويكون المعنى: أنه بعث إلى كل أمة رسولًا يدعوهم إلى دين اللَّه، وينبئهم على توحيده، فلما جاءهم بالبينات كذبوه، فقضي بينهم، أي: بين الرسول

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٢١).
(٢) النحل: الآية (٣٦).
(٣) فاطر: الآية (٢٤).
(٤) الرعد: الآية (٧).
(٥) أضواء البيان (٢/ ١٦٠).

وأمته، فأنجي الرسول، وعذب المكذبون. وإما أن يكون على حالة مستقبلة، أي: فإذا جاءهم رسولهم يوم القيامة للشهادة عليهم قضي بينهم، أي: بين الأمة بالعدل، فصار قوم إلى الجنة، وقوم إلى النار، فهذا هو القضاء بينهم، قاله مجاهد وغيره، ويكون كقوله تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾[1]»[2].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[3]، فكل أمة تعرض على اللَّه بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضا، أمة بعد أمة، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم ويقضى لهم... فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات اللَّه وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة هذه الأمة -زادها اللَّه شرفا ورفعة- وأنها أول أمة يقضى بينهم يوم القيامة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: **«نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيْد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا اللَّه له، فالناس لنا فيه تبع: اليهود غدًا، والنصارى بعد غد»**[5].

⭑ غريب الحديث:

بَيْد: «بموحدة ثم تحتانية ساكنة مثل: (غَيْر) وزنًا ومعنىً. يقال: هو كثير المال بيد أنه بخيل.

---

(١) الزمر: الآية (٦٩).

(٢) البحر المحيط (٥/ ١٦٤).

(٣) الزمر: الآية (٦٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٢-٢٧٣).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٣)، والبخاري (٢/ ٤٥٠/ ٨٧٦)، ومسلم (٢/ ٥٨٥/ ٨٥٥)، والنسائي (٣/ ٩٥-٩٦/ ١٣٦٦).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ في «الفتح»: «والمراد أن هذه الأمة وإن تأخر وجودها في الدنيا عن الأمم الماضية فهي سابقة لهم في الآخرة بأنهم أول من يُحشر، وأول من يحاسب، وأول من يقضى بينهم، وأول من يدخل الجنة، وفي حديث حذيفة عند مسلم: «**نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق**»[١].

وقيل: المراد بالسبق هنا إحراز فضيلة اليوم السابق بالفضل وهو يوم الجمعة، ويوم الجمعة وإن كان مسبوقًا بسبت قبله أو أحد؛ لكن لا يتصور اجتماع الأيام الثلاثة متوالية إلا ويكون يوم الجمعة سابقًا. وقيل: المراد بالسبق؛ أي: إلى القبول والطاعة التي حُرمها أهل الكتاب فقالوا: سمعنا وعصينا، والأول أقوى»[٢].

قال القرطبي: «وهذا كله شرف لهذه الأمة بشرف نبيها، وأنها خير أمة أخرجت للناس»[٣].

قال الحافظ: «وفيه بيان واضح لمزيد فضل هذه الأمة على الأمم السابقة زادها اللَّه تعالى»[٤].

* * *

(١) أخرجه: مسلم (٢/ ٥٨٦/ ٨٥٦)، والنسائي (٣/ ٩٧/ ١٣٦٧).
(٢) (٢/ ٤٥١).
(٣) المفهم (٢/ ٤٩١).
(٤) الفتح (٢/ ٤٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩﴾

★ غريب الآية:

الوعد: الوعد غَلب في الخير، والإيعاد في الشر؛ يقال: وعد بالخير، وأوعد بالشر.

أجل: الأجل المدة المضروبة؛ يقال للمدة المضروبة لعمر الإنسان: أجل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين مما لا فائدة فيه لهم، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾[1] أي: كائنة لا محالة، وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عينا، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾أي: لا أقول إلا ما علمني ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يطلعني اللَّه عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعني على وقتها»[2].

قال الشوكاني: «وفي هذه أعظم واعظ، وأبلغ زاجر، لمن صار ديدنه وهجيراه المناداة لرسول اللَّه ﷺ، والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا اللَّه سبحانه، وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ ما لا يقدر على تحصيله

(١) الشورى: الآية (١٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٣).

إلا اللَّه سبحانه، فإن هذا مقام رب العالمين، الذي خلق الأنبياء والصالحين، وجميع المخلوقين، ورزقهم وأحياهم ويميتهم، فكيف يطلب من نبي من الأنبياء، أو ملك من الملائكة، أو صالح من الصالحين؛ ما هو عاجز عنه غير قادر عليه!! ويترك الطلب لرب الأرباب، القادر على كل شيء، الخالق المعطي المانع.

وحسبك في هذه الآية موعظة، فإن هذا سيد ولد آدم، وخاتم الرسل، يأمره اللَّه بأن يقول لعباده: ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾، فكيف يملكه لغيره؟! وكيف يملكه غيره من رتبته دون رتبته، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه، فضلًا عن أن يملكه لغيره؟!

فيا عجبًا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا اللَّه ﷻ!! كيف لا يتيقظون لما وقعوا به من الشرك، ولا ينتبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا إله إلا اللَّه، ومدلول قل هو اللَّه أحد!!

وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء، ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو أشد منها، فإن أولئك يعترفون بأن اللَّه سبحانه هو الخالق الرازق، المحي المميت، الضار النافع، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند اللَّه ومقربين إليه، وهؤلاء يجعلون لهم القدرة على الضر والنفع وينادونهم تارة على الاستقلال، وتارة مع ذي الجلال، وكفاك من شر سماعه، واللَّه ناصر دينه، ومطهر شريعته من أوضار الشرك، وأدناس الكفر.

ولقد توسل الشيطان -أخزاه الله- بهذه الذريعة إلى ما تقر به عينه، وينثلج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[1].

قلت: رحم اللَّه الإمام الشوكاني في تنزيله الآية على واقع العالم الإسلامي

(١) فتح القدير (٢/ ٦٢٩).

الذي انقلب إلى أضرحة ومزارات وحسينيات كلها معبودة من دون اللَّه، حيث صار يطلب فيها و منها ما لا يطلب إلا من اللَّه، وذكر أن العلماء سكتوا على هذا الواقع الجاهلي، بل هو أشر من واقع أهل الجاهلية الذين هم أحسن حالًا من هؤلاء في معرفة توحيد الربوبية، بخلاف أهل هذا الزمان الذين طلبوا من الأموات الرزق والولد والصحة والعافية وشفاء الأمراض، وعلماؤهم لا يسكتون فقط بل يسبقون إلى ذلك، فإذا كان موسم لوثن فأول من يذبح النحيرة هو عالم البلد، وبحضرة أصحابه ممن انتسبوا للعلم وهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنه هذا هو الشرك الأكبر ولكنهم يكذبون على الناس، اللهم اكفناهم بما شئت وكيف شئت.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾:

قال الشنقيطي: «صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن لكل أمة أجلا، وأنه لا يسبق أحد أجله المحدد له، ولا يتأخر عنه. وبين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾[1] وقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2] وقوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات»[4].

* * *

(١) الحجر: الآية (٥)، المؤمنون: الآية (٤٣).

(٢) نوح: الآية (٤).

(٣) المنافقون: الآية (١١).

(٤) أضواء البيان (٢/ ١٦٠).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا﴾، يقول: ليلًا أو نهارا، وجاءت الساعة، وقامت القيامة؛ أتقدرون على دفع ذلك عن أنفسكم؟ يقول اللَّه -تعالى ذكره-: ماذا يستعجل من نزول العذاب المجرمون الذين كفروا باللَّه، وهم الصّالون بحرّه دون غيرهم، ثم لا يقدرون على دفعه عن أنفسهم»[1].

قال القاسمي: «سر إيثار ﴿بَيَٰتًا﴾ على (ليلًا) مع ظهور التقابل فيه؛ الإشعار بالنوم والغفلة وكونه الوقت الذي يبيت فيه العدو، ويتوقع فيه، ويغتنم فرصة غفلته، وليس في مفهوم الليل هذا المعنى، ولم يشتهر شهرة النهار بالاشتغال بالمصالح والمعاش، حتى يحسن الاكتفاء بدلالة الالتزام كما في النهار، أو النهار كله محل الغفلة، لأنه إما زمان اشتغال بمعاش أو غذاء أو زمان قيلولة، كما في قوله: ﴿بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾[2] بخلاف الليل؛ فإن محل الغفلة فيه ما قارب وسطه، وهو وقت البيات، فلذا خص بالذكر دون النهار. والبيات بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم، لا بمعنى البيتوتة»[3].

قال أبو حيان: «والمعنى: إن أتاكم عذابه وأنتم ساهون غافلون إما بنوم، وإما باشتغال بالمعاش والكسب، وهو نظير قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ لأن العذاب إذا فجأ من غير شعور به كان أشد وأصعب، بخلاف أن يكون قد استعدّ له وتهُيئ لحلوله، وهذا

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٢٢).

(٢) الأعراف: الآية (٤).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٤١).

كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾[1] ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[2]»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾

* عن الصعب بن جثامة رضي الله عنه قال: مر بي النبي ﷺ بالأبواء -أو بودّان- فسئل عن أهل الدار يُبيَّتون من المشركين فيصاب من نسائهم وذراريهم، قال: «هم منهم». وسمعته يقول: «لا حمى إلا لله ولرسوله ﷺ»[4].

★ **فوائد الحديث:**

معنى البيات الوارد في الحديث: أن يغار على الكفار بالليل بحيث لا يميز بين أفرادهم.

ووجه المطابقة بين الحديث والآية؛ هو لفظة البيات وإيضاح معناها، وأن المقصود بها الليل. قال البخاري رحمه الله: بياتًا: ليلًا. وهذه -يقول ابن حجر في الفتح[5]- عادة المصنف إذا وقع في الخبر لفظة توافق ما وقع في القرآن أورد تفسير اللفظ الواقع في القرآن؛ جمعًا بين المصلحتين، وتبرّكًا بالأمرين. والله أعلم.

* * *

(١) الأعراف: الآية (٩٧).

(٢) الأعراف: الآية (٩٨).

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٦٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٧-٣٨)، والبخاري (٦/ ١٨٠/ ٣٠١٢و٣٠١٣)، ومسلم (٣/ ١٣٦٤/ ١٧٤٥)، وأبو داود (٣/ ١٢٣-١٢٤/ ٢٦٧٢)، والترمذي (٤/ ١١٦/ ١٥٧٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٨٦/ ٨٦٢٣-٨٦٢٤)، وابن ماجه (٢/ ٩٤٧/ ٢٨٣٩).

(٥) (٦/ ١٨١).

قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أهنالك إذا وقع عذاب اللَّه بكم أيها المشركون ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، يقول: صدّقتم به في حال لا ينفعكم فيها التصديق، وقيل لكم حينئذ: آلآن تصدّقون به، وقد كنتم قبل الآن به تستعجلون، وأنتم بنزوله مكذّبون، فذوقوا الآن ما كنتم به تكذّبون»[1].

قال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار يطلبون في الدنيا تعجيل العذاب كفرًا وعنادًا، فإذا عاينوا العذاب آمنوا، وذلك الإيمان عند معاينة العذاب وحضوره لا يقبل منهم، وقد أنكر ذلك تعالى عليهم هنا بقوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ ونفى أيضا قبول إيمانهم في ذلك الحين بقوله: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وأوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[2] وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[3] وقوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات، واستثنى اللَّه تعالى قوم يونس دون غيرهم بقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[5]»[6].

* * *

(١) جامع البيان (١١/ ١٢٢).
(٢) غافر: الآيتان (٨٤و٨٥).
(٣) يونس: الآيتان (٩٠و٩١).
(٤) النساء: الآية (١٨).
(٥) يونس: الآية (٩٨).
(٦) أضواء البيان (٢/ ١٦٠-١٦١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بكفرهم بالله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ تجرّعوا عَذَابَ اللهِ الدّائم لكم أبدًا، الذي لا فناء له ولا زوال. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ يقول: يقال لهم: فانظروا هل تجزون أي: هل تثابون إلاّ بما كنتم تكسبون؟ يقول: إلا بما كنتم تعملون في حياتكم قبل مماتكم من معاصي الله»[١].

قال ابن كثير: «﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيتا وتقريعا كقوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢]»[٣].

قال أبو حيان: «﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الظلم ظلم الكفر لا ظلم المعصية؛ لأن من دخل النار من عصاة المؤمنين لا يخلد فيها»[٤].

* * *

(١) جامع البيان (١١/ ١٢٢).
(٢) الطور: الآيات (١٣-١٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٣).
(٤) البحر المحيط (٥/ ١٦٦).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣)﴾

★ **غريب الآية:**

ويستنبئونك: أي: يستخبرونك، والاستنباء طلب النبأ وهو الخبر.

إي: إِي بالكسر كلمة تتقدم القسم معناها: بلى، تقول إِي وربي، وإِي واللَّه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويستخبرك هؤلاء المشركون من قومك يا محمد فيقولون لك: أحقٌّ ما تقول وما تعدنا به من عذاب اللَّه في الدار الآخرة، جزاء على ما كنا نكسب من معاصي اللَّه في الدنيا؟ قل لهم يا محمد: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لا شك فيه، وما أنتم بمعجزي اللَّه إذا أراد ذلك بكم بهرب أو امتناع، بل أنتم في قبضته وسلطانه وملكه، إذ أراد فعل ذلك بكم، فاتقوا اللَّه في أنفسكم»[(١)].

قال القاسمي: «دل سؤالهم هذا على محض جهلهم أو عنادهم لما ثبت من البرهان القاطع على نبوته بمعجز القرآن، وإذا صحت النبوة لزم القطع بصحة كل ما ينبئهم عنه مما يصدعهم به.

وإنما أُمِر بالقسم لاستمالتهم وللجري على ما هو المألوف في المحاورة من تحقيق المدعى، فإن من أقسم على خبر فقد كساه حلة الجدّ، وخلع عنه لباس الهزل، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾[(٢)].

ولما كان الناس طبقات؛ كان منهم من لا يسلّم إلا ببرهان حقيقي، ومنهم من لا ينتفع به ولا يسلّم إلا بالأمور الإقناعية نحو القسم؛ كالأعرابي الذي قدم على

(١) جامع البيان (١١/ ١٢٢).

(٢) الطارق: الآيتان (١٣و١٤).

النبي ﷺ وسأله عن رسالته وبعثه، وأنشده بالذي بعثه، ثم اقتنع بقوله صلوات اللَّه عليه: «اللهم نعم» فقال: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة[1]»[2].

قال ابن كثير: «وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان يأمر اللَّه تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة (سبأ): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[3]، وفي (التغابن): ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[4]»[5].

قال القاسمي[6]: وقد استمد ابن كثير هذا مما ذكره شيخه الإمام ابن القيم رحمه اللَّه في 'الزاد' حيث قال: «وحلف في أكثر من ثمانين موضعًا، وأمره اللَّه سبحانه بالحلف في ثلاثة مواضع، فقال تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾. وكان إسماعيل بن إسحق القاضي يذاكر أبا بكر محمد بن داود الظاهري ولا يسميه بالفقيه، فتحاكم إليه يومًا هو وخصم له، فتوجّهَت اليمين على أبي بكر بن داود فتهيأ للحلف فقال له القاضي إسماعيل: أو تحلف؟ ومثلك يحلف يا أبا بكر؟! فقال: وما يمنعني من الحلف وقد أمر اللَّه تعالى نبيه بالحلف في ثلاثة مواضع من كتابه. قال: أين ذلك؟ فسردها له أبو بكر، فاستحسن ذلك منه جدًّا، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم»[7].

* * *

(١) تقدم تخريجه في هذه السورة: الآية (١٧).
(٢) محاسن التأويل (٩/ ٤٣-٤٤) بتصرف.
(٣) سبأ: الآية (٣).
(٤) التغابن: الآية (٧).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٤).
(٦) محاسن التأويل (٩/ ٤٤).
(٧) زاد المعاد (١/ ١٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾

★ غريب الآية:

افتدت: الافتداء بدل العوض في مقابلة نفس الإنسان من مال أو أسير آخر، يقال: فداه وفاداه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولو أن لكلّ نفس كفرت بالله. وظلمُها في هذا الموضع: عبادتها غير من تُستحقّ عبادته، وتركها طاعة من يجب عليها طاعته. ما فِي الأرض من قليل أو كثير، لافتدت به يقول: لافتدت بذلك كله من عذاب الله إذا عاينته. وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ يقول: وأخفت رؤساء هؤلاء المشركين من وضعائهم وسفلتهم الندامة حين أبصروا عذاب الله قد أحاط بهم، وأيقنوا أنه واقع بهم. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ يقول: وقضىَ الله يؤمئذ بين الأتباع والرؤساء منهم بالعدل. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وذلك أنه لا يعاقب أحدا منهم إلا بجريرته، ولا يأخذه بذنب أحد، ولا يعذّب إلا من قد أعذر إليه في الدنيا وأنذر، وتابع عليه الحجج»[1].

وقال الرازي: «واعلم أن قوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ جاء على لفظ الماضي، والقيامة من الأمور المستقبلة، إلا أنها لما كانت واجبة الوقوع؛ جعل الله مستقبلها كالماضي»[2].

وقال أبو حيان: «﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ من الأضداد تأتي بمعنى: أظهر.. وتأتي بمعنى: أخفى وهو المشهور فيها، كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾»[3].

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٢٣).
(٢) مفاتح الغيب (١٧/ ١١٧).
(٣) هود: الآية (٥).

ويحتمل هنا الوجهين: أما الإظهار؛ فإنه ليس بيوم نظير ولا تجلد، ولا يقدر فيه الكافر على كتمان ما ناله، ولأن حالة رؤية العذاب يتحسر الإنسان على اقتراف ما أوجبه، ويظهر الندامة على ما فاته من الفوز ومن الخلاص من العذاب، وقد ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾[1].

وأما إخفاء الندامة فقيل: أخفى رؤساؤهم الندامة من سفلتهم حياء منهم، وخوفا من توبيخهم. وهذا فيه بعد؛ لأن من عاين العذاب هو مشغول بما يقاسيه منه فكيف له فكر في الحياة، وفي التوبيخ الوارد من السفلة. وأيضا ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ عائد على كل نفس ظلمت على المعنى، وهو عام في الرؤساء والسفلة. وقيل: إخفاء الندامة هو من كونهم بُهتوا لرؤيتهم ما لم يحسبوه، ولا خطر ببالهم، ومعاينتهم ما أوهى قواهم، فلم يطيقوا عند ذلك بكاءً ولا صراخًا، ولا ما يفعله الجازع، سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب، كما يعرِض لمن يقدَّم للصلب، لا يكاد ينبس[2] بكلمة، ويبقى مبهوتًا جامدًا.

وأما من قال: إن معنى قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أخلصوا لله في تلك الندامة، أو بدت بالندامة أسِرّة وجوههم؛ أي: تكاسير جباههم؛ ففيه بعد عن سياق الآية»[3].

* * *

(١) المؤمنون: الآية (١٠٦).

(٢) من نبس ينبِس نبسًا وهو أقل الكلام، وما نبس أي: ما تحركت شفتاه بشيء، وما نبس بكلمة أي: ما تكلم. (اللسان) باختصار.

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٦٨).

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأن وعده حق كائن لا محالة وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك، العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار، ﷻ تقدست أسماؤه، وجل ثناؤه»[1].

وفي الآية «الإعلام بأن له الملك كله، وأنه المثيب المعاقب، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق، وهو القادر على الإحياء والإماتة لا يقدر عليهما غيره، وإلى حسابه وجزائه المرجع، ليعلم أن الأمر كذلك، فيخاف ويرجى، ولا يغتر به المغترون»[2].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٤).
(٢) الكشاف (٢/ ٢٤١).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لخلقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني ذكرى تذكركم عقاب اللَّه وتخوّفكم وعيده من ربكم. يقول: من عند ربكم لم يختلقها محمد ﷺ ولم يفتعلها أحد، فتقولوا: لا نأمن أن تكون لا صحة لها. وإنما يعني بذلك -جل ثناؤه- القرآن، وهو الموعظة من اللَّه.

وقوله: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ يقول: ودواء لما في الصدور من الجهل، يشفي به اللَّه جهل الجهال، فيبرىء به داءهم، ويهدي به من خلقه من أراد هدايته به. ﴿وَهُدًى﴾ يقول: وهو بيان لحلال اللَّه وحرامه، ودليل على طاعته ومعصيته. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ يرحم بها من شاء من خلقه، فينقذه به من الضلالة إلى الهدى، وينجيه به من الهلاك والردى. وجعله -تبارك وتعالى- رحمة للمؤمنين به دون الكافرين به؛ لأن من كفر به فهو عليه عمى، وفي الآخرة جزاؤه على الكفر به الخلود في لظى»[1].

قال الخازن: «يعني أن القرآن ذو شفاء لما في القلوب من داء الجهل؛ وذلك لأن داء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن. وأمراض القلب هي الأخلاق الذميمة، والعقائد الفاسدة، والجهالات المهلكة؛ فالقرآن مزيل لهذه الأمراض كلها؛ لأن فيه الوعظ والزجر، والتخويف، والترغيب والترهيب، والتحذير، والتذكير؛ فهو الدواء والشفاء لهذه الأمراض القلبية. وإنما خص الصدر بالذكر لأنه موضع القلب وغلافه، وهو أعز موضع في بدن الإنسان لمكان القلب فيه»[2].

قال ابن كثير: «﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي: محصل لها الهداية والرحمة من اللَّه

(١) جامع البيان (١١/ ١٢٤).
(٢) لباب التأويل (٢/ ٣٠٢).

تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[١] وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[٢]»[٣].

قال المراغي: «إن الآية الكريمة أجملت إصلاح القرآن الكريم لأنفس البشر في أربعة أمور:

١- الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب بذكر ما يرِقّ له القلب، فيبعثه على الفعل أو الترك.

وقد جاء في معنى الآية قوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾[٤]، وقوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٥].

٢- الشفاء لما في القلوب من أدواء الشرك والنفاق وسائر الأمراض التي يشعر من أحبها بضيق الصدر كالشك في الإيمان والبغي والعدوان وحب الظلم وبغض الحق والخير.

٣- الهدى إلى طريق الحق واليقين والبعد من الضلال في الاعتقاد والعمل.

٤- الرحمة للمؤمنين، وهي ما تثمر لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم، ومن آثارها بذل المعروف وإغاثة الملهوف وكف الظلم ومنع التعدي والبغي.

وإجمال ذلك: إن موعظة القرآن وشفاءه لما في الصدور من أمراض الكفر والنفاق وجميع الرذائل، وهداه إلى الحق والفضائل؛ موجهات إلى أمة الدعوة، وهم جميع الناس، والمؤمنون قد اختُصّوا بما تثمره هذه الصفات الثلاث من الرحمة؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بها»[٦].

---

(١) الإسراء: الآية (٨٢).
(٢) فصلت: الآية (٤٤).
(٣) تفسير القرآن (٤/ ٢٧٤-٢٧٥).
(٤) البقرة: الآية (٢٣١).
(٥) آل عمران: الآية (١٣٨).
(٦) تفسير المراغي (١١/ ١٢٢-١٢٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن القرآن شفاء لما في الصدور

* عن أبي الأحوص أن رجلًا أتى عبدالله فقال: إن أخي مريض اشتكى بطنه، وأنه نُعت له الخمر أفأسقيه؟ قال عبدالله: سبحان الله؛ ما جعل الله شفاء في رجس، إنما الشفاء في شيئين: العسل شفاء للناس، والقرآن شفاء لما في الصدور[١].

★ غريب الحديث:

رِجْس: قذر. والرّجس اسم لكل ما يستقذر.

★ فوائد الحديث:

قوله: «والقرآن شفاء لما في الصدور»

قال ابن القيم رحمه الله: «فهو شفاء من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاءً قط أعمَّ ولا أنفع ولا أعظم ولا أسرع في إزالة الداء من القرآن»[٢].

وقال أيضًا: «فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغي؛ فإن الجهل مرضٌ شفاؤه العلم والهدى، والغيَّ مرضٌ شفاؤه الرشد، وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين فقال: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾[٣] ووصف رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم خلفاءه بضدهما فقال: **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»**[٤] وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة، وشفاء تامًّا لما في الصدور، فمن استشفى به صحّ وبرئ من مرضه، ومن لم يستشف به فهو كما قيل:

---

(١) أخرجه: الطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٧/ ٨٩١٠)، وابن أبي شيبة (٥/ ٣٨/ ٢٣٤٩٢) بنحوه، وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٩٨): «سنده صحيح على شرط الشيخين».

(٢) الداء والدواء (ص: ٧).

(٣) النجم: الآيتان (١و٢).

(٤) أخرجه: أبو داود (٥/ ١٣-١٤/ ٤٦٠٧)، والترمذي (٥/ ٤٣-٤٤/ ٢٦٧٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ١٥-١٦/ ٤٢).

إذا بَلَّ مِن داء به ظن أنه نجَا وبِه الداءُ الذي هو قاتله»[١].

«ولا ريب أن كون القرآن شفاء، والصلاة شفاء، وذكر اللَّه والإقبال عليه شفاء، أمرٌ لا يعمُّ الطبائعَ والأنفسَ، فهذا كتاب اللَّه هو الشفاء النافع، وهو أعظم الشفاء، وما أقل المستشفين به بل لا يزيد الطبائعَ الرديئةَ إلاّ رداءة، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا، وكذلك ذكرُ اللَّه والإقبال عليه والإنابة إليه والفزع إلى الصلاة كم قد شُفيَ به من عليلٍ، وكم قد عُوفي به من مريضٍ، وكم قام مقام كثير من الأدوية التي لا تبلغ قريبا من مبلغه في الشفاء، وأنت ترى كثيرًا من الناس -بل أكثرهم- لا نصيب لهم من الشفاء بذلك أصلًا، ولقد رأيت في بعض كتب الأطباء المسلمين في ذكر (الأدوية المفردة) ذكر الصلاة، ذَكَرها في باب الصاد، وذكر من منافعها في البدن التي توجب الشفاء وُجوهًا عديدة، ومن منافعها في الروح والقلب. .

والمقصود أن ترك كثير من الناس الاستشفاءَ. . بالقرآن من أمراض القلوب لا يخرجه عن كونه شفاء لها، وهو شفاء لما في الصدور وإن لم يستشف به أكثر المرضى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فعمّ بالموعظة والشفاء، وخصّ بالهدى والمعرفة، فهو نفسه شفاء استُشفيَ به أولم يستشف به، ولم يصف اللَّه في كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل فهما الشفاءان؛ هذا شفاء القلوب من أمراض غَيّها وضلالها وأدواء شبهاتها وشهواتها، وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتها»[٢].

* * *

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٣).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٧٠-١٧١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قُل يا محمد لهؤلاء المشركين بك وبما أُنزل إليك من عند ربك: بفضل اللَّه أيها الناس الذي تفضل به عليكم وهو الإسلام؛ فبَيّنه لكم ودعاكم إليه، وبرحمته التي رحمكم بها فأنزلها إليكم فعلّمكم مالم تكونوا تعلمون من كتابه، وبَصّركم بها معالِم دينكم وذلك القرآن؛ ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يقول: فإن الإسلام الذي دعاهم إليه والقرآن الذي أنزله عليهم خير مما يجمعون من حطام الدنيا وأموالها وكنوزها»[1].

وقال ابن القيم: «اللَّه سبحانه أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم وأخبر أنه خير مما يجمع الناس فقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾، وفُسّر فضلُ اللَّه بالإيمان، ورحمتُه بالقرآن، والإيمان والقرآن هما العلم النافع والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق، وهما أفضل علم وأفضل عمل»[2].

وقال أيضًا: «فإن اللَّه تعالى أمر عباده بالفرح بفضله ورحمته وذلك تبعٌ للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة؛ فإن مَن فرح بما يصل إليه من جوادٍ كريمٍ محسنٍ برٍّ يكون فرَحُه بمن أوصل ذلك إليه أولى وأحرى...

والفرح لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب ونيل المشتهى؛ فيتولّد من إدراكه حالةٌ تسمى الفرح والسرور، كما أن الحزن والغمّ مِن فقْدِ المحبوب، فإذا فقَده تولّد من فقْده حالةٌ تسمى الحزن والغم. وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٢٤).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٢٧).

عقيب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولا شيء أحقُّ أن يفرح العبد به من فضل اللَّه ورحمته التي تتضمن الموعظة وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة، فأخبر سبحانه أن ما آتى عباده من الموعظةِ التي هي الأمر والنهي المقرونُ بالترغيب والترهيب، وشفاءِ الصدور المتضمِّنِ لعافيتها من داء الجهل والظلمة والغيّ والسفه وهو أشد ألمًا لها من أدواء البدن، ولكنها لَمّا ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها، وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا فهناك يحضرها كل مؤلم محزن، وما آتاها من ربها الهدى الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين، وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به، والرحمة التي تجلب لها كل خير ولذّة، وتدفع عنها كل شرّ ومؤلم، فذلك خيرٌ من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها، أي: هذا هو الذي ينبغي أن يُفرح به، ومن فرح به فقد فرح بأجلّ مفروح به، لا ما يجمع أهل الدنيا منها، فإنه ليس بموضع للفرح؛ لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة، وهو طيفُ خيالٍ زار الصبّ في المنام، ثم انقضى المنام وولى الطيْف وأعقَب مَزارَه الهجران.

وقد جاء الفرح في القرآن على نوعين: مطلق ومقيد؛ فالمطلق جاء في الذم كقوله تعالى: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾[1] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾[2]. والمقيد نوعان أيضًا: مقيّد بالدنيا؛ يُنسي صاحبه فضل اللَّه ومنته؛ فهو مذموم؛ كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾[3]، والثاني: مقيد بفضل اللَّه وبرحمته؛ وهو نوعان أيضا: فضلٌ ورحمة بالسبب، وفضلٌ بالمسبب فالأول: كقوله: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾، والثاني كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[4].

فالفرح باللَّه وبرسوله وبالإيمان وبالسنة وبالعلم وبالقرآن من أعلى

(١) القصص: الآية (٧٦).
(٢) هود: الآية (١٠).
(٣) الأنعام: الآية (٤٤).
(٤) آل عمران: الآية (١٧٠).

المقامات.. قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[1] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[2].

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمه عند صاحبه ومحبته له وإيثاره له على غيره، فإنّ فرح العبد بالشيء عند حصوله له على قَدْر محبته له ورغبته فيه، فمن ليس له رغبة في الشيء لا يُفرحه حصولُه له، ولا يحزنه فواته، فالفرح تابع للمحبة والرغبة...

والفرح صفة كمال، ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظمَ مِن فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامُه وشرابه في الأرض المهلكة؛ بعد فقده لها واليأس من حصولها.

والمقصود أن الفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته وبهجته، والفرح والسرور نعيمه، والهم والحزن عذابه، والفرح بالشيء فوق الرضى به، فإن الرضى طمأنينة وسكون وانشراح، والفرح لذّة وبهجةٌ وسرورٌ، فكل فرِحٍ راضٍ وليس كل راض فرحًا، ولهذا كان الفرح ضدّ الحزن، والرضى ضد السخط، والحزن يؤلم صاحبه، والسخط لا يؤلمه إلا إن كان مع العجز عن الانتقام»[3].

* * *

---

(١) التوبة: الآية (١٢٤).

(٢) الرعد: الآية (٣٦).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ١٥٦-١٥٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ أيها الناس ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ يقول: ما خلق اللَّه لكم من الرزق فخوّلكموه، وذلك ما تتغذّون به من الأطعمة ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ يقول: فحللتم بعض ذلك لأنفسكم، وحرّمتم بعضه عليها وذلك كتحريمهم ما كانوا يحرّمونه من حروثهم التي كانوا يجعلونها لأوثانهم، كما وصفهم اللَّه به فقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾[١]. ومن الأنعام ما كانوا يحرّمونه بالتبحير والتسييب ونحو ذلك، مما قدمناه فيما مضى من كتابنا هذا. يقول اللَّه لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ بأن تحرّموا ما حرّمتم منه ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾: أي تقولون الباطل وتكذبون؟»[٢].

قال النسفي: «والآية زاجرة عن التجوز فيما يسأل من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، وإلا فهو مفتر على الديان»[٣].

وقال الشوكاني: «وفي هذه الآية الشريفة ما يصكّ مسامع المتصدرين للإفتاء لعباد اللَّه في شريعته، بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه، مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج اللَّه، ولا يفهمونها ولا يدرون ما هي، ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلدوه في دينهم، وجعلوه شارعًا مستقلاً، ما

---

(١) الأنعام: الآية (١٣٦).
(٢) جامع البيان (١١/ ١٢٧).
(٣) مدارك التنزيل (٢/ ١٦٨).

عمل به من الكتاب والسنة فهو المعمول به عندهم، وما لم يبلغه أو بلغه ولم يفهمه حق فهمه، أو فهمه وأخطأ الصواب في اجتهاده وترجيحه، فهو في حكم المنسوخ عندهم المرفوع حكمه عن العباد، مع كون من قلدوه متعبّدًا بهذه الشريعة كما هم متعبدون بها، ومحكومًا عليه بأحكامها كما هو محكوم عليهم بها، وقد اجتهد رأيه وأدّى ما عليه، وفاز بأجرين مع الإصابة وأجر مع الخطأ؛ إنما الشأن في جعلهم لرأيه الذي أخطأ فيه شريعة مستقلة، ودليلًا معمولًا به.

وقد أخطؤوا في هذا خطأً بيّنًا، وغلطوا غلطًا فاحشًا؛ فإن الترخيص للمجتهد في اجتهاد رأيه يخصه وحده، ولا قائل من أهل الإسلام المعتد بأقوالهم أنه يجوز لغيره أن يعمل به تقليدًا له واقتداءً به، وما جاء به المقلدة في تقوّم هذا الباطل فهو من الجهل العاطل»[1].

قال ابن كثير: «وقد أنكر اللَّه تعالى على من حرم ما أحل اللَّه، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها»[2].

قال السعدي: «ويستدل بهذه الآية على أن الأصل في جميع الأطعمة الحل، إلا ما ورد الشرع بتحريمه؛ لأن اللَّه أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده»[3].

وقال القرطبي: «استدل بهذه الآية من نفى القياس، وهذا بعيد؛ فإن القياس دليل اللَّه تعالى، فيكون التحليل والتحريم من اللَّه تعالى عند وجود دلالة نصبها اللَّه تعالى على الحكم، فإن خالف في كون القياس دليلًا لله تعالى فهو خروج عن هذا الغرض، ورجوع إلى غيره»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن التشريع العملي في التحريم والتحليل حق لله تعالى، وأن من انتحل حق التشريع الخاص باللَّه تعالى فقد افترى على الله

* عن مالك بن نضلة أبي الأحوص ﷺ قال: أتيت رسول اللَّه ﷺ وأنا قَشِف

---

(١) فتح القدير (٢/ ٦٣٦-٦٣٧).

(٢) تفسير القرآن (٤/ ٢٧٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٦٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٢٧).

الهيئة، فقال: «هل لك مال؟» قال: قلت: نعم. قال: «من أيِّ المال؟» قال: قلت: من كلّ المال؛ من الإبل، والرقيق، والخيل، والغنم. قال: «إذا آتاك اللَّه مالًا فلْيُر عليك». ثم قال: «هل تنتج إبلُ قومك صحاحًا آذانها، فتَعمدَ إلى موسى فتقطع آذانها؛ فتقول: هذه بُحُر، وتشُقّها أو تشُقَّ جلودها؛ وتقول: هذه صُرُم، وتحرِّمها عليك وعلى أهلك؟» قال: نعم. قال: «فإن ما آتاك اللَّه ﷻ لك، وساعد اللَّه أشدّ، وموسى اللهِ أحدُّ» وربما قال: «ساعد اللَّه أشدّ من ساعدِك، وموسى اللَّه أحدّ من موساكَ». قال: فقلت: يا رسول الله! أرأيت رجلًا نزلتُ به، فلم يكرمني ولم يَقرِني، ثم نزل بي، أجزيه بما صنع أم أقريه؟ قال: «أقرِه»[1].

★ غريب الحديث:

قَشِف: ضبط بفتح القاف وكسر الشين المعجمة، أي تارك للتنظيف والغسل، والقشف يبس العيش.

بُحُر: بضمتين جمع بحيرة.

صُرُم: بضمتين جمع صريمة وهي التي صُرمت آذانها.

★ فوائد الحديث:

وجه مطابقة الحديث للآية أن البحائر من جملة الأشياء التي حرمها المشركون بغير دليل ولا برهان.

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٧٣-٤٧٤)، وأبو داود (٤/ ٣٣٣/ ٤٠٦٣)، والترمذي (٤/ ٣٢٠/ ٢٠٠٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٥٦٣/ ٥٢٣٨-٥٢٣٩)، وصححه الحاكم (٤/ ١٨١)، ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما ظنّ هؤلاء الذين يتخرّصون على اللَّه الكذب فيُضيفون إليه تحريم ما لم يحرّمه عليهم من الأرزاق والأقوات التي جعلها اللَّه لهم غذاء، أن اللَّه فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم وفِرْيتهم عليه، أيحسبون أنه يصفح عنهم ويغفر؟ كلا بل يصليهم سعيرا خالدين فيها أبدا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يقول: إن اللَّه لذو تفضل على خلقه بتركه معاجلة من افترى عليه الكذب بالعقوبة في الدنيا وإمهاله إياه إلى وروده عليه في القيامة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ يقول: ولكن أكثر الناس لا يشكرونه على تفضله عليهم بذلك وبغيره من سائر نعمه»[1].

قال ابن كثير: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، بل يحرمون ما أنعم اللَّه به عليهم ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضًا حلالًا وبعضًا حرامًا، وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١١/ ١٢٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

شأن: الأصل في الشأن الحال، والشأن أيضا القصد، يقال: شأنت شأنه أي قصدت.

تفيضون فيه: تدخلون فيه وتعملونه، مأخوذ من فيض الإناء إذا انصبّ وسال من جوانبه.

يعزب: أي: يبعد عن علمه ويغيب، يقال: روض عازب أي: بعيد، ويقال: عزَب يعزُب ويعزِب بالضم والكسر لغتان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع المخلائق في كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في والأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[١] فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى

(١) الأنعام: الآية (٥٩). (٢) الأنعام: الآية (٣٨).

ﵟالْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍﵞ[1] وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﵟوَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٢١٧ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَﵞ[2] ولهذا قال تعالى: ﵟوَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِﵞ أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مراقبة الله -تبارك وتعالى- لعباده في السر والعلن

* عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال النبي ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[4].

★ **فوائد الحديث:**

قوله في الحديث: «فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك» مطابق لقول الله ﷻ في الآية: ﵟإِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِﵞ وهذا يقتضي «دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق ﷻ على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة، وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله، وهو مطلع على عمله كل وقت، وكل لحظة، وكل نفس، وكل طرفة عين»[5].

قال الحافظ ابن رجب: «إن العبد إذا أُمر بمراقبة الله في العبادة، واستحضار قربه من عبده، حتى كأن العبد يراه؛ فإنه قد يشقّ ذلك عليه، فيستعين على ذلك بإيمانه بأن الله يراه، ويطّلع على سِرّه وعلانيته وباطنه وظاهره، ولا يخفى عليه شيء من أمره، فإذا حقق هذا المقام سهُل عليه الانتقال إلى المقام الثاني، وهو

---

(١) هود: الآية (٦). (٢) الشعراء: الآيات (٢١٧-٢١٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٧).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧)، ومسلم (١/ ٣٦/ ٨)، وأبو داود (٥/ ٦٩-٧٣/ ٤٦٩٥)، والترمذي (٥/ ٨-٩/ ٢٦١٠)، والنسائي (٨/ ٤٧٢-٤٧٥/ ٥٠٠٥)، وابن ماجه (١/ ٢٤-٢٥/ ٦٣).

(٥) مدارج السالكين (٢/ ٦٥).

دوام التحديق بالبصيرة إلى قرب اللَّه من عبده ومعيته، حتى كأنه يراه.

وقيل: بل هو إشارة إلى أن من شقّ عليه أن يعبد اللَّه كأنه يراه؛ فليعبد اللَّه على أن اللَّه يراه ويطلع عليه فليستحي من نظره إليه»[١].

وقال النووي: «هذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ، لأنّا لو قدّرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربّه ﷻ لم يترك شيئا بما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به فقال ﷺ: اعبد اللَّه في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان، فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع اللَّه ﷻ عليه. فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد، فينبغي أن يعمل بمقتضاه. فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه -تبارك وتعالى- في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك»[٢].

* * *

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٢٨-١٢٩).

(٢) شرح صحيح مسلم (١/ ١٤١).

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يحزنون: الحزن همّ يلحق نفس المرء؛ يقال: أحزنته وحزِنته: إذا جعلت له ما يحزَن به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ألا إن أنصار اللَّه لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله؛ لأن اللَّه رضي عنهم فآمنهم من عقابه، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا. والأولياء جمع وليّ، وهو النصير..

واختلف أهل التأويل فيمن يستحقّ هذا الاسم، فقال بعضهم: هم قوم يُذكر اللَّه لرؤيتهم لما عليهم من سيما الخير والإخبات...

وقال آخرون في ذلك بما حدثنا أبو هشام الرفاعي... (ثم ذكر حديث أبي هريرة: «إن من عباد اللَّه عبادًا يغبطهم..» الحديث وسيأتي). ثم قال:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: الوليّ، أعني وليّ اللَّه، هو من كان بالصفة التي وصفه اللَّه بها، وهو الذي آمن واتقى، كما قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾»[1].

وقال ابن عطية: «وهذه الآية يعطي ظاهرها أن من آمن واتقى فهو داخل في أولياء اللَّه، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الولي، وإنما نبهنا هذا التنبيه حذرًا من بعض الصوفية وبعض الملحدين في الولي»[2].

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٣١).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ١٢٨).

قال أبو حيان معلقًا: «وإنما قال: حذرًا من مذهب الصوفية؛ لأن بعضهم نقل عنه أن الولي أفضل من النبي، وهذا لا يكاد يخطر في قلب مسلم، ولابن عربي الطائي كلام في الولي وفي غيره نعوذ بالله منه»[١].

وقال صديق حسن خان: «وقد أكثر أهل العلم من المتكلمين والصوفية وغيرهم في تعريف الولي ووصفه، وأطالوا المقالات في ذلك بما لا حاجة إليه، وهذه الآية تغني عنها، فإنه إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل. والحاصل: أن ولي الله من كان آتيا بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل، وبالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به السنة المطهرة، لأن الإيمان مبني على العقيدة والعمل، ومقام التقوى هو أن يتقي العبد كل ما نهى الله عنه»[٢].

وقال القاسمي: «هذه الآية الكريمة أصل في بيان أولياء الله، وقد بين الله تعالى في كتابه ورسوله في سنته أن لله أولياء من الناس كما أن للشيطان أولياء»[٣].

قلت: ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كتابٌ في هذا الموضوع أسماه: 'الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان'؛ نقتبس منه نبذًا ينبغي الوقوف عليها لأهميتها.

قال رحمه الله: «وإذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؛ فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء، كما فرق الله ورسوله بينهما؛ فأولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة - أو فقد آذنته بالحرب..**».

وهذا أصح حديث يروى في الأولياء، فبين النبي ﷺ أنه من عادى وليا لله فقد بارز الله في المحاربة..

وهذا لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه، فأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما

---

(١) البحر (٥/ ١٧٣).

(٢) فتح البيان (٦/ ٩٠).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٥٠).

يبغض، ورضوا بما يرضى، وسخطوا بما يسخط، وأمروا بما يأمر، ونهوا عما نهى، وأعطوا لمن يحب أن يعطى، ومنعوا من يحب أن يمنع. .

والولاية ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد. .

وأفضل أولياء اللَّه هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم. . وأفضل أولي العزم: محمد ﷺ خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذا وفدوا، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، وصاحب لواء الحمد، وصاحب الحوض المورود، وشفيع الخلائق يوم القيامة، وصاحب الوسيلة والفضيلة، الذي بعثه اللَّه بأفضل كتبه، وشرع له أفضل شرائع دينه، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم. .

ومن حين بعثه اللَّه جعله الفارق بين أوليائه وبين أعدائه؛ فلا يكون وليا لله إلا من آمن به وبما جاء به واتبعه باطنا وظاهرا، ومن ادعى محبة اللَّه وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء اللَّه، بل من خالفه كان من أعداء اللَّه وأولياء الشيطان، وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء اللَّه، ولا يكونون من أولياء اللَّه، فاليهود والنصارى يدّعون أنهم أولياء اللَّه، وأنه لا يدخل الجنة إلا من كان منهم، بل يدعون أنهم أبناؤه وأحباؤه كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾[2] إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وكان مشركو العرب يدّعون أنهم أهل اللَّه لسُكناهم مكة ومجاورتهم البيت. .

كما أن من الكفار من يدعي أنه ولي اللَّه وليس وليا لله بل عدو له، فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام يقرون في الظاهر بشهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن

---

(١) المائدة: الآية (١٨).

(٢) البقرة: الآية (١١١).

محمدا رسول اللَّه . . ويعتقدون في الباطن ما يناقض ذلك، مثل أن لا يقروا في الباطن بأنه رسول اللَّه وإنما كان ملِكا مطاعا ساس الناس برأيه من جنس غيره من الملوك، أو يقولون: إنه رسول اللَّه إلى الأميين . . أو أنه مرسل إلى عامة الخلق، وأن لله أولياء خاصّةً لم يرسَل إليهم، ولا يحتاجون إليه، بل لهم طريق إلى اللَّه من غير جهته، كما كان الخضر مع موسى، أو أنهم يأخذون عن اللَّه كل مايحتاجون إليه، وينتفعون به من غير واسطة، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهم موافقون له فيها وأما الحقائق الباطنة فلم يرسل بها، أولم يكن يعرفها، أو هم أعرف بها منه، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته . .

فهؤلاء كلهم كفار مع أنهم يعتقدون في طائفتهم أنهم أولياء اللَّه، وإنما أولياء اللَّه الذين وصفهم اللَّه تعالى بولايته بقوله : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ ولابد في الإيمان من أن يؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويؤمن بكل رسول أرسله اللَّه، وكل كتاب أنزله اللَّه، وأن محمدًا ﷺ خاتم النبيين لا نبي بعده، وأن اللَّه أرسله إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن، فضلا عن أن يكون من أولياء اللَّه المتقين، ومن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر ليس بمؤمن . . ومن الإيمان به: الإيمان بأنه هو الواسطة بين اللَّه وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده وحلاله وحرامه، فالحلال ما أحله اللَّه ورسوله، والحرام ما حرمه اللَّه ورسوله، والدين ما شرعه اللَّه ورسوله ﷺ فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقا إلى اللَّه من غير متابعة محمد ﷺ فهو كافر من أولياء الشيطان، وأما خلق اللَّه تعالى للخلق ورزقه إياهم وإجابتهم لدعائهم وهدايته لقلوبهم ونصرهم على أعدائهم وغير ذلك من جلب المنافع ودفع المضار؛ فهذا لله وحده، يفعله بما يشاء من الأسباب، لا يدخل في مثل هذا وساطة الرسل، ثم لو بلغ الرجل في الزهد والعبادة والعلم ما بلغ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد ﷺ فليس بمؤمن ولا ولي لله تعالى كالأحبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبادهم، وكذلك المنتسبين إلى العلم والعبادة من المشركين، مشركي العرب والترك والهند وغيرهم ممن كان من حكماء الهند والترك، وله علم أو زهد وعبادة في دينه، وليس مؤمنا

بجميع ما جاء به محمد؛ فهو كافر عدو لله، وإن ظن طائفة أنه ولي لله كما كان حكماء الفرس من المجوس كفارا مجوسا، وكذلك حكماء اليونان مثل أرسطو وأمثاله، كانوا مشركين يعبدون الأصنام والكواكب..

وفي أصناف المشركين.. من له اجتهاد في العلم والزهد والعبادة ولكن ليس بمتبع للرسل، ولا مؤمن بما جاؤوا به، ولا يصدقهم فيما أخبروا به، ولا يطيعهم فيما أمروا، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين، ولا أولياء اللّه، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم، فيكاشفون الناس ببعض الأمور، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾[1] وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات وخوارق العادات؛ إذا لم يكونوا متبعين للرسل؛ فلا بد أن يكذّبوا، وتُكذّبهم شياطينهم، ولا بد أن يكون في أعمالهم ماهو إثم وفجور، مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة، ولهذا تنزلت عليهم الشياطين واقترنت بهم، فصاروا من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن..

ومن الناس من يكون فيه إيمان وفيه شعبة من نفاق كما جاء في الصحيحين عن عبداللّه بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: **«أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا عاهد غدر»**[2].. وفي صحيح مسلم: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».. وإذا كان أولياء اللّه هم المؤمنون المتقون، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى؛ فمن كان أكمل إيمانًا وتقوى؛ كان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون في ولاية اللّه عز وجل بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، وكذلك يتفاضلون في عداوة اللّه بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق..

---

(١) الشعراء: الآيات (٢٢١-٢٢٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨٩)، والبخاري (١/ ١٢٠/ ٣٣)، ومسلم (١/ ٧٨/ ٥٨)، وأبو داود (٥/ ٦٤/ ٤٦٨٨)، والترمذي (٥/ ٢٠-٢١/ ٢٦٣٢)، والنسائي (٨/ ٤٩٠-٤٩١/ ٥٠٣٥) من حديث عبد اللّه بن عمرو رضي الله عنه.

وأولياء اللَّه على طبقتين: سابقون مقربون، وأصحاب يمين مقتصدون، وذكرهم اللَّه في عدة مواضع من كتابه العزيز. . فالأبرار أصحاب اليمين؛ هم المتقربون إليه بالفرائض، يفعلون ما أوجب اللَّه عليهم، ويتركون ما حرم اللَّه عليهم، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات، ولا الكف عن فضول المباحات.

وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، ففعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع مايقدرون عليه من محبوباتهم؛ أحبهم الرب حبًّا تامًّا كما قال تعالى: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» يعني الحب المطلق. .

وإذا كان العبد لا يكون وليًّا لله إلا إذا كان مؤمنًا تقيًّا لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾. . فمعلوم أن أحدا من الكفار والمنافقين لا يكون وليًّا لله، وكذلك من لا يصح إيمانه وعباداته وإن قدر أنه لا إثم عليه مثل أطفال الكفار ومن لم تبلغه الدعوة، وإن قيل: إنهم لا يعذبون حتى يرسل إليهم؛ فلا يكونون من أولياء اللَّه إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين، فمن لم يتقرب إلى اللَّه لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئات؛ لم يكن من أولياء اللَّه، وكذلك المجانين والأطفال، فإن النبي ﷺ قال: «**يرفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ**»[1].

وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث علي وعائشة رضي الله عنهما، واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول، لكن الصبي المميز تصح عباداته ويثاب عليها عند جمهور العلماء، وأما المجنون الذي رفع عنه القلم فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء، ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات، ولا يصلح هو عند عامة العقلاء لأمور الدنيا كالتجارة والصناعة، فلا يصلح أن

---

(١) أخرجه من حديث عائشة: أحمد (٦/ ١٠٠-١٠١)، وأبو داود (٤/ ٥٥٨/ ٤٣٩٨)، والنسائي (٦/ ٤٦٨/ ٣٤٣٢)، وابن ماجه (١/ ٦٥٨/ ٢٠٤١)، وصححه ابن حبان (١/ ٣٥٥/ ١٤٢)، والحاكم (٢/ ٥٩). وفي الباب عن علي أخرجه: أحمد (١/ ١٥٤-١٥٥)، وأبو داود (٤/ ٥٥٩-٥٦٠/ ٤٤٠١-٤٤٠٢)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٢٣/ ٧٣٤٤)، وصححه ابن حبان (١/ ٣٥٦/ ١٤٣)، والحاكم (١/ ٢٥٨).

يكون بزازا ولا عطارا ولا حدادا ولا نجارا، ولا تصح عقوده باتفاق العلماء فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته، ولا غير ذلك من أقواله، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعي ولا ثواب ولا عقاب، بخلاف الصبي المميز فإن له أقوالا معتبرة في مواضع بالنص والإجماع، وفي مواضع فيها نزاع. وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى اللَّه بالفرائض والنوافل وامتنع أن يكون وليا لله؛ فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي لله، لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه، أو نوع من تصرف مثل أن يراه قد أشار إلى أحد فمات أو صرع؛ فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية كالكهان والسحرة وعباد المشركين وأهل الكتاب، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص وليا لله، وإن لم يعلم منه ما يناقض ولاية اللَّه، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية اللَّه، مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ باطنًا وظاهرًا، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة، أو يعتقد أن لأولياء اللَّه طريقا إلى اللَّه غير طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو يقول: إن الأنبياء ضيقوا الطريق، أو هم قدوة على العامة، أنه ولي لله ولكن إن كان له حالة في إفاقته كان فيها مؤمنا باللَّه متقيا كان له من ولاية اللَّه بحسب ذلك، وإن كان له حالَ إفاقته فيه كفر أو نفاق أو كان كافرا أو منافقا ثم طرأ عليه الجنون، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه، وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق.

وليس لأولياء اللَّه شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات، فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحًا، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظَفره إذا كان مباحًا، كما قيل: كم من صدّيق في قَباء[1]، وكم من زنديق في عَباء، بل يوجد في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم، ويوجد في أهل الجهاد والسيف،

(١) فارسي معرب، وهو نوع من الثياب.

ويوجدون في التجار والصناع والزراع . .

وليس من شرط ولي اللّه أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب بعض الأمور مما أمر اللّه به ومما نهى اللّه عنه، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء اللّه تعالى وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته ولا يعرف أنها من الشيطان، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية اللّه تعالى، فإن اللّه ﷻ تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . .

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص ﵄ مرفوعا أنه قال: **«إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر»**[1] فلم يؤثم المجتهد المخطئ، بل جعل له أجرا على اجتهاده وجعل خطأه مغفورا له . .

ولهذا لما كان ولي اللّه يجوز أن يغلط ولم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي لله إلا أن يكون نبيا، بل ولا يجوز لولي اللّه أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه إلا أن يكون موافقًا، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاما ومحادثة وخطابا من الحق، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ماجاء به محمد ﷺ فإن وافقه قبله، وإن خالفه لم يقبله، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه .

والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف: طرفان ووسط: فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي لله وافقه في كل ما يظن أنه حدثه به قلبه عن ربه، وسلم إليه جميع ما يفعله . ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية اللّه بالكلية، وإن كان مجتهدًا مخطئًا . وخيار الأمور أوساطها وهو أن لا يجعل معصومًا ولا مأثومًا إذا كان مجتهدًا مخطئًا، فلا يتبع في كل ما يقوله، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده .

والواجب على الناس اتباع ما بعث اللّه به رسوله، وأما إذا خالف قول بعض

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٩٨-٢٠٤)، والبخاري (١٣/ ٣٩٣/ ٧٣٥٢)، ومسلم (٣/ ١٣٤٢/ ١٧١٦)، وأبو داود (٤/ ٦-٧/ ٣٥٧٤)، والترمذي (٣/ ٦١٥/ ١٣٢٦)، والنسائي(٨/ ٦١٤-٦١٥/ ٥٣٩٦)، وابن ماجه (٢/ ٧٦٧/ ٢٣١٤).

الفقهاء ووافق قول آخرين لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف، ويقول: هذا خالف الشرع، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **«قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم»**[1].. والمحدث يأخذ عن قلبه أشياء، وقلبه ليس بمعصوم فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي المعصوم، ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة رضي الله عنهم ويناظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور، وينازعونه في أشياء، فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة، ويقرهم على منازعته ولا يقول لهم: أنا محدث ملهم مخاطب، فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني، فأي أحد ادّعى أو ادّعى له أصحابه أنه ولي لله، وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله، ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة فهو وهم مخطئون، ومثل هذا أضل الناس، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه أفضل منه وهو أمير المؤمنين، وكان المسلمون ينازعونه ويعرضون ما يقوله -وهو وهم- على الكتاب والسنة، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل، وتجب طاعتهم فيما يأمرون به، بخلاف الأولياء؛ فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به، ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به، بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة فما، وافق الكتاب والسنة وجب قبوله، وما خالف الكتاب والسنة كان مردودا وإن كان صاحبه من أولياء الله، وكان مجتهدا معذورا فيما قاله، له أجر على اجتهاده، ولكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئًا وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع فإن الله تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[2]...

وهذا الذي ذكرته من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة، وأنه

---

(١) أخرجه من حديث عائشة: أحمد (٦/ ٥٥)، ومسلم (٤/ ١٨٦٤/ ٢٣٩٨)، والترمذي (٥/ ٥٨١/ ٣٦٩٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٩-٤٠/ ٨١١٩). وفي الباب عن أبي هريرة أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٩)، والبخاري (٧/ ٥٢/ ٣٦٨٩)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٠/ ٨١٢٠).

(٢) التغابن: الآية (١٦).

ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة؛ هو مما اتفق عليه أولياء اللَّه ﷻ، ومن خالف في هذا فليس من أولياء اللَّه سبحانه الذين أمر اللَّه باتباعهم، بل إما ان يكون كافرا، وإما أن يكون مفرطا في الجهل...

وكثير من الناس يغلط في هذا الموضع، فيظن في شخص أنه ولي لله، ويظن أن ولي اللَّه يقبل منه كل ما يقوله، ويسلم إليه كل ما يقوله، ويسلم إليه كل ما يفعله؛ وإن خالف الكتاب والسنة، فيوافق ذلك الشخص له ويخالف ما بعث اللَّه به رسوله الذي فرض اللَّه على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه، وبين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشقياء، فمن اتبعه كان من أولياء اللَّه المتقين، وجنده المفلحين، وعباده الصالحين، ومن لم يتبعه كان من أعداء اللَّه الخاسرين المجرمين، فتجره مخالفة الرسول وموافقة ذلك الشخص أولا إلى البدعة والضلال، وآخرًا إلى الكفر والنفاق، ويكون له نصيب من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾[1]...

وكل من خالف شيئًا مما جاء به الرسول مقلدًا في ذلك لمن يظن أنه ولي لله فإنه بنى أمره على أنه ولي اللَّه، وإن ولي اللَّه لا يخالَف في شيء ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء اللَّه كأكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان؛ لم يقبل منه ما خالف الكتاب والسنة، فكيف إذا لم يكن كذلك؟! وتجد كثيرا من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه وليا لله؛ أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور، أو بعض التصرفات الخارقة للعادة، مثل أن يشير إلى شخص فيموت، أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها، أو يمشي على الماء أحيانا، أو يملأ إبريقا من الهواء، أو ينفق بعض الأوقات من الغيب، أو يختفي أحيانا عن أعين الناس، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه فقضى حاجته، أو يخبر الناس بما سرق لهم أو

(١) الفرقان: الآيات (٢٧-٢٩).

بحال غائب لهم أو مريض، أو نحو ذلك من الأمور، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي اللَّه، بل قد اتفق أولياء اللَّه على أن الرجل لو طار في الهواء، أو مشى على الماء، لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول اللَّه ﷺ وموافقته لأمره ونهيه.

وكرامات أولياء اللَّه تعالى أعظم من هذه الأمور، وهذه الأمور الخارقة للعادة وإن كان قد يكون صاحبها وليا لله؛ فقد يكون عدوا لله، فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وتكون لأهل البدع وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله، بل يعتبر أولياء اللَّه بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن، وبحقائق الإيمان الباطنة، وشرائع الإسلام الظاهرة. . .

فإذا كان الشخص مباشرًا للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان، أو يأوي إلى الحمامات والحشوش التي تحضرها الشياطين، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق، أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان، أو يدعو غير اللَّه فيستغيث بالمخلوقات ويتوجه إليها، أو يسجد إلى ناحية شيخه ولا يخلص الدين لرب العالمين، أو يلابس الكلاب أو النيران، أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة، أو يأوي إلى المقابر، ولا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن، فهذه علامات أولياء الشيطان، لا علامات أولياء الرحمن»[١].

قلت: دين اللَّه واضح، واللَّه تعالى أنزل على عبده قرآنًا يتلى، عدد آياته أكثر من ستة آلاف آية، وسوره أكثر من مائة سورة، استغرقت حياة النبي ﷺ من البداية إلى النهاية، ولم يأل ﷺ جهدًا ولم يقصر في البيان؛ بل بين الدين بيانًا كاملًا، ولم

---

(١) انتهى ملخصًا من «الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن» (ص: ٨-٦٤).

يترك لأحد مقالًا، وأشهدهم عام حجة الوداع على ذلك وشهدوا له بالبلاغ، وقد بين في ذلك صفة أنبياء اللَّه وأعدائه، وقد تنوعت صفات أولياء اللَّه في القرآن، فتارة يذكرون بالمسلمين القانتين المخبتين المفلحين وغيرها من الصفات، وهي كثيرة في القرآن بحمد اللَّه، ويذكر أعداء اللَّه فيصفهم بالفاسقين والظالمين والمنافقين، وهي أيضًا في القرآن كثيرة. وجاء أعداء الإسلام فاختلقوا مصطلحات ونسبوها لأناس بدون حجة ولا برهان، وهذا الاختلاق من الرافضة أعداء اللَّه ومن الصوفية الذين يعتبرون امتدادًا لهم، فاصطفوا مجموعة من الجهلاء وسموهم بأولياء اللَّه، وهؤلاء إما كهنة أو سحرة أو أفاكون، وبنوا عليهم أبنية سموها بالأضرحة، ووضعوا عليها توابت، وكسوها بأفخر الأثواب، ونوروها بالشموع، وجعلوها مزارات، وجعلوا فيها من الشركيات ما لم يكن في اللات والعزى، وزعموا أن في هذا المكان وليًّا صالحًا واللَّه أعلم بمن في ذلك المكان. وقد وقع في مصر مثل ما ذكرنا؛ فقد ذكرت مجلة التوحيد التي تصدر في مصر أنهم اكتشفوا أن ضريح الرجل الذي يقال له أبو حصيرة هو قبر ليهودي!

وطامّات هؤلاء القوم كثيرة، فقد وصفوا أرباب الطرق بالأولياء! بل زعم أحدهم أن شيخه هو خاتم الأولياء! وصنف في ذلك الحكيم الترمذي ختم الولاية، كما وصف التجانية شيخهم بهذا الوصف، ويسمونه بالختم، وله في ذلك نظم ونثر، وألف أبو نعيم كتابه الذي سماه (حلية الأولياء) ويقصد به التأصيل لهذه المفسدة، وكذلك الشعراني في كتابه (طبقات الأولياء)، وهكذا في الوقت الحاضر يصفون كل دجال كذاب آكل لأموال الناس بالباطل بالولاية! فتجد هذا في كثير من بلاد الإسلام، فليحذر العاقل من هؤلاء الكذبة؛ فإنهم غيروا دين اللَّه وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أولياء اللَّه وصفاتهم وجزائهم

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن اللَّه قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحبّ إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره**

الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته»[1].

★ فوائد الحديث:

سبق في كلام شيخ الإسلام: أن هذا أصحّ حديث يروى في الأولياء، فبيّن النبي ﷺ أنه من عادى وليًّا لله؛ فقد بارز اللَّه في المحاربة[2].

وذكر ابن عاشور أن هذه الآية من أقوى ما يعتمد عليه في تفسير حقيقة الوليّ شرعًا، وأن على حقيقتها يحمل معنى قوله في الحديث القدسي: **«من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب»**[3].

قوله: «من عادى لي وليًّا»

قال الحافظ: «المراد بولي اللَّه العالم باللَّه المواظب على طاعته المخلص في عبادته، وقد استشكل وجود أحد يعاديه، لأن المعادة إنما تقع من الجانبين، ومن شأن الوليّ الحلم والصفح عمن يجهل عليه، وأجيب بأن المعاداة لم تنحصر في الخصومة والمعاملة الدنيوية مثلا، بل قد تقع عن بغض ينشأ عن التعصب، كالرافضي في بغضه لأبي بكر، والمبتدع في بغضه السني، فتقع المعاداة من الجانبين، أما من جانب الوليّ فلله تعالى وفي اللَّه، وأما من جانب الآخر فلما تقدم. وكذا الفاسق المتجاهر ببغضه الولي في اللَّه، وببغضه الآخر لإنكاره عليه، وملازمته لنهيه عن شهواته. وقد تطلق المعاداة ويراد بها الوقوع من أحد الجانبين بالفعل ومن الآخر بالقوة..

وقال ابن هبيرة في «الإفصاح»: قوله: «عادى لي وليا» أي: اتخذه عدوًا، ولا أرى المعنى إلا أنه عاداه من أجل ولايته، وهو وإن تضمن التحذير من إيذاء قلوب أولياء اللَّه ليس على الإطلاق، بل يستثنى ما إذا كانت الحال تقتضي نزاعًا بين وليين في مخاصمة أو محاكمة ترجع إلى استخراج حق، أو كشف غامض؛ فإنه

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٤١٤/ ٦٥٠٢).
(٢) الفرقان (ص: ٩).
(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٢١٨).

جرى بين أبي بكر وعمر مشاجرة، وبين العباس وعلي، إلى غير ذلك من الوقائع. انتهى ملخصا موضحا. وتعقبه الفاكهاني بأن معاداة الولي لكونه وليا لا يفهم إلا إن كان على طريق الحسد الذي هو تمني زوال ولايته. وهو بعيد جدًا في حق الوليّ فتأمله.

قلت: والذي قدمته أولى أن يعتمد»[١].

وقد عد ابن حجر الهيتمي -رحمه الله- أذية أولياء اللَّه ومعاداتهم من الكبائر حيث قال: «تنبيه: عد هذا كبيرة هو ما صرح به بعضهم، وهو صريح هذا الوعيد الذي لا أشد منه؛ إذ محاربة اللَّه تعالى للعبد لم تذكر إلا في أكل الربا ومعاداة الأولياء، ومن عاداه اللَّه لا يفلح أبدًا؛ بل لا بد والعياذ باللَّه تعالى من أن يموت على الكفر، عافانا اللَّه من ذلك بمنه وكرمه. ثم رأيت الزركشي في 'الخادم' أشار إلى ذلك حيث قال بعد الحديث: وتأمل هذا الوعيد حينئذ وأكل الربا في قرن ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٢]. وفي فتاوى البديعي من الحنفية: من استخف بالعالم طلقت امرأته؛ وكأنه جعله ردة، انتهى. وقال بعض الأئمة يعني الحافظ الإمام ابن عساكر: اعلم يا أخي -وفقك اللَّه وإيانا وهداك سبيل الخير وهدانا- أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة اللَّه في هتك منتقصهم معلومة، ومن أطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه اللَّه قبل موته بموت القلب، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣]»[٤].

* عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **«إن من عباد اللَّه لأناسًا ما هم بأنبياء، ولا شهداء، يَغبِطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من اللَّه تعالى» قالوا: يا رسول الله! تخبرنا من هم؟ قال: «هم قوم تحابّوا بروح اللَّه على غير أرحام بينهم ولا أموالٍ يتعاطونها، فواللَّه إن وجوههم لنور، وإنهم على نور،**

---

(١) الفتح (١١/ ٤١٦).

(٢) البقرة: الآية (٢٧٩).

(٣) النور: الآية (٦٣).

(٤) الزواجر (١/ ٢٣٤-٢٣٥).

لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»، وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»[١].

★ فوائد الحديث:

أفاد الحديث تحديد أولياء اللَّه تعالى ونعتهم، وأنهم «الذين يتولّونه بإخلاص العبادة له، والتوكل عليه، وحبِّه والحبّ فيه، والولاية له، فلا يتخذون له أندادًا يحبونهم من نوع حبه، ولا يتخذون من دونه وليًا ولا شفيعًا يقربهم إليه زلفى، ولا وكيلًا ولا نصيرًا فيما يخرج عن توفيقهم لإقامة سننه في الأسباب والمسببات، ويتولون رسوله والمؤمنين بما أمرهم به، وهو من كان بالصفة التي وصفه اللَّه بها، وهو الذي آمن واتقى، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾»[٢].

ولا مخالفة بين ما ذكر في هذا الحديث وبين ما ذكر في الآية من نعت أولياء اللَّه، «فإن ما أشير إليه من حسن السمت والإخبات والتحابّ في اللَّه تعالى؛ من الأحكام اللازمة للإيمان والتقوى، والآثار الخاصة بهما الحقيقة بالتخصيص بالذكر لظهورها وقربها من أفهام الناس. وقد أورد رسول اللَّه ﷺ كلاً من ذلك، حسبما يقتضيه مقام الإرشاد والتذكير؛ ترغيبا لسائل أو حاضر فيما خصه بالذكر من أحكامهما»[٣].

---

(١) أخرجه: أبو داود (٣/ ٧٩٩/ ٣٥٢٧). قال ابن كثير (٤/ ٢٧٨): «هذا إسناد جيد إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب». وأورده أبو نعيم في الحلية (١/ ٥) موصولًا: عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير عن عمر ابن الخطاب. وهو خطأ، صوابه: أبو زرعة بن عمرو بن جرير كما في سند أبي داود. نبه عليه الحافظ في التقريب (١/ ٧٣١). وعليه فالحديث ضعيف للانقطاع الحاصل في سنده إلا أن له شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن إن شاء اللَّه. منها:
حديث أبي مالك الأشعري عند أحمد: (٥/ ٣٤٣)، والطبراني في الكبير (٣/ ٣٢٩/ ٣٤٣٣)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٧٦-٢٧٧): رواه أحمد والطبراني بنحوه، ورجاله وُثقوا.
وحديث ابن عمر عند الحاكم (٤/ ١٧٠-١٧١) وصححه، ووافقه الذهبي.
وحديث أبي هريرة عند النسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٢/ ١١٢٣٦)، وأبو يعلى (١٠/ ٤٩٥/ ٦١١٠)، وصححه ابن حبان (٢/ ٣٣٢-٣٣٣/ ٥٧٣).
وحديث أبي الدرداء أورده المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢١) وقال: «رواه الطبراني بإسناد حسن».
(٢) التعليق على الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٢/ ٣٣٤).
(٣) روح المعاني (١١/ ١٥٠).

قوله: «يغبطهم الأنبياء..»

قال القاري: «الغِبطة بالكسر هي تمني نعمة على أن لا تتحوّل عن صاحبها، بخلاف الحسد فإنه تمني زوالها عن صاحبها، فالغبطة في الحقيقة عبارة عن حسن الحال.. وفي القاموس: الغِبطة حسن الحال والمسرّة، فمعناها الحقيقي مطابق لمعناها اللغوي، فمعنى الحديث: يستحسن حالهم الأنبياء والشهداء، وبهذا يزول الإشكال الذي تحيّر فيه العلماء»[1].

قال الطيبي: «يمكن أن تحمل الغبطة هنا على استحسان الأمر المرضي المحمود فعله؛ لأنه لا يغبط إلا في الأمر المحمود المرضي، فإن الأنبياء والشهداء صلوات اللَّه عليهم يحمدون إليهم فعلهم، ويرضون عليهم فيما تحرّوا من المحبة في اللَّه، ويعضده ما روينا في صحيح مسلم، عن المغيرة بن شعبة أنه غزا مع رسول اللَّه ﷺ بتبوك. قال: فتبرز رسول اللَّه ﷺ قبل صلاة الفجر للوضوء، وحملت معه إداوة، ثم أقبلنا حتى نجد الناس قدموا عبد الرحمن بن عوف، فصلى بهم، فأدرك رسول اللَّه ﷺ إحدى الركعتين، فصلى مع الناس الركعة الأخيرة، فلما سلم عبد الرحمن؛ قام رسول اللَّه ﷺ يتم صلاته، فأفزع ذلك المسلمين فأكثروا التسبيح، فلما قضى رسول اللَّه ﷺ أقبل عليهم، ثم قال: **«أحسنتم»** أو قال: **«قد أصبتم»** يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها[2]. فقوله: «يغبطهم..» الخ. كلام الراوي تفسيرًا وبيانًا لقوله ﷺ: «أحسنتم» أو قال: «قد أصبتم». وأيضًا، لا يبعد أن هذه الحالة في المحشر قبل دخول الناس الجنة أو النار لقوله: «لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» والتعريف للاستغراق، فيحصل لهؤلاء الأمن والفراغ في بعض الأوقات، ما لا يحصل لغيرهم لاشتغالهم بحال أنفسهم أو حال أمتهم فيغبطونهم لذلك»[3].

وعلق القاري على قول الطيبي: فيحصل لهؤلاء الأمن ما لا يحصل لغيرهم؛

---

(١) المرقاة (٨/ ٧٤٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤٩) وهذا لفظه، والبخاري (٨/ ١٥٨/ ٤٤٢١)، ومسلم (١/ ٢٢٨-٢٢٩/ ٢٧٤)، وأبو داود (١/ ١٠٣-١٠٤/ ١٤٩)، والنسائي (١/ ٦٥-٦٦/ ٧٩)، وابن ماجه (١/ ١٨١/ ٥٤٥).

(٣) شرح الطيبي (١٠/ ٣٢٠٣).

قائلًا: «هذا غير صحيح، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾[1]. وأيضًا؛ تصور أمن المتحابين، وخوف الأنبياء على أنفسهم؛ خطأ فاحش؛ لأنه يلزم منه تفضيل الأولياء على الأنبياء، كما يشعر به ظاهر الحديث، والعلماء عاملون في تأويله بوجه يزيل الإشكال، واللَّه أعلم بالحال»[2].

«وأيًّا ما كان فلا دليل فيه على أن الولاية أفضل من النبوة، وقد كُفِّر معتقد ذلك»[3].

* * *

(١) الأنعام: الآية (٨٢).

(٢) المرقاة (٨/ ٧٤٤-٧٤٥).

(٣) روح المعاني (١١/ ١٥٠).

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

البشرى: الخبر السارّ يظهر أثره على وجه الإنسان، ومثلها البشارة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: البشرى من اللَّه في الحياة الدنيا وفي الآخرة؛ لأولياء اللَّه، الذين آمنوا وكانوا يتقون. ثم اختلف أهل التأويل في البشرى التي بشر اللَّه بها هؤلاء القوم ما هي؟ وما صفتها؟

فقال بعضهم: هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترى له، وفي الآخرة الجنة. . .

وقال آخرون: هي بشارة يبشر بها المؤمن في الدنيا عند الموت. . .

وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه -تعالى ذكره- أخبر أن لأوليائه المتقين البشرى في الحياة الدنيا، ومن البشارة في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرَى له، ومنها بشرى الملائكة إياه عند خروج نفسه برحمة اللَّه، كما رُوي عن النبيّ ﷺ: «إنّ الملائكة التي تحضره عند خروج نفسه، تقول لنفسه: اخْرُجي إلى رحمة اللَّه ورضوانه». ومنها: بشرى اللَّه إياه ما وعده في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من الثواب الجزيل، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1] . . .

وأما قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فإن معناه: إن اللَّه لا خلف لوعده ولا تغيير لقوله عما قال، ولكنه يمضي لخلقه مواعيده وينجزها لهم. . .

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هذه البشرى في الحياة

(١) البقرة: الآية (٢٥).

الدنيا وفي الآخرة هي الفوز العظيم، يعني الظفر بالحاجة والطلبة والنجاة من النار»(١).

قال السعدي: «أما البشارة في الدنيا، فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف اللَّه به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأخلاق.

وأما في الآخرة، فأولها البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(٢).

وفي القبر، ما يبشر به من رضا اللَّه تعالى، والنعيم المقيم، وفي الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير البشرى بالرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له،والثناء الحسن عليه في الدنيا، وتبشير الملائكة إياه بالجنة والمغفرة عند الموت

* عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر عن أبي الدرداء ﷺ قال: سئل عن هذه الآية: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فقال: لقد سألتَ عن شيء ما سمعتُ أحدًا سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسول اللَّه ﷺ فقال: «**هي الرؤيا الصالحة يُراها الرجل المسلم أو تُرى له؛ بُشراه في الحياة الدنيا، وبشراه في الآخرة الجنة**»(٤).

* عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: سألت رسول اللَّه ﷺ عن قوله -تبارك وتعالى-: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قال: «**هي الرؤيا الصالحة**

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٣٣-١٣٨). (٢) فصلت: الآية (٣٠).

(٣) تيسير الكريم (٣/ ٣٦٧-٣٦٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٤٥)، والترمذي (٤/ ٤٦٢/ ٢٢٧٣) وقال: «هذا حديث حسن». انظر الصحيحة (١٧٨٦).

يراها المسلم أو ترى له»[١] .

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كشف رسول اللَّه ﷺ الستارة، والناس صفوف خلف أبي بكر. فقال: **«أيها الناس! إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يَراها المسلم أو ترى له. ألا وإني نهيتُ أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا. فأما الركوع فعظّموا فيه الربّ عزّ وجلّ. وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء. فقَمِنٌ أن يستجاب لكم»**[٢] .

* عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي»**. قال: فشقّ ذلك على الناس فقال: **«لكن المبشرات»** قالوا: يا رسول الله! وما المبشرات؟ قال: **«رؤيا المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة»**[٣] .

⋆ غريب الأحاديث:

الرؤيا: الرؤيا كالرؤية. جعل ألف التأنيث فيها مكان تاء التأنيث للتفريق بين ما يراه في المنام وبين ما يراه في اليقظة.

⋆ فوائد الأحاديث:

قال أبو عمر ابن عبد البر بعدما ساق حديث عطاء بن يسار: «هذا حديث حسن في التفسير المرفوع، صحيح من نقل أهل المدينة.. وعلى ذلك أكثر أهل التفسير في معنى هذه الآية. وهو أولى ما اعتقده العالم في تأويل قول اللَّه عز وجل: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾»[٤] .

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٥)، والترمذي (٤/ ٤٦٣/ ٢٢٧٥) وحسنه، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٣/ ٣٨٩٨)، وصححه الحاكم (٢/ ٣٤٠) ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٩)، ومسلم (١/ ٣٤٨/ ٤٧٩)، وأبو داود (١/ ٥٤٥-٥٤٦/ ٨٧٦)، والنسائي (٢/ ٥٣٤/ ١٠٤٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٣/ ٣٨٩٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٦٧)، والترمذي (٤/ ٤٦٢/ ٢٢٧٢) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وصححه الحاكم (٤/ ٣٩١) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٤) فتح البر (٢/ ١٨٦).

قال ابن عاشور: «ومحمل هذا الخبر أن الرؤيا الصالحة من جملة البشرى في الحياة الدنيا؛ لأنها تؤذن صاحبها بخير مستقبل يحصل في الدنيا أحرى الآخرة، أوكأن السائل سأل عن بشرى الحياة، فأما بشرى الآخرة فكانت معروفة بقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[1] ونحوها من الآيات»[2].

تنبيه: سيأتي تفصيل الكلام في الرؤيا وأحكامها في سورة (يوسف) إن شاء الله.

* عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: **«تلك عاجل بشرى المؤمن»**[3].

⋆ فوائد الحديث:

استشهد بالحديث من ذهب إلى أن المراد بالبشرى في الحياة الدنيا: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين. وهذا أحد الأقوال التي فسرت به الآية، كما حكاه الخازن[4] واستدل عليه بهذا الحديث.

قوله: «تلك عاجل بشرى المؤمن»

قال النووي: «قال العلماء: معناه هذه البشرى المعجلة له بالخير، وهي دليل على رضا الله تعالى عنه ومحبته له، فيحبِّبه إلى الخلق، كما سبق في الحديث، ثم يوضع له القبول في الأرض، هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم، وإلا فالتعرض مذموم»[5].

وقال الطيبي: «يعني: هو في عمله ليس مرائيًا، فيعطيه الله تعالى به ثوابين: في الدنيا وهو حمد الناس له، وفي الآخرة ما أعدّ الله له»[6].

---

(١) التوبة: الآية (٢١).
(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢١٩).
(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٤/ ٢٦٤٢)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٢/ ٤٢٢٥).
(٤) لباب التأويل (٢/ ٣٠٥).
(٥) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٥٥).
(٦) الكاشف (١١/ ٣٣٧).

* عن البراء بن عازب ﷺ قال: «خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار..» الحديث وفيه: «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت ﷺ، حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان..**»[1].

★ غريب الحديث:

انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة: أي إذا دنا أجله وصار في حالة الاحتضار.

حَنوط: بفتح الحاء المهملة، هو ما يُخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة.

★ فوائد الحديث:

استشهد بهذا الحديث من قال: إن المراد بالبشارة في الحياة الدنيا بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة، وهذا أحد الأقوال التي فسرت به الآية أيضا. وهو قول الحسن والزهري وقتادة.

قوله: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا..»

قال ابن جرير: «في ذلك الدليل الواضح على أنه لا أحد يفارق الدنيا من بني آدم ممن قد بلغ حد التكليف من مؤمن أو كافر؛ إلا عن علم منه بما هو صائر إليه في آخرته من جنة أو نار، وذلك أن النبي ﷺ أخبر أن أهل الإيمان تأتيهم الملائكة في حال نزول الموت بهم في صورة مخالفة الصور التي تأتي بها أهل الكفر بالله وأهل النفاق، وبحالٍ خلافَ الحالة التي تأتي بها الكفار، وفي ذلك -لا شك- للمؤمن المعرفة بحاله ومنزلته عند ربّه، وللكافر اليقين بحاله عنده. وقد كان جماعة من أهل التأويل يتأولون قول الله -تعالى ذكره-: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أنها هذه

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨) واللفظ له، وأبو داود (٥/ ١١٤-١١٦/ ٤٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧-٣٨) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

البشارة التي ذكرناها، وهي ظهور الملائكة لهم عند نزول الموت بهم، حتى يعاينوهم بالصفة التي وصفها رسول الله ﷺ في الخبر الذي رويناه عن البراء بن عازب رضي الله عنه»[١].

قلت: لا مانع من حمل الآية على جميع ما دلت عليه الأحاديث من أن البشارة في الدنيا هي الرؤيا الصالحة، والثناء الحسن عند الناس، وإعلام الملائكة المؤمن بمنزلته حين نزول الموت به.

قال ابن جرير: «وكل هذه المعاني من بشرى الله إياه في الحياة الدنيا بشره بها، ولم يخصص الله من ذلك معنى دون معنى، فذلك مما عمّه -جل ثناؤه- أن لهم البشرى في الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فالجنة»[٢].

وقال السعدي: «والحاصل أن البشرى شاملة لكل خير وثواب رتبه الله في الدنيا والآخرة على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك فلم يقيده»[٣].

* * *

---

(١) تهذيب الآثار (٢/ ٦٠٣-٦٠٧) مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) جامع البيان (١١/ ١٣٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

العزة: المنعة وشدة الغلبة، من عزّه يعُزّه إذا غلبه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[١]، أي: غلبني.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «هذه آية تسلية لمحمد ﷺ. المعنى: ولا يحزنك يا محمد ويهمك قولهم، أي: قول كفار قريش، ولفظة القول تعم جحودهم واستهزاءهم وخداعهم وغير ذلك»[٢].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: لا يحزنك يا محمد قول هؤلاء المشركين في ربهم ما يقولون، وإشراكهم معه الأوثان والأصنام، فإن العزّة لله جميعا، يقول -تعالى ذكره-: فإن اللّٰه هو المنفرد بعزّة الدنيا والآخرة لا شريك له فيها، وهو المنتقم من هؤلاء المشركين القائلين فيه من القول الباطل ما يقولون، فلا ينصرهم عند انتقامه منهم أحد؛ لأنه لا يعازّه شيء. ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾يقول: وهو ذو السمع لما يقولون من الفرية والكذب عليه، وذو علم بما يضمرونه في أنفسهم ويعلنونه، محصٍ ذلك عليهم كله، وهو لهم بالمرصاد»[٣].

قال أبو حيان: «ولا تضاد بين قوله: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤]؛ لأن عزتهم إنما هي باللّٰه، فهي كلها لله»[٥].

* * *

(١) ص: الآية (٢٣).
(٢) المحرر الوجيز (٣/ ١٢٩).
(٣) جامع البيان (١١/ ١٣٩).
(٤) المنافقون: الآية (٨).
(٥) البحر (٥/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يخرصون: يكذبون، يقال: خرص وتخرّص واخترص: إذا افترى الكذب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ألا إنّ لله يا محمد كلّ من في السموات ومن في الأرض ملكا وعبيدا لا مالك لشيء من ذلك سواه، يقول: فكيف يكون إلها معبودا من يعبده هؤلاء المشركون من الأوثان والأصنام، وهي لله ملك، وإنما العبادة للمالك دون المملوك، وللربّ دون المربوب. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ﴾ يقول -جل ثناؤه-: وأيّ شيء يتبع من يدعو من دون الله، يعني غير الله وسواه شركاء. ومعنى الكلام: أيّ شيء يتبع من يقول لله شركاء في سلطانه وملكه كاذبا، والله المنفرد بملك كلّ شيء في سماء كان أو أرض. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ يقول: ما يتبعون في قيلهم ذلك ودعواهم إلا الظنّ، يقول: إلا الشكّ لا اليقين. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يقول: وإن هم إلا يتقوّلون الباطل تظنّيا وتخرّصًا للإفك عن غير علم منهم بما يقولون»[1].

قال ابن تيمية: «ظن طائفة أن ﴿مَآ﴾ نافية، وهو خطأ. بل هي استفهام؛ فإنهم يدعون معه شركاء كما أخبر عنهم في غير موضع، فالشركاء يوصفون في القرآن بأنهم يُدعون لا أنهم يُتبعون، وإنما يتبع الأئمة، ولهذا قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، ولو أراد النفي لقال: إن يتبعون إلا من ليسوا شركاء، بل بيّن أن المشرك لا علم معه إن هو إلا الظن والخرص كقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾[2]»[3].

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٣٩).
(٢) الذاريات: الآية (١٠).
(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٦١).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ۝٦٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن ربكم أيها الناس الذي استوجب عليكم العبادة هو الربّ الّذي جعل لكم الليل وفصّله من النهار، لتسكنوا فيه مما كنتم فيه في نهاركم من التعب والنصب، وتهدءوا فيه من التصرّف والحركة للمعاش والعناء الذي كنتم فيه بالنهار. ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ يقول: وجعل النهار مبصرا، فأضاف الإبصار إلى النهار، وإنما يبصر فيه، وليس النهار مما يُبْصِر، ولكن لمّا كان مفهوما في كلام العرب معناه، خاطبهم بما في لغتهم وكلامهم، وذلك كما قال جرير:

لَقَدْ لُمْتِنا يا أُمّ غَيْلانَ فِي السّرَى ... ونِمْتِ وَما لَيْلُ المَطِيّ بِنائِمِ

فأضاف النوم إلى الليل ووصفه به، ومعناه أنه لم يكن نائما فيه هو ولا بعيره. يقول -تعالى ذكره-: فهذا الذي يفعل ذلك هو ربكم الذي خلقكم وما تعبدون، لا ما لا ينفع ولا يضرّ ولا يفعل شيئا.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن في اختلاف حال الليل والنهار وحال أهلهما فيهما دلالة وحججًا على أن الذي له العبادة خالصا بغير شريك، هو الذي خلق اللّيل والنهار وخالف بينهما، بأن جعل هذا للخلق سكنا وهذا لهم معاشا، دون من لا يخلق ولا يفعل شيئا ولا يضرّ ولا ينفع. وقال: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ لأن المراد منه: الذين يسمعون هذه الحجج ويتفكرون فيها فيعتبرون بها ويتعظون، ولم يرد به الذين يسمعون بآذانهم ثم يعرضون عن عبره وعظاته»[1].

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٣٩-١٤٠).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال هؤلاء المشركون بالله من قومك يا محمد: اتخذ الله ولدًا، وذلك قولهم: الملائكة بنات الله. يقول الله منزّها نفسه عما قالوا وافتروا عليه من ذلك: سبحان الله، تنزيها لله عما قالوا وادّعوا على ربهم. ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ يقول: الله غنيّ عن خلقه جميعًا، فلا حاجة به إلى ولد، لأن الولد إنما يطلبه من يطلبه؛ ليكون عونا له في حياته، وذكرا له بعد وفاته، والله عن كلّ ذلك غنيّ، فلا حاجة به إلى معين يعينه على تدبيره، ولا يبيد فيكون به حاجة إلى خلف بعده. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: لله ما في السموات وما في الأرض ملكا، والملائكة عباده وملكه، فكيف يكون عبد الرجل وملكه له ولدا؟ يقول: أفلا تعقلون أيها القوم خطأ ما تقولون؟ ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا﴾ يقول: ما عندكم أيها القوم بما تقولون وتدّعون من أن الملائكة بنات الله من حجة تحتجون بها، وهي السلطان. أتقولون على الله قولًا لا تعلمون حقيقته وصحته، وتضيفون إليه ما لا يجوز إضافته إليه جهلًا منكم بغير حجة ولا برهان»[1].

وفي الآية دليل على تسمية البرهان سلطانًا؛ قال ابن القيم: «إنه سبحانه سمى الحجة العلمية سلطانًا، قال ابن عباس ﷺ: «كل سلطان في القرآن فهو حجة»[2]

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٤٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (١٩/ ١٤٦) والبخاري تعليقًا (٨/ ٤٩٦) قال الحافظ: «ووصله ابن عيينة في تفسيره عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس، وهذا على شرط الصحيح، ورواه الفريابي بإسناد آخر عن ابن عباس، وزاد: «وكل تسبيح في القرآن فهو صلاة»» فتح الباري (٨/ ٤٩٩).

وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني ما عندكم من حجة بما قلتم، إن هو إلا قول على اللَّه بلا علم، وقال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾[1] يعني ما أنزل بها حجة ولا برهانا، بل هي من تلقاء أنفسكم وآبائكم. وقال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ۝ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2] يعني حجة واضحة، فائتوا بها إن كنتم صادقين في دعواكم.

إلا موضعًا واحدًا اختلف فيه، وهو قوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[3] فقيل: المراد به القدرة والملك، أي: ذهب عني مالي وملكي؛ فلا مال لي ولا سلطان. وقيل: هو على بابه، أي: انقطعت حجتي وبطلت فلا حجة لي.

والمقصود أن اللَّه سبحانه سمى علم الحجة سلطانًا؛ لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره، فله بها سلطان على الجاهلين، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقادون لليد؛ فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن، فالحجة تأسر القلب وتقوده، وتذل المخالف وإن أظهر العناد والمكابرة، فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها، بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يساس به؛ فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها؛ قدرة بلا علم ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة؛ فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة، ومن لم يكن له اقتدار في علمه فهو إما لضعف حجته وسلطانه، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له، وإلا فالحجة ناصرة نفسها، ظاهرة على الباطل قاهرة له»[4].

قال أبو حيان: «قوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لما نفى البرهان عنهم جعلهم غير عالمين، فدل على أن كل قول لا برهان عليه لقائله فذلك جهل ليس بعلم»[5].

* * *

(١) النجم: الآية (٢٣).

(٢) الصافات: الآيتان (١٥٦و١٥٧).

(٣) الحاقة: الآيتان (٢٨و٢٩).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٤٣-٢٤٥).

(٥) البحر المحيط (٥/ ١٧٥).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قُلْ يا محمد لهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فيقولون عليه الباطل، ويدّعون له ولدا ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ يقول: لا يبقون في الدنيا، ولكن لهم ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ يُمتّعون به، وبلاغ يتبلغون به إلى الأجل الذي كتب فناؤهم فيه. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ يقول: ثم إذا انقضى أجلهم الذي كتب لهم إلينا مصيرهم ومنقلبهم. ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ وذلك إصلاؤهم جهنم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ بالله في الدنيا، فيكذّبون رسله ويجحدون آياته»[1].

قال أبو حيان: «و﴿ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ عام يشمل من نسب إلى الله الولد، ومن قال في الله وفي صفاته قولا بغير علم، فهو داخل في الوعيد بانتفاء الإفلاح، ولما نفى عنهم الفلاح وكان لهم حظ من إفلاحهم في الدنيا لحظوظ فيها من مال وجاه وغير ذلك؛ قيل: ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ جوابًا على تقدير سؤال: كأن قائلا قال: كيف يفلحون وهم في الدنيا مفلحون بأنواع مما يتلذذون به فقيل: ذلك متاع في الدنيا، أو لهم متاع في الدنيا زائل لا بقاء له، ثم يَلقون الشقاء المؤبد في الآخرة»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١١/ ١٤١).

(٢) البحر المحيط (٥/ ١٧٥).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ ﴾

* **غريب الآية:**

كبر: عظم.

غمة: أي كربة وضيق توجب الحزن. والغمّ الحزن الذي يغم القلب أي: يستره ويغشّيه.

أقوال المفسرين في تأويل الآيات

قال الخازن: «لما ذكر اللَّه ﷻ في هذه السورة أحوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد؛ شرع بعد ذلك في بيان قصص الأنبياء، وما جرى لهم مع أممهم، ليكون في ذلك لرسول اللَّه ﷺ أسوة بمن سلف من الأنبياء، وتسلية له ليخفّ عليه ما يلقى من أذى قومه، وأن الكفار من قومه إذا سمعوا هذه القصص، وما جرى لكفار الأمم الماضية من العذاب والهلاك في الدنيا؛ كان ذلك سببا لخوف قلوبهم، وداعيا لهم إلى الإيمان. ولما كان قوم نوح أول الأمم هلاكًا، وأعظمهم كفرا وجحودًا؛ ذكر اللَّه قصتهم، وأنه أهلكهم بالغرق، ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش»[1].

---

(١) لباب التأويل (٢/ ٣٠٧).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: واتل على هؤلاء المشركين الذي قالوا: اتخذ اللَّه ولدا من قومك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ يقول: خبر نوح، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ يقول: إن كان عظم عليكم مقامي بين أظهركم وشقّ عليكم، ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يقول: ووعظي إياكم بحجج اللَّه، وتنبيهي إياكم على ذلك. ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يقول: إن كان شقّ عليكم مقامي بين أظهركم وتذكيري بآيات اللَّه فعزمتم على قتلي أو طردي من بين أظهركم، فعلى اللَّه اتكالي وبه ثقتي وهو سندي وظهري. ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ يقول: فأعدّوا أمركم واعزموا على ما تقدمون عليه في أمري. . .

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ يقول: ثم لا يكن أمركم عليكم ملتبسا مشكلًا مبهمًا. . .

واختلف أهل المعرفة بكلام العرب في معنى قوله: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ﴾ فقال بعضهم: معناه: امضوا إليّ، كما يقال: قد قضى فلان، يراد: قد مات ومضى.

وقال آخرون منهم: بل معناه: ثم افرغوا إليّ، وقالوا: القضاء: الفراغ، والقضاء من ذلك. قالوا: وكأن قضى ديْنه من ذلك إنما هو فرغ منه. . .

وقوله: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ يقول: ولا تؤخرون. . وإنما هذا خبر من اللَّه -تعالى ذكره- عن قول نبيه نوح ﷺ لقومه: إنه بنصرة اللَّه له عليهم واثق، ومن كيدهم وتواثقهم غير خائف، وإعلام منه لهم أن آلهتهم لا تضرّ ولا تنفع، يقول لهم: امضوا ما تحدّثون أنفسكم به فيّ على عزم منكم صحيح، واستعينوا من شايعكم علي بآلهتكم التي تدعون من دون اللَّه، ولا تؤخروا ذلك، فإني قد توكلت على اللَّه، وأنا به واثق أنكم لا تضرّوني إلا أن يشاء ربي. وهذا وإن كان خبرا من اللَّه تعالى عن نوح؛ فإنه حثّ من اللَّه لنبيه محمد ﷺ على التأسّي به، وتعريف منه سبيل الرشاد فيما قلده من الرسالة والبلاغ عنه»[1].

* * *

(١) جامع البيان (١١/ ١٤١-١٤٣).

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل نبيه نوح ﷺ لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أيها القوم عني بعد دعائي إياكم وتبليغ رسالة ربي إليكم مدبرين، فأعرضتم عما دعوتكم إليه من الحقّ والإقرار بتوحيد اللَّه وإخلاص العبادة له، وترك إشراك الآلهة في عبادته، فتضييع منكم وتفريط في واجب حقّ اللَّه عليكم، لا بسبب من قِبَلي، فإني لم أسألكم على ما دعوتكم إليه أجرا ولا عوضا أعتاضه منكم بإجابتكم إياي إلى ما دعوتكم إليه من الحقّ والهُدى، ولا طلبت منكم عليه ثوابا ولا جزاء. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ يقول -جل ثناؤه-: إن جزائي وأجر عملي وثوابه إلا على ربي لا عليكم أيها القوم ولا على غيركم. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرني ربي أن أكون من المذعنين له بالطاعة، المنقادين لأمره ونهيه، المذللين له، ومن أجل ذلك أدعوكم إليه، وبأمره آمركم بترك عبادة الأوثان»[١].

قال ابن كثير: «﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله ﷻ، والإسلام هو دين جميع الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٢] قال ابن عباس: سبيلا وسنة. فهذا نوح يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٣] وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[٤] وقال

(١) جامع البيان (١١/ ١٤٤).
(٢) المائدة: الآية (٤٨).
(٣) البقرة: الآيتان (١٣١و١٣٢).
(٤) يوسف: الآية (١٠١).

موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾(١) وقالت السحرة: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾(٢) وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾(٤) وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(٥) وقال خاتم الرسل، وسيد البشر، ﷺ: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٦) أي: من هذه الأمة»(٧).

* * *

(١) يونس: الآية (٨٤).

(٢) الأعراف: الآية (١٢٦).

(٣) النمل: الآية (٤٤).

(٤) المائدة: الآية (٤٤).

(٥) المائدة: الآية (١١١).

(٦) الأنعام: الآيتان (١٦٢و١٦٣).

(٧) تفسير القرآن (٤/ ٢٨٣-٢٨٤).

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فكذّب نوحًا قومه فيما أخبرهم به عن اللَّه من الرسالة والوحي، فنجيناه ومن معه ممن حمل معه في الفلك، يعني في السفينة، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ يقول: وجعلنا الذين نجينا مع نوح في السفينة خلائف في الأرض من قومه الذين كذّبوه بعد أن أغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا، يعني حججنا وأدلتنا على توحيدنا، ورسالة رسولنا نوح. يقول اللَّه لنبيه محمد ﷺ: فانظر يا محمد كيف كان عاقبة المنذرين، وهم الذين أنذرهم نوح عقاب اللَّه على تكذيبهم إياه، وعبادتهم الأصنام، يقول له -جل ثناؤه-: انظر ماذا أعقبهم تكذيبهم رسولهم، فإن عاقبة من كذّبك من قومك إن تمادوا في كفرهم وطغيانهم على ربهم نحو الذي كان من عاقبة قوم نوح حين كذّبوه، يقول -جل ثناؤه-: فليحذروا أن يحلّ بهم مثل الذي حلّ بهم إن لم يتوبوا»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر نوح عليه السلام وقصته مع قومه، وأن الإسلام دين جميع الأنبياء وإن اختلفت شرائعهم

* عن ابن عمر رضي الله عنهما: قام رسول اللَّه ﷺ في الناس فأثنى على اللَّه بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: «**إني لأُنذركموه، وما من نبي إلا أنذره قومه، لقد أنذر نوح قومه، ولكني أقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور، وأن اللَّه ليس بأعور**»[2].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ألا أحدثكم حديثا عن**

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٤٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٤٩)، والبخاري (٦/ ٤٥٧/ ٣٣٣٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٤٥/ ١٦٩).

الدجال ما حدث به نبيٌّ قومه: إنه أعور، وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار، فالتي يقول إنها الجنة هي النار، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه»[١].

* عن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يجيء نوح وأمته، فيقول اللّه تعالى: هل بلّغت؟ فيقول: نعم أي رب. فيقول لأمّته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا؛ ما جاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهدُ لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهد أنه قد بلّغ، وهو قوله -جل ذكره-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[٢] والوسط العدل»[٣].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في دعوة، فرفعت إليه الذراع -وكانت تعجبه- فنهس منها نهسة وقال: «أنا سيد الناس يوم القيامة. هل تدرون بمن يجمع اللّه الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر، ويسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس، فيقول بعض الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه، إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس: أبوكم آدم: فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك اللّه بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة. ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول: ربي غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيت. نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك اللّه عبدا شكورا. أما ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله. نفسي نفسي، ائتوا النبي ﷺ. فيأتوني، فأسجد تحت العرش، فيقال: يا محمد! ارفع

---

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٤٥٧/ ٣٣٣٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٥٠/ ٢٩٣٦).

(٢) البقرة: الآية (١٤٣).

(٣) أخرجه: البخاري (٦/ ٤٥٧/ ٣٣٣٩)، والترمذي (٥/ ١٩٠-١٩١/ ٢٩٦١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٢/ ٤٢٨٥). وأخرجه دون ذكر نوح ﷺ النسائي في الكبرى (٦/ ٢٩٢/ ١١٠٠٧).

رأسك، واشفع تشفّع، وسل تعطه». قال محمد بن عبيد: لا أحفظ سائره[١].

⋆ **فوائد الأحاديث:**

ترجم البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه الأحاديث في كتاب أحاديث الأنبياء من صحيحه: بقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الآية. ثم ساق هذه الأحاديث، وغرضه منها ذكر نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقصته مع قومه.

قوله: «إني لأنذركم الدجال»

قال القرطبي: «إنما كان هذا من الأنبياء لِما علموا من عظيم فتنته، وشدّة محنته؛ ولأنهم لما لم يعيَّن لواحد منهم زمان خروجه، توقّع كلٌّ واحد منهم خروجه في زمان أمّته، فبالغ في التحذير. وفائدة هذا الإنذار الإيمان بوجوده، والعزم على معاداته ومخالفته، وإظهار تكذيبه، وصدق الالتجاء إلى اللّه تعالى في التعوذ من فتنته»[٢].

قوله في حديث الشفاعة: «فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض..»

قال الحافظ: «فأما كونه أول الرسل؛ فقد استشكل بأن آدم كان نبيًا، وبالضرورة تعلم أنه كان على شريعة من العبادة، وأن أولاده أخذوا ذلك عنه، فعلى هذا فهو رسول إليهم، فيكون هو أول رسول. فيحتمل أن تكون الأولية في قول أهل الموقف لنوح مقيدة بقولهم إلى أهل الأرض، لأنه في زمان آدم لم يكن للأرض أهل، أو لأن رسالة آدم إلى بنيه كانت كالتربية للأولاد، ويحتمل أن يكون المراد أنه رسول أرسل إلى بنيه وغيرهم من الأمم الذين أرسل إليهم مع تفرقهم في عدة بلاد، وآدم إنما أرسل إلى بنيه فقط وكانوا مجتمعين في بلدة واحدة. واستشكله بعضهم بإدريس ولا يَرِد؛ لأنه اختلف في كونه جدّ نوح كما تقدم»[٣].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٥)، والبخاري (٦/ ٤٥٧-٤٥٨/ ٣٣٤٠)، ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٦/ ١٩٤)، والترمذي (٤/ ٥٣٧-٥٣٩/ ٢٤٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٨-٣٧٩/ ١١٢٨٦)، وابن ماجه مختصرًا (٢/ ١٠٩٩/ ٣٣٠٧).

(٢) المفهم (٧/ ٢٦٧).

(٣) الفتح (٦/ ٤٠٩).

* عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلاّت أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «ودينهم واحد» وهو الإسلام، وهذا الطرف من الحديث مطابق لقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ووجه المطابقة أن الإسلام "وهو عبادة الله وحده لا شريك له؛ دين جميع الأنبياء وإن تنوعت شرائعهم، وذلك معنى قوله: «أولاد علات» وهم الإخوة من أمهات شتى والأب واحد»[٢].

قال الحافظ: «معنى الحديث أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع»[٣].

تنبيه: قد تقدم الحديث والكلام عليه عند قوله تعالى من سورة (المائدة): ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٤].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٩)، والبخاري (٦/ ٥٩٠-٥٩١/ ٣٤٤٣)، ومسلم (٤/ ١٨٣٧/ ٢٣٦٥)، وأبو داود (٥/ ٥٥/ ٤٦٧٥)، من طرق عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٨٤).

(٣) الفتح (٦/ ٦٠٥).

(٤) الآية (٤٨).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ثم بعثنا من بعد نوح رسلًا إلى قومهم، فأتوهم ببينات من الحجج والأدلة على صدقهم، وأنهم لله رسل، وأن ما يدعونهم إليه حقّ؛ ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ يقول: فما كانوا ليصدّقوا بما جاءتهم به رسلهم بما كذّب به قوم نوح ومن قبلهم من الأمم الخالية من قبلهم. ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: كما طبعنا على قلوب أولئك فختمنا عليها فلم يكونوا يقبلون من أنبياء اللَّه نصيحتهم، ولا يستجيبون لدعائهم إياهم إلى ربهم بما اجترموا من الذنوب، واكتسبوا من الآثام؛ كذلك نطبع على قلوب من اعتدى على ربه، فتجاوز ما أمره به من توحيده، وخالف ما دعاهم إليه رسلهم من طاعته، عقوبة لهم على معصيتهم ربهم من هؤلاء الآخرين من بعدهم»[١].

قال ابن كثير: «والمراد أن اللَّه تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى من آمن بهم، وذلك من بعد نوح عليه السلام؛ فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث اللَّه إليهم نوحا عليه السلام، ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه اللَّه إلى أهل الأرض. وقال ابن عباس: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام)[٢] وقال اللَّه تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾[٣] وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين؛ فإنه إذا

(١) جامع البيان (١١/ ١٤٥).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة (البقرة): الآية (٢١٣).

(٣) الإسراء: الآية (١٧).

كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره اللَّه تعالى من العذاب والنكال؛ فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك»[١].

قال ابن عاشور: «وفي الآية إشارة إلى أن نوحًا أول الرسل»[٢].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٤٤).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلناهم من بعد نوح إلى قومهم ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ابني عمران ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ مصر ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ يعني: وأشراف قومه وسادتهم، ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يقول: بأدلتنا على حقيقة ما دعوهم إليه من الإذعان لله بالعبودة، والإقرار لهما بالرسالة. ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، يقول: فاستكبروا عن الإقرار بما دعاهم إليه موسى وهارون، ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، يعني: آثمين بربهم بكفرهم بالله تعالى»[1].

* * *

(١) جامع البيان (١١/ ١٤٥).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ يعني: فلما جاءهم بيان ما دعاهم إليه موسى وهارون، وذلك الحجج التي جاءهم بها، وهي الحقّ الذي جاءهم من عند اللَّه ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يعنون: أنه يبين لمن رآه وعاينه أنه سحر لا حقيقة له. قال موسَى لهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾من عند الله: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ ؟..

وقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾يقول: ولا ينجح الساحرون ولا يبقون»[1].

قال ابن كثير: «وكثيرا ما يذكر اللَّه تعالى قصة موسى ﷺ مع فرعون في كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص؛ فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر، فسخره القدر أن ربى هذا الذي يحذر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد، ثم ترعرع، وعقد اللَّه له سببا أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى اللَّه تعالى ليعبده ويرجع إليه، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة اللَّه تعالى وليس له وزير سوى أخيه هارون ﷺ، فتمرد فرعون واستكبر، وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وقوى رأسه، وتولى بركنه، وادعى ما ليس له، وتجهرم على اللَّه، وعتا وبغى، وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، واللَّه تعالى يحفظ رسوله موسى ﷺ وأخاه هارون ويحوطهما بعنايته، ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل المحاجة والمجادلة

(١) جامع البيان (١١/ ١٤٥-١٤٦).

والآيات تقوم على يد موسى شيئا بعد شيء، ومرة بعد مرة، مما يبهر العقول، ويدهش الألباب، مما لا يقوم له شيء، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من اللَّه، وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها، وصمّم فرعون وملؤه قبحهم اللَّه على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة حتى أحل اللَّه بهم بأسه الذي لا يردّ، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(١)]»[(٢)].

* * *

(١) الأنعام: الآية (٤٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٨٥-٢٨٦).

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ۝٧٨﴾

★ **غريب الآية:**

لتلفتنا: أي لتصرفنا وتحرّفنا، يقال: لفته يلفته لفتًا فالتفت إذا صرفه عن مراده.

الكبرياء: العظمة والملك والسلطان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال فرعون وملؤه لموسى: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾ يقول: لتصرفنا وتلوينا، ﴿عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ من قبل مجيئك من الدين... وقوله: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني العظمة... وقوله: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ يقول: وما نحن لكما يا موسى وهارون بمؤمنين، يعني بمقرّين بأنكما رسولان أرسلتما إلينا»[1].

قال أبو السعود: «قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾ الآية. مسوق لبيان أنه ﷺ ألقمهم الحجر، فانقطعوا عن الإتيان بكلام له تعلق بكلامه ﷺ، فضلا عن الجواب الصحيح، واضطروا إلى التشبث بذيل التقليد الذي هو دأب كل عاجز محجوج، وديدن كل معاند لجوج»[2].

قال الشوكاني: «وفي هذا ما يدل على أنهم انقطعوا عن الدليل، وعجزوا عن إبراز الحجة، ولم يجدوا ما يجيبون به عما أورده عليهم، بل لجأوا إلى ما يلجأ إليه أهل الجهل والبلادة، وهو الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من الكفر، وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم، وغاية مطلبهم، وسبب مكابرتهم للحق، وجحودهم للآيات

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٤٦-١٤٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٦٩).

البينة؛ وهو الرياسة الدنيوية التي خافوا عليها، وظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا، وكم بقي على الباطل -وهو يعلم أنه باطل- بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم في سابق الدهر ولاحقه، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر، ومنهم من حبسه عن الخروج إلى السنة من البدعة، وإلى الرواية الصحيحة من الرأي البحت..

والحاصل أنهم عللوا عدم قبولهم دعوة موسى بأمرين: التمسك بالتقليد للآباء. والحرص على الرياسة الدنيوية؛ لأنهم إذا أجابوا النبي وصدقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه، ولم يبق للملِك رياسة تامة، لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات»[1].

* * *

(١) فتح القدير (٢/ ٦٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨٢﴾

★ **غريب الآية:**

سيبطله: أي: سيفسده ويزيله، وأصل الباطل الشيء الزائل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ذكر اللَّه سبحانه قصة السحرة مع موسى ﷺ في سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك، وفي هذه السورة وفي سورة طه وفي الشعراء، وذلك أن فرعون لعنه اللَّه أراد أن يتهرج على الناس، ويعارض ما جاء به موسى ﷺ من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعبذين، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له من ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام، ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[1] فظن فرعون أنه يستنصر بالسّحار، على رسول عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة واستوجب النار. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصْطفّوا وقد وُعِدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل؛ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾[2] فأراد موسى أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم، ولهذا لما ﴿أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ

---

(١) الشعراء: الآيات (٤٦-٤٨).

(٢) طه: الآيتان (٦٥-٦٦).

عَظِيمٍ﴾[(١)] ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[(٢)] فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ »[(٣)].

قال ابن عاشور: «وقد طُوي ذكر صورة سحرهم في هذه الآية؛ لأن الغرض من العبرة في هذه الآية وصف إصرار فرعون وملإه على الإعراض عن الدعوة، وما لقيه المستضعفون الذين آمنوا بموسى ﷺ من اعتلاء فرعون عليهم، وكيف نصر اللَّه رسوله والمستضعفين معه، وكيف كانت لهم العاقبة الحسنى، ولمن كفروا عاقبة السوء، ليكونوا مثلًا للمكذبين بمحمد ﷺ، ولذلك لم يعرّج بالذكر إلا على مقالة موسى ﷺ -حين رأى سحرهم- الدالة على يقينه بربه ووعده، وبأن العاقبة للحق، وذلك أهم في هذا المقام من ذكر اندحاض سحرهم تجاه معجزة موسى ﷺ»[(٤)].

قال الشنقيطي: «ذكر تعالى عن موسى في هذه الآية، أنه قال: إن اللَّه سيبطل سحر سحرة فرعون. وصرح في مواضع أخر بأن ذلك الذي قال موسى إنه سيقع، من إبطال اللَّه لسحرهم؛ أنه وقع بالفعل، كقوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾[(٥)] ونحوها من الآيات»[(٦)].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

قال صديق حسن خان: «أي: عمل هذا الجنس، فيشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد، ويدخل فيه السحر والسحرة دخولًا أوليًا»[(٧)].

قال ابن عاشور: «إنما كان السحرة مفسدين؛ لأن قصدهم تضليل عقول الناس ليكونوا مسخرين لهم، ولا يعلموا أسباب الأشياء، فيبقوا آلة فيما تأمرهم السحرة، ولا يهتدوا إلى إصلاح أنفسهم سبيلًا. أما السحرة الذين خاطبهم موسى ﷺ

(١) الأعراف: الآية (١١٦).
(٢) طه: الآيات (٦٧-٦٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٨٦-٢٨٧).
(٤) التحرير والتنوير (١١/ ٢٥٥).
(٥) الأعراف: الآيتان (١١٨و١١٩).
(٦) أضواء البيان (٢/ ١٦١).
(٧) فتح البيان (٦/ ١٠٧).

فإفسادهم أظهر؛ لأنهم يحاولون إبطال دعوة الحق والدين القويم، وترويج الشرك والضلالات»[1].

قال صديق حسن خان: «وقوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ يبينه ويوضحه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ التي أنزلها في كتبه على أنبيائه، لاشتمالها على الحجج والبراهين. أو بوعده الصادق لموسى أنه يظهره وبما سبق من قضائه وقدره لموسى أنه يغلب السحرة. أو بأوامره وأحكامه. والأول أولى»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن إضاعة المال من الإفساد المنهي عنه

* عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **«إن اللَّه حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»**[3].

★ غريب الحديث:

وأد: بفتح الواو وسكون الهمزة دَفْن.

هات: بالبناء على الكسر فِعل أمر من الإيتاء.

★ فوائد الحديث:

بوب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا الحديث في كتاب الاستقراض من صحيحه بقوله: 'باب ما ينهى عن إضاعة المال' ثم ساق قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الآية. وغيرها مما في معناها. والشاهد من الحديث هو قوله: «وإضاعة المال»[4]؛ فإنه يدخل في عموم الإفساد المنهي عنه في الآية والحديث.

قال الحافظ: «والمقصود من إيراد هذا الحديث هنا قوله فيه: «وإضاعة المال» وقد قال الجمهور: إن المراد به السرف في إنفاقه، وعن سعيد بن جبير:

---

(١) التحرير (١١/ ٢٥٧).

(٢) فتح البيان (٦/ ١٠٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤٦)، والبخاري (٥/ ٨٦/ ٢٤٠٨)، ومسلم (٣/ ١٣٤١/ ٥٩٣).

(٤) انظر عمدة القاري (٩/ ١٣٠).

إنفاقه في الحرام»[١].

قال الطيبي: «إضاعة المال: هو إنفاقه في غير طاعة اللَّه تعالى والسرف. . قيل: والتقسيم الحاصل فيه، الحاوي لجميع الأقسام أن تقول: إن الذي يُصرف إليه المال إما أن يكون واجبًا كالنفقة والزكاة ونحوهما؛ فهذا لا ضياع فيه، وهكذا إن كان مندوبًا إليه. وإما أن يكون حرامًا أو مكروها، وهذا قليله وكثيره إضاعة وسرف. وإما أن يكون مباحًا ولا إشكال إلا في هذا القسم، إذ كثير من الأمور يعده بعض الناس من المباحات، وعند التحقيق ليس كذلك، كتشييد الأبنية وتزيينها، والإسراف في النفقة، والتوسع في لبس الثياب الناعمة، والأطعمة الشهية اللذيذة، وأنت تعلم أن الفسق وغلظة الطبع يتولد من لبس الرقاق، وأكل الرقاق، ويدخل فيه تمويه الأواني والسقوف بالذهب والفضة، وسوء القيام على ما يملكه من الرقيق والدواب حتى تضيع فتهلك، وقسمة ما لا ينتفع الشريك به، كاللؤلؤة والسيف يكسران. وكذا احتمال الغبن الفاحش في البياعات، وإيتاء المال صاحبه وهو سفيه حقيق بالحجْر»[٢].

* * *

(١) الفتح (٥/ ٨٧-٨٨).

(٢) شرح الطيبي (١٠/ ٣١٥٨).

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

★ غريب الآية:

ذرية: أصل إطلاق الذرية على الصغار، والمعنى إلا جماعة من قومه.

يفتنهم: يختبرهم ويمتحنهم بما يظهر باطنهم، يقال: فتنتُ الذهب إذا أحرقته بالنار ليخلص مما يشوبه.

عال: طاغ متكبر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «لما ذكر اللَّه ﷻ ما أتى به موسى ﵇ من المعجزات العظيمة الباهرة، أخبر اللَّه ﷻ أنه مع مشاهدة هذه المعجزات ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه. وإنما ذكر اللَّه ﷻ هذا تسلية لنبيه محمد ﷺ؛ لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان قومه، وكان يغتم بسبب إعراضهم عن الإيمان به، واستمرارهم على الكفر والتكذيب، فبين اللَّه ﷻ أن له أسوة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لأن الذي جاء به موسى ﵇ من المعجزات كان أمرًا عظيمًا، ومع ذلك فما آمن معه إلا ذرية، و(الذرية) اسم يقع على القليل من القوم»[(١)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فلم يؤمن لموسى مع ما أتاهم به من الحجج والأدلة إلا ذرية من قومه خائفين من فرعون وملئهم.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى الذرّية في هذا الموضع، فقال بعضهم: الذرية

---

(١) لباب التأويل (٢/ ٣٠٩).

في هذا الموضع: القليل...

وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ من أرسل إليه موسى من بني إسرائيل لطول الزمان لأن الآباء ماتوا وبقي الأبناء، فقيل لهم ذرّية، لأنهم كانوا ذرية من هلك ممن أرسل إليهم موسى عليه السلام...

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ من قوم فرعون...

وأولى هذه الأقوال عندي بتأويل الآية القول الذي ذكرته عن مجاهد، وهو أن الذرية في هذا الموضع أريد بها ذرية من أرسل إليه موسى من بني إسرائيل، فهلكوا قبل أن يقرّوا بنبوّته لطول الزمان، فأدركت ذرّيتهم فآمن منهم من ذكر اللّه بموسى.

وإنما قلت هذا القول أولى بالصواب في ذلك لأنه لم يجر في هذه الآية ذكر لغير موسى، فلأن تكون الهاء في قوله «من قومه» من ذكر موسى لقربهم من ذكره، أولى من أن تكون من ذكر فرعون لبُعد ذكره منها، إذ لم يكن بخلاف ذلك دليل من خبر ولا نظر.

وبعد، فإن في قوله: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ الدليل الواضح على أن الهاء في قوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾من ذكر موسى لا من ذكر فرعون؛ لأنها لو كانت من ذكر فرعون لكان الكلام: (على خوف منه)، ولم يكن ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾.

وأما قوله: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾فإنه يعني على حال خوف ممن آمن من ذرّية قوم موسى بموسى.

فتأويل الكلام: فما آمن لموسى إلا ذرّية من قومه من بني إسرائيل وهم خائفون من فرعون وملئهم أن يفتنوهم...

وأما قوله: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ فإن الملأ: الأشراف. وتأويل الكلام: على خوف من فرعون ومن أشرافهم»[١].

* * *

(١) جامع البيان (١١/ ١٤٩-١٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي: فإن الله كاف من توكل عليه ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[1] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[2] وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل كقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[3] ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾[4] ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[5] وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[6] وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تظفرهم بنا، وتسلطهم علينا، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك...

وقوله: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الذين كفروا الحق وستروه ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك»[7].

وقال صديق حسن خان: «ولما قدموا التضرع إلى الله سبحانه أن يصون دينهم عن

---

(١) الزمر: الآية (٣٦).

(٢) الطلاق: الآية (٣).

(٣) هود: الآية (١٢٣).

(٤) الملك: الآية (٢٩).

(٥) المزمل: الآية (٩).

(٦) الفاتحة: الآية (٥).

(٧) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٨٨).

الفساد؛ أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم فقالوا: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: من أيديهم. وفي هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم»[1].

قال الخازن: «ودلت الآية على أن التوكل على اللَّه والتفويض لأمره من كمال الإيمان، وأن من كان يؤمن باللَّه فلا يتوكل إلا على اللَّه لا على غيره»[2].

* * *

(١) فتح البيان (٦/ ١٠٩).

(٢) لباب التأويل (٢/ ١٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

★غريب الآية:

تبوّءا: أي: اتّخِذا، يقال: تبوء لنفسه بيتًا إذا اتخذه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ أن اتخذا لقومكما بمصر بيوتا، يقال منه: تبوأ فلان لنفسه بيتا: إذا اتخذه.. ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾يقول: واجعلوا بيوتكم مساجد تصلون فيها.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾فقال بعضهم في ذلك نحو الذي قلنا فيه...

وقال آخرون: معنى ذلك: واجعلوا مساجدكم قبل الكعبة...

وقال آخرون: معنى ذلك: واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضًا...

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب القول الذي قدمنا بيانه وذلك أن الأغلب من معاني البيوت وإن كانت المساجد بيوتا، البيوت المسكونة إذا ذكرت باسمها المطلق دون المساجد؛ لأن المساجد لها اسم هي به معروفة خاصّ لها، وذلك المساجد. فأما البيوت المطلقة بغير وصلها بشيء ولا إضافتها إلى شيء؛ فالبيوت المسكونة، وكذلك القبلة الأغلب من استعمال الناس إياها في قِبَل المساجد وللصلوات. فإذا كان ذلك كذلك، وكان غير جائز توجيه معاني كلام اللَّه إلا إلى الأغلب من وجوهها المستعمل بين أهل اللسان الذي نزل به دون الخفي المجهول ما لم تأت دلالة تدلّ على غير ذلك، ولم يكن على قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾دلالة تقطع العذر بأن معناه غير الظاهر المستعمل في كلام العرب؛ لم يجز

لنا توجيهه إلى غير الظاهر الذي وصفنا . وكذلك القول في قوله : ﴿قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ يقول -تعالى ذكره- : وأدّوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها . وقوله : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول -جل ثناؤه- لنبيه عليه الصلاة والسلام : وبشر مقيمي الصلاة ، المطيعي الله ، -يا محمد- المؤمنين بالثواب الجزيل منه»[١] .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الفزع إلى الصلاة عند اشتداد البلاء

* عن حذيفة قال : «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلّى»[٢] .

★ فوائد الحديث:

وجه إيراد هذا الحديث في تفسير الآية : بيان أن الحالة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن عند اشتداد البلاء الفزع إلى الصلاة والإكثار منها ، لذلك كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر ، أي : نزل به أمر شديد؛ صلى ، "تسهيلا للأمر ، وامتثالا للأمر الذي في قوله تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ﴾[٣] أي : الصبر على البلايا والالتجاء إلى الصلاة»[٤] .

وكذلك كان بنو إسرائيل لما اشتد بهم البلاء أُمروا بالإكثار من الصلاة . قال ابن كثير بعدما حكى قول إبراهيم النخعي في قوله تعالى : ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم . قال : «وكأن هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قِبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم؛ أُمروا بكثرة الصلاة ، كما قال تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ﴾ »[٥] .

* * *

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٥٥-١٥٦).

(٢) أخرجه : أحمد (٥/ ٣٨٨)، وأبو داود (٢/ ٧٨/ ١٣١٩) وحسن إسناده الألباني . انظر صحيح سنن أبي داود (١٢٩٢).

(٣) البقرة: الآية (٤٥).

(٤) المرقاة (٣/ ٤١٠).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾

★ غريب الآية:

اطمس: الطمس محو الأثر؛ يقال: طمست الريح الآثار: إذا محتها.

والمعنى: أهلِكها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال موسى: يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم وهم الملأ، زينة من متاع الدنيا وأثاثها، وأموالًا من أعيان الذهب والفضة في الحياة الدنيا ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ يقول موسى لربه: ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من ذلك ليضلوا عن سبيلك عبادك عقوبة منك. . . وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ هذا دعاء من موسى، دعا اللّه على فرعون وملئه أن يغير أموالهم عن هيئتها، ويبدّلها إلى غير الحال التي هي بها، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾[1] يعني به من قبل أن نغيرها عن هيئتها التي هي بها. وأما قوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فإنه يعني: واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح بالإيمان. . .

وأما قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ فإن معناه: فلا يصدّقوا بتوحيد اللّه ويقروا بوحدانيته حتى يروا العذاب الموجع»[2].

قال ابن كثير: «وهذه الدعوة كانت من موسى ﷺ غضبا لله ولدينه على فرعون

(١) النساء: الآية (٤٧).

(٢) جامع البيان (١١/ ١٥٦-١٥٩).

وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء، كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1] ولهذا استجاب اللَّه تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أمن عليها أخوه هارون فقال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾»[2].

* * *

(١) نوح: الآيتان (٢٦و٢٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٩٠-٢٩١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من اللَّه عن إجابته لموسى ﷺ وهارون دعاءهما على فرعون وأشراف قومه وأموالهم. يقول -جل ثناؤه- قَالَ اللَّه لهما ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ في فرعون وملئه وأموالهم.

فإن قال قائل: وكيف نسبت الإجابة إلى اثنين والدعاء إنما كان من واحد؟ قيل: إن الداعي وإن كان واحدا فإن الثاني كان مؤمّنا وهو هارون، فلذلك نسبت الإجابة إليهما، لأن المؤمّن داعٍ...

وأما قوله: ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ فإنه أمر من اللَّه تعالى لموسى وهارون بالاستقامة والثبات على أمرهما من دعاء فرعون وقومه إلى الإجابة إلى توحيد اللَّه وطاعته، إلى أن يأتيهم عقاب اللَّه الذي أخبرهما أنه أجابهما فيه...

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: ولا تسلكان طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي، فتستعجلان قضائي، فإن وعدي لا خالف له، وإن وعيدي نازل بفرعون، وعذابي واقع به وبقومه»[1].

قال ابن كثير: «وقد يحتج بهذه الآية من يقول: إن تأمين المأموم على قراءة (الفاتحة) ينزل منزلة قراءتها؛ لأن موسى دعا وهارون أمّن»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١١/ ١٦٠-١٦٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٩١).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

★ **غريب الآية:**

جاوزنا: تعدّينا وعبرنا، يقال: جُزت البلد، أي: تعدّيته.

عدوًا: أي: ظلمًا وتجاوزًا.

ننجّيك: أي: نلقيك على نجوة من الأرض ليراك الناس، فيعرفونك، والنجوة الأرض المرتفعة عما حولها من الأمكنة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقطعنا ببني إسرائيل البحر حتى جاوزوه. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ يقول: فتبعهم فرعون ﴿وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا﴾ على موسى وهارون ومن معهما من قومهما من بني إسرائيل. ﴿وَعَدْوًا﴾ يقول: واعتداء عليهم.. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ يقول: حتى إذا أحاط به الغرق..

وقوله: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل فرعون حين أشرف على الغرق وأيقن بالهلكة: آمنت يقول: أقررت، أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل..

وقوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

يقول -تعالى ذكره- معرّفا فرعون قُبحَ صنيعه أيام حياته، وإساءته إلى نفسه أيام صحته، بتماديه في طغيانه، ومعصيته ربه حين فزع إليه في حال حلول سخطه به

ونزول عقابه، مستجيرا به من عذابه الواقع به لما ناداه وقد علته أمواج البحر وغشيته كُرَب الموت: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ له، المنقادين بالذلة له، المعترفين بالعبودية: الآن تُقرّ لله بالعبودية، وتستسلم له بالذلة، وتخلص له الألوهة، وقد عصيته قبل نزول نقمته بك فأسخطته على نفسك، وكنت من المفسدين في الأرض الصّادّين عن سبيله؟ فهلاّ وأنت في مهل، وباب التوبة لك منفتح؛ أقررت بما أنت به الآن مقرّ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يقول -تعالى ذكره- لفرعون: فاليوم نجعلك على نجوة من الأرض ببدنك، ينظر إليك هالكا من كذّب بهلاكك. ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ يقول: لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك، فينزجرون عن معصية اللّه والكفر به والسعي في أرضه بالفساد...

وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وإن كثيرا من النّاس عن آياتنا يعني: عن حججنا وأدلتنا على أن العبادة والألوهة لنا خالصة، لغافلون يقول: لساهون، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحديد اليوم الذي أنجى اللّه فيه موسى وأهلك فيه فرعون، وأن إيمان فرعون غير مقبول لأنه في حال الفرغرة

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم النبي ﷺ المدينةَ وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسئلوا عن ذلك؟ فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر اللّه فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون، ونحن نصومه تعظيمًا له، فقال رسول اللّه ﷺ: «**نحن أولى بموسى منكم**» فأمر بصومه[٢].

(١) جامع البيان (١١/ ١٦٢-١٦٦).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٣٦)، والبخاري (٧/ ٣٤٩/ ٣٩٤٣)، ومسلم (٢/ ٧٩٥/ ١١٣٠)، وأبو داود (٢/ ٨١٨/ ٢٤٤٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٢/ ١١٢٣٧) وابن ماجه (١/ ٥٥٢/ ١٧٣٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير: «وقد كان إهلاك فرعون وملإه يوم عاشوراء، كما قال البخاري ثم ساق هذا الحديث»(١).

قلت: وقد ترجم له في كتاب التفسير من صحيحه بقوله: باب ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلى قوله ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. ومناسبته للترجمة -يقول الحافظ- قوله في بعض طرقه: «ذلك يوم نجى اللَّه فيه موسى وأغرق فرعون»(٢).

قال القرطبي: «يمكن أن يقال: أذن اللَّه تعالى له في صيامه، فلما قدم المدينة وجد اليهود يصومونه، فسألهم عن الحامل لهم على صومه؟ فقالوا ما ذكره ابن عباس: إنه يوم عظيم، أنجى اللَّه فيه موسى وقومه، وغرّق فرعون وقومه، فصامه موسى شكرًا، فنحن نصومه. فقال النبي ﷺ: «فنحن أحقّ وأولى بموسى منكم» فحينئذ صامه بالمدينة، وأمر بصيامه. أي: أوجب صيامه، وأكّد أمره حتى كانوا يصوّمون الصِّغار، فالتزمه، وألزمه أصحابَه إلى أن فرض شهر رمضان، ونسخ وجوب صوم يوم عاشوراء، فقال إذ ذاك: «إن اللَّه لم يكتب عليكم صيام هذا اليوم»(٣) ثم خيّر في صومه وفِطره، وأبقى عليه الفضيلة بقوله: «وأنا صائم» كما جاء في حديث معاوية. وعلى هذا: فلم يصُم النبي ﷺ عاشوراء اقتداء باليهود؛ فإنه كان يصومه قبل قدومه عليهم، وقبل علمه بحالهم، لكن الذي حدث له عند ذلك إلزامه والتزامه استئلافا لليهود، واستدراجا لهم، كما كانت الحكمة في استقباله قبلتهم، وكان هذا الوقت هو الوقت الذي كان النبي ﷺ يحب فيه موافقة أهل الكتاب فيما لم يُنه عنه»(٤).

وقال ابن بطال: «وليوم عاشوراء فضائل منها: ما ذكر في الحديث أن اللَّه فرق فيه البحر لموسى بن عمران، وغرق فرعون وجنوده»(٥).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٩٤).

(٢) الفتح (٨/ ٤٤٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٩٥)، ومسلم (٢/ ٧٩٥/ ١١٢٩)، والنسائي في الكبرى (٢/ ١٦١-١٦٢/ ٢٨٥٧).

(٤) المفهم (٣/ ١٩١-١٩٢).

(٥) شرح ابن بطال (٤/ ١٤٤).

* عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ذكرَ أحدُهما عن النبي ﷺ: «أنه ذكر أن جبريل جعل يدسّ في فِي فرعون الطين خشية أن يقول: لا إله إلا اللَّه، فيرحمه اللَّه، أو خشية أن يرحمه»[1].

* عن عبداللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه عز وجل ليقبل توبة العبد مالم يُغرغر**»[2].

⋆ فوائد الحديثين:

دل حديث ابن عباس على مثل ما دلت عليه الآية من أن فرعون حيل بينه وبين الإيمان الشرعي، وأن جبريل كان يدس الطين في فيه خشية أن تدركه الرحمة. ودل حديث ابن عمر على أن العبد لا تنفعه التوبة حال الاحتضار والمعاينة. ووجه مطابقته للآية أن فرعون آمن في هذه الحال فلم ينفعه إيمانه، وهذا المعنى قد جاء مصرحًا به في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾[3]، وهذا أمر مقرر في الشرع.

وقد أبدى ابن العربي رحمه اللَّه أوجهًا في عدم قبول توبة فرعون فقال: «فههنا أربعة أوجه: الأول: أن فرعون لم يقبل منه ما قال لأنه عدل عن لفظ: (لا إله إلا الله) وهو لفظ مخصوص بالإيمان لا يجوز غيره، وبه قال الشافعي. الثاني: أنه لم يقل: (موسى رسول الله) ولا ينفع الإيمان باللَّه ما لم يقترن به تصديق رسول اللَّه. الثالثة: أن فرعون لم ينفعه ذلك كله لأنه كان بعد المعاينة، ولا ينفع الإيمان إلا على الغيب حسبما تقرّر في هذا الشرع، وما أعتقد أن فيه خلافًا في ملّة. الرابع: كان جبريل يدسّ في فمه الطين؛ مخافة أن يُتمّها كما يجب، إذ قد قالها وإنما أخر

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤٠)، والترمذي (٥/ ٢٦٨/ ٣١٠٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٣/ ١١٢٣٨). وصححه الحاكم (٢/ ٣٤٠) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، إلا أن أكثر أصحاب شعبة وقفوه على ابن عباس». وابن حبان (١٤/ ٩٧-٩٨/ ٦٢١٥). وفي الباب عن أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٣٢)، والترمذي (٥/ ٥١١/ ٣٥٣٧) وحسنه، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٠/ ٤٢٥٣)، وابن حبان (٢/ ٣٩٤-٣٩٥/ ٦٢٨)، والحاكم (٤/ ٢٥٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) غافر: الآية (٨٥).

القبول أحد المعاني المتقدمة وأصحها هو الثالث، واللَّه أعلم»[١].

وأما دسّ جبريل الطين في فم فرعون فإنه كان بأمر اللَّه فلا اعتراض عليه. وقد أطال الخازن[٢] في جواب ما اعترض به الرازي[٣] وأشكله في هذا الحديث بما يطول ذكره[٤].

وأما قوله في الحديث: «خشية أن يرحمه الله» فقد تجاسر الزمخشري على رده فقال: «وأما ما يضم إليه من قولهم: «خشية أن تدركه رحمة الله»؛ فمن زيادات الباهتين لله وملائكته..»[٥].

ولقد أحسن الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ردّ كلامه حيث قال: «والعجب كل العجب ممن لا علم له بفن الرواية من المفسرين، ولا يكاد يميز بين أصحّ الصحيح من الحديث وأكذب الكذب منه، كيف يتجارى على الكلام في أحاديث الرسول ﷺ، والحكم ببطلان ما صحّ منها، ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحت، والقصور الفاضح، الذي يضحك منه كلّ من له أدنى ممارسة بفن الحديث. فيا مسكين! مالك ولهذا الشأن الذي لست فيه في شيء؟! ألا تستر نفسك وتربع على ضلعك؟! وتعرف بأنك بهذا العلم من أجهل الجاهلين، وتشتغل بما هو علمك الذي لا تجاوزه، وحاصلك الذي ليس لك غيره، وهو علم اللغة وتوابعه من العلوم الآلية.

ولقد صار صاحب الكشاف -عفا اللَّه عنه- بسبب ما يتعرض له في تفسيره من علم الحديث، الذي ليس هو منه في ورد ولا صدر؛ سخرة للساخرين، وعبرة للمعتبرين، فتارة يروي في كتابه الموضوعات، وهو لا يدري أنه منها، وتارة يتعرض لردّ ما صح، ويجزم أنه من الكذب على رسول اللَّه ﷺ والبهت عليه، وقد يكون في الصحيحين وغيرهما مما يلتحق بهما من رواية جماعة من الصحابة،

---

(١) عارضة الأحوذي (١١/ ٢٦٩-٢٧٢).

(٢) لباب التأويل (٢/ ٣١٢-٣١٣).

(٣) مفاتح الغيب (١٧/ ١٦٣).

(٤) انظر فتح البيان (٦/ ١١٧).

(٥) الكشاف (٢/ ٢٥١).

بأسانيد كلها أئمة ثقات، حجج أثبات.

وأدنى نصيب من عقل يحجر صاحبه عن التكلم في علم لا يعلمه ولا يدري به أقل دراية، وإن كان ذلك العلم من علوم الاصطلاح الذي يتواضع عليها طائفة الناس، يصطلحون على أمور فيما بينهم، فما بالك بعلم السنة الذي هو قسم كتاب اللَّه، وقائله رسول اللَّه ﷺ وراويه عنه خير القرون، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وكل حرف من حروفه، وكلمة من كلماته، يثبت بها شرع عام لجميع أهل الإسلام»[1].

* * *

(١) فتح القدير (٢/ ٦٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد أنزلنا بني إسرائيل منازل صدق. قيل: عنى بذلك الشام وبيت المقدس. وقيل: عنى به الشام ومصر.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾يقول: ورزقنا بني إسرائيل من حلال الرزق وهو الطيب»[2].

قال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية: أنه بوأ بني إسرائيل مبوأ صدق، وبيّن ذلك في آيات أخر كقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾[3]، وقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾[4] إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[5] وقوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾[6] إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾[7]»[8].

* * *

(١) الآية (٩٣).
(٢) جامع البيان (١١/ ١٦٦).
(٣) الأعراف: الآية (١٣٧).
(٤) الشعراء: الآيتان (٥٧و٥٨).
(٥) الشعراء: الآية (٥٩).
(٦) الدخان: الآيتان (٢٥و٢٦).
(٧) الآية (٢٨).
(٨) أضواء البيان (٢/ ١٦١).

قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «قوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: ما تفرقوا على مذاهب شتى في أمر دينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة، وهو ما بين أيديهم من الوحي الذي يتلونه، أي: وما كان حقهم أن يختلفوا، وقد بيّن اللّٰه لهم وأزاح عنهم اللبس. ونظير هذه الآية في النعي عليهم اختلافهم قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾[1] وقوله -جل ذكره-: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[2]»[3].

قال ابن القيم: «أخبر سبحانه أن المختلفين بالتأويل لم يختلفوا لخفاء العلم الذي جاءت به الرسل عليهم، وإنما اختلفوا بعد مجيء العلم، وهذا كثير في القرآن كقوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾[4] فهؤلاء المختلفون بالتأويل بعد مجيء الكتاب كلهم مذمومون، والحامل لهم على التفرق والاختلاف البغي وسوء القصد»[5].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ «أي: فيميز المحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك. وفيه أكبر زاجر وأعظم واعظ عن الاختلاف

---

(١) البينة: الآية (٤).

(٢) آل عمران: الآية (١٩).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٧٩) بتصرف يسير.

(٤) البينة: الآية (٤).

(٥) الصواعق المرسلة (٢/ ٥١٣).

في الدين والتفرق فيه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اختلاف أهل الكتاب وتفرقهم بعدما جاءهم العلم

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»**[٢].

★ فوائد الحديث:

وجه مطابقة الحديث للآية بيان اختلاف أهل الكتاب وتفرقهم، وأنهم اختلفوا وتفرقوا في مسائل شتى كالتوحيد والتشريع والنبوات وغيرها، وذلك بعدما أقام اللَّه عليهم الحجج والبينات، اختلفوا في الذي أراده اللَّه من كتبهم، وقد أخبر اللَّه تعالى أن الحامل لهم على هذا الاختلاف هو البغي واتباع الأهواء. وقد بين شيخ الإسلام بعض مظاهر التفرق والاختلاف التي حدثت في أهل الكتاب، حيث قال رحمه الله:

«كانت بنو إسرائيل أمة قاسية عاصية؛ تارة يعبدون الأصنام والأوثان، وتارة يعبدون اللَّه، وتارة يقتلون النبيين بغير الحق، وتارة يستحلون محارم اللَّه بأدنى الحيل، فلُعنوا أولا على لسان داود، وكان من خراب بيت المقدس ما هو معروف عند أهل الملل كلهم. ثم بعث اللَّه المسيح بن مريم رسولا قد خلت من قبله الرسل، وجعله وأمه آية للناس؛ حيث خلقه من غير أب إظهارا لكمال قدرته، وشمول كلمته، حيث قسم النوع الإنساني الأقسام الأربعة: فجعل آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق زوجه حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق المسيح بن مريم من أنثى

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٧٩) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٢)، وأبو داود (٥/ ٤/ ٤٥٩٦)، والترمذي (٥/ ٢٥/ ٢٦٤٠) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣٢١/ ٣٩٩١)، وابن حبان (الإحسان ١٤/ ١٤٠/ ٦٢٤٧)، والحاكم (١/ ١٢٨) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

بلا ذكر، وخلق سائرهم من الزوجين الذكر والأنثى. وآتى عبده المسيح من الآيات البينات ما جرت به سنته، فأحيى الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، وأنبأ الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، ودعا إلى اللّه وإلى عبادته، متبعا سنة إخوانه المرسلين، مصدقا لمن قبله ومبشرا بمن يأتي بعده. وكان بنو إسرائيل قد عتوا وتمردوا، وكان غالب أمره اللين والرحمة، والعفو والصفح، وجعل في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة، وجعل منهم قسيسين ورهبانا، فتفرق الناس في المسيح ﷺ ومن اتبعه من الحواريين ثلاثة أحزاب:

قوم كذبوه وكفروا به وزعموا أنه ابن بغيّ، ورموا أمه بالفرية، ونسبوه إلى يوسف النجار، وزعموا أن شريعة التوراة لم ينسخ منها شيء، وأن اللّه لم ينسخ ما شرعه بعد ما فعلوه بالأنبياء، وما كان عليهم من الآصار في النجاسات والمطاعم.

وقوم غلوا فيه وزعموا أنه اللّه أو ابن اللّه، وأن اللاهوت تدرّع الناسوت، وأن رب العالمين نزل وأنزل ابنه ليصلب ويقتل فداء لخطيئة آدم ﷺ، وجعلوا الإله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد قد ولد واتخذ ولدا، وأنه إله حي عليم قدير؛ جوهر واحد ثلاثة أقانيم، وأن الواحد منها أقنوم الكلمة، وهي العلم، هي تدرعت الناسوت البشري، مع العلم بأن أحدهما لا يمكن انفصاله عن الآخرين إلا إذا جعلوه ثلاثة إلاهات متباينة، وذلك ما لا يقولونه.

وتفرقوا في التثليث والاتحاد تفرقًا، وتشتتوا تشتتًا، لا يقر به عاقل ولم يجئ نقل إلا كلمات متشابهات في الإنجيل وما قبله من الكتب، قد بينتها كلمات محكمات في الإنجيل وما قبله، كلها تنطق بعبودية المسيح وعبادته لله وحده ودعائه وتضرعه. . .

فأرباب التثليث في الوحدانية، والاتحاد في الرسالة؛ قد دخل في أصل دينهم من الفساد ما هو بين بفطرة اللّه التي فطر الناس عليها، وبكتب اللّه التي أنزلها . . .

وأما الرهبان فأحدثوا من أنواع المكر والحيل بالعامة ما يظهر لكل عاقل. . .

ثم إن هؤلاء عمدوا إلى الشريعة التي يعبدون اللّه بها فناقضوا الأولين من اليهود فيها؛ مع أنهم يأمرون بالتمسك بالتوراة إلا ما نسخه المسيح، قصّر هؤلاء في

الأنبياء حتى قتلوهم، وغلا هؤلاء فيهم حتى عبدوهم وعبدوا تماثيلهم. وقال أولئك: إن اللَّه لا يصلح له أن يغير ما أمر به فينسخه، لا في وقت آخر، ولا على لسان نبي آخر. وقال هؤلاء: بل الأحبار والقسيسون يغيرون ما شاءوا، ويحرمون ما رأوا، ومن أذنب ذنبا وضعوا عليه ما رأوا من العبادات وغفروا له، ومنهم من يزعم أنه ينفخ في المرأة من روح القدس فيجعل البخور قربانا. وقال أولئك: حرم علينا أشياء كثيرة. وقال هؤلاء: ما بين البقّة والفيل حلال؛ كل ما شئت، ودع ما شئت. وقال أولئك: النجاسات مغلظة حتى إن الحائض لا يقعد معها، ولا يؤكل معها. وهؤلاء يقولون: ما عليك شيء نجس، ولا يأمرون بختان، ولا غسل من جنابة، ولا إزالة نجاسة، مع أن المسيح والحواريين كانوا على شريعة التوراة، ثم إن الصلاة إلى المشرق لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون، وإنما ابتدعها قسطنطين أو غيره، وكذلك الصليب إنما ابتدعه قسطنطين برأيه، وبمنام زعم أنه رآه. وأما المسيح والحواريون فلم يأمروا بشيء من ذلك.

والدين الذي يتقرب العباد به إلى اللَّه لابد أن يكون اللَّه أمر به، وشرعه على ألسنة رسله وأنبيائه؛ وإلا فالبدع كلها ضلالة، وما عبدت الأوثان إلا بالبدع. وكذلك إدخال الألحان في الصلوات لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون.

وبالجملة فعامة أنواع العبادات والأعياد التي هم عليها لم ينزل بها اللَّه كتابا، ولا بعث بها رسولا، لكن فيهم رأفة ورحمة، وهذا من دين اللَّه. بخلاف الأولين؛ فإن فيهم قسوة ومقتا، وهذا مما حرمه اللَّه تعالى، لكن الأولين لهم تمييز وعقل مع العناد والكبر، والآخرون فيهم ضلال عن الحق وجهل بطريق اللَّه.

ثم إن هاتين الأمتين تفرقتا أحزابا كثيرة في أصل دينهم، واعتقادهم في معبودهم ورسولهم؛ هذا يقول: إن جوهر اللاهوت والناسوت صارا جوهرًا واحدًا، وطبيعةً واحدةً، وأقنومًا واحدًا، وهم اليعقوبية. وهذا يقول: بل هما جوهران وطبيعتان وأقنومان، وهم النسطورية. وهذا يقول بالاتحاد من وجه دون وجه، وهم الملكانية.

وقد آمن جماعات من علماء أهل الكتاب قديمًا وحديثًا، وهاجروا إلى اللَّه

ورسوله، وصنفوا في كتب اللَّه من دلالات نبوة النبي ﷺ خاتم المرسلين، وما في التوراة والزبور والإنجيل من مواضع لم يدّبروها، وكذلك الحواريون، فلما اختلف الأحزاب من بينهم هدى اللَّه الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فبعث النبي الذي بشر به المسيح ومن قبله من الأنبياء، داعيا إلى ملة إبراهيم، ودين المرسلين قبله وبعده، وهو عبادة اللَّه وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله لله، وطهر الأرض من عبادة الأوثان، ونزه الدين عن الشرك دقه وجله، بعد ما كانت الأصنام تعبد في أرض الشام وغيرها، في دولة بني إسرائيل ودولة الذين قالوا: إنا نصارى، وأمر بالإيمان بجميع كتب اللَّه المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وبجميع أنبياء اللَّه من آدم إلى محمد ﷺ»[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٠٦-٦١٢).

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ من قصص موسى وفرعون وبني إسرائيل؛ فاسأل الذين يقرؤون الكتاب، أي: التوراة، من قبلك، فإنه عندهم على نحو ما أوحي إليك، ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشاكين في أنه منزل من عنده»[١].

قال ابن القيم: «وقد أشكلت هذه الآية على كثير من الناس، وأورد اليهود والنصارى على المسلمين فيها إيرادًا، وقالوا: كان في شكّ فأُمر أن يسألنا. وليس فيها بحمد اللَّه إشكال، وإنما أتي أشباه الأنعام من سوء قصدهم وقلة فهمهم، وإلا فالآية من أعلام نبوته ﷺ، وليس في الآية ما يدل على وقوع الشك ولا السؤال أصلا، فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٢]، وقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[٣] وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[٤] وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٥] ونظائره، فرسول اللَّه ﷺ لم يشك ولم يسأل..

وقد ذكر ابن جريج عن ابن عباس ﵄ قال: فإن كنت في شك أنك مكتوب عندهم فاسألهم. وهذا اختيار ابن جرير، قال: يقول تعالى لنبيه: فإن كنت يا محمد في شك من حقيقة ما أخبرناك وأنزلنا إليك من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٨٠). (٢) الأنبياء: الآية (٢٢).
(٣) الإسراء: الآية (٤٢).
(٤) الزخرف: الآية (٨١).
(٥) الزمر: الآية (٦٥).

قبل أن أبعثك رسولًا إلى خلقي لأنهم يجدونك مكتوبًا عندهم، ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتبهم؛ فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، كعبدالله بن سلام ونحوه من أهل الصدق والإيمان بك منهم دون أهل الكذب والكفر بك.

وكذلك قال ابن زيد، قال: هو عبدالله بن سلام، كان من أهل الكتاب فآمن برسول الله ﷺ. وقال الضحاك: سل أهل التقوى والإيمان من مؤمني أهل الكتاب ممن أدرك نبي الله ﷺ.

ولم يقع هؤلاء ولا هؤلاء على معنى الآية ومقصودها، وأين كان عبدالله بن سلام وقت نزول هذه الآية؟! فإن السورة مكية، وابن سلام إذ ذاك على دين قومه، وكيف يؤمر رسول الله ﷺ أن يستشهد على منكري نبوته بأتباعه.

وقال كثير من المفسرين: هذا الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره؛ لأن القرآن نزل عليه بلغة العرب، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره، كما يقول متمثلهم: (إياكِ أعني واسمعي يا جارة)، وكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[1] والمراد أتباعه بهذا الخطاب.

قال أبو إسحاق: إن الله تعالى يخاطب النبي ﷺ والخطاب شامل للخلق، والمعنى: وإن كنتم في شك، والدليل على ذلك قوله تعالى في آخر السورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ﴾[2]. وقال ابن قتيبة: كان الناس في عصر النبي ﷺ أصنافًا؛ منهم كافر به مكذب. وآخر مؤمن به مصدق. وآخر شاك في الأمر لا يدري كيف هو؛ فهو يقدم رجلا ويؤخر رجلا، فخاطب الله تعالى هذا الصنف من الناس، وقال: فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد ﷺ؛ فسَل. قال: ووحّد وهو يريد الجمع، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[3] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[4] ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾[5].

(١) الأحزاب: الآية (١).
(٢) يونس: الآية (١٠٤).
(٣) الانفطار: الآية (٦).
(٤) الانشقاق: الآية (٦).
(٥) الزمر: الآية (٨).

وهذا -وإن كان له وجه- فسياق الكلام يأباه، فتأمله وتأمل قوله تعالى: ﴿يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[2] وهذا كله خطاب واحد، متصل بعضه ببعض، ولما عرف أرباب هذا القول أن الخطاب لا يتوجه إلا على النبي ﷺ قالوا: الخطاب له والمراد به هذا الصنف الشاك، وكل هذا فرار من توهم ما ليس بموهوم، وهو وقوع الشك منه والسؤال، وقد بيّنا أنه لا يلزم إمكان ذلك فضلًا عن وقوعه.

فإن قيل: فإذا لم يكن واقعا ولا ممكنًا؛ فما مقصود الخطاب والمراد به؟ قيل: المقصود به إقامة الحجة على منكري النبوات والتوحيد، وأنهم مقرون بذلك لا يجحدونه ولا ينكرونه، وأن اللَّه سبحانه أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بذلك، وأرسل ملائكته إلى أنبيائه بوحيه وكلامه، فمن شك في ذلك فليسأل أهل الكتاب، فأخرج هذا المعنى في أوجز عبارة وأدلها على المقصود بأن جعل الخطاب لرسوله الذي لم يشك قط، ولم يسأل قط، ولا عرض له ما يقتضي ذلك، وأنت إذا تأملت هذا الخطاب بدا لك على صفحاته: من شكّ فليسأل، فرسولي لم يشك ولم يسأل»[3].

قال القاسمي: «وفي الآية تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلّها بمقادحة العلماء المنبّهين على الحق»[4].

* * *

---

(١) يونس: الآية (٩٦).

(٢) يونس: الآية (٩٩).

(٣) أحكام أهل الذمة (١/ ٩٩-١٠٥).

(٤) محاسن التأويل (٩/ ٨٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٩٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ولا تكوننّ يا محمد من الذين كذّبوا بحجج اللَّه وأدلته، فتكون ممن غُبن حظه وباع رحمة اللَّه ورضاه بسخطه وعقابه»[1].

قال صديق حسن خان: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الظاهر فيه التعريض، ولا سيما بعد تعقيبه بقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. وفي هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ما هو أبلغ وأوقع من النهي لهم أنفسهم؛ لأنه إذا كان ينهى عنه من لا يتصور صدوره عنه، فكيف بمن يمكن منه ذلك»[2].

وقال القاسمي: «وأجرى بعضهم ههنا قاعدة فقال: النهي عن كل شيء إن كان لمن تلبس به فمعناه تركه، وإن كان لغيره فمعناه الثبات على عدمه، وألا يصدر منه في المستقبل كما هنا»[3].

* * *

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٦٩).

(٢) فتح البيان (٦/ ١٢٣-١٢٤).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٨١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الذين وجبت عليهم يا محمد كلمة ربك، وهي لعنته إياهم بقوله: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١] فثبتت عليهم. .

وقوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ لا يصدقون بحجج اللّه، ولا يقرّون بوحدانية ربهم ولا بأنك لله رسول، ولو جاءتهم كل آية وموعظة وعبرة فعاينوها حتى يعاينوا العذاب الأليم، كما لم يؤمن فرعون وملؤه، إذ حقّت عليهم كلمة ربك حتى عاينوا العذاب الأليم، فحينئذ ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[٢] حين لم ينفعه قيله، فكذلك هؤلاء الذين حقت عليهم كلمة ربك من قومك، من عبدة الأوثان وغيرهم، لا يؤمنون بك فيتبعونك إلا في الحين الذي لا ينفعهم إيمانهم»[٣].

قال ابن عطية: «المعنى: أن اللّه أوجب لهم سخطه في الأزل، وخلقهم لعذابه فلا يؤمنون ولو جاءهم كل بيان وكل وضوح إلا في الوقت الذي لا ينفعهم فيه إيمان كما صنع فرعون وأشباهه من الخلق، وذلك وقت المعاينة. وفي ضمن الألفاظ التحذير من هذه الحال، وبعث الكل على المبادرة إلى الإيمان، والفرار من سخط الله»[٤].

وقال الشنقيطي: «صرح تعالى في هذه الآية الكريمة، أن من حقت عليه كلمة

---

(١) هود: الآية (١٨).

(٢) يونس: الآية (٩٠).

(٣) جامع البيان (١١/ ١٦٩-١٧٠).

(٤) المحرر الوجيز (٣/ ١٤٣).

العذاب، وسبقت له في علم اللَّه الشقاوة؛ لا ينفعه وضوح أدلة الحق، وذكر هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[1] وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[3] وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[4] وقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[5]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًّا»[6].

* * *

(١) يونس: الآية (١٠١).

(٢) القمر: الآية (٢).

(٣) الأنعام: الآية (٤).

(٤) يوسف: الآية (١٠٥).

(٥) البقرة: الآية (٦).

(٦) أضواء البيان (٢/ ١٦١-١٦٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1]، ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[2]، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[3] وفي الحديث الصحيح.. (ثم ذكر حديث ابن عباس: «عرضت علي الأمم» الآتي ذكره) ثم قال:

والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس وهم أهل 'نينوى' وما كان إيمانهم إلا خوفا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى اللَّه واستغاثوا به، وتضرعوا لديه واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا اللَّه تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم فعندها رحمهم اللَّه، وكشف عنهم العذاب وأخروا كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ واختلف المفسرون: هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي؟ أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط؟ على قولين:

---

(١) يس: الآية (٣٠).

(٢) الذاريات: الآية (٥٢).

(٣) الزخرف: الآية (٢٣).

أحدهما: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا كما هو مقيد في هذه الآية. والقول الثاني: فيهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[١] فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الأخروي، وهذا هو الظاهر والله أعلم»[٢].

واختلف المفسرون في قوم يونس؛ هل رأوا العذاب عيانًا أو رأوا دليل العذاب؟ على قولين:

القول الأول: أنهم رأوا العذاب عيانًا، فلما آمنوا كشف عنهم وعليه الأكثرون[٣].

قال ابن جرير: «استثنى الله قوم يونس من أهل القرى الذين لم ينفعهم إيمانهم بعد نزول العذاب بساحتهم، وأخرجهم منهم، وأخبر خلقه أنه نفعهم إيمانهم خاصة من بين سائر الأمم غيرهم»[٤]. وإلى هذا القول مال الشنقيطي في أضواء البيان[٥].

القول الثاني: أنهم رأوا دليل العذاب ولم يروا عين العذاب.

قال الزجاج: «وقوم يونس -والله أعلم- لم يقع بهم العذاب، إنما رأوا الآية التي تدل على العذاب، فلما آمنوا كشف عنهم»[٦].

وقال الشوكاني: «وهذا -إشارة إلى قول الزجاج- أولى من قول ابن جرير»[٧].

وقال القرطبي تعليقًا على قول الزجاج: «وهذا قول حسن؛ فإن المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب في قصة فرعون، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على إثر قصة فرعون؛ فإنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك. وقوم يونس تابوا قبل ذلك، ويعضد هذا قوله ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**» والغرغرة

---

(١) الصافات: الآيتان (١٤٧و١٤٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٩٧).
(٣) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (٢/ ٤٠٦).
(٤) جامع البيان (١١/ ١٧٠).
(٥) (٣/ ١٦١).
(٦) معاني القرآن (٣/ ٣٤).
(٧) فتح القدير (٢/ ٦٦٢).

الحشرجة، وذلك هو حال التلبس بالموت، وأما قبل ذلك فلا، والله أعلم»[١].

قال أبو المظفر السمعاني: «والقول الأول أصح، بدليل قوله: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ والكشف إنما يكون بعد وقوع العذاب أو قرب العذاب. فإن قال قائل: كيف قبل إيمانهم عند المعاينة، ولم يقبل إيمان غيرهم، وقد قال في موضع آخر: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[٢] دل على أن الإيمان المقبول هو الإيمان بالغيب؟

الجواب أن قوم يونس استثنوا من هذا الأصل بنص القرآن، والله تعالى يفعل ما يشاء، ولا سؤال عليه فيما يفعل»[٣]. والله أعلم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قلة المستجيبين لدعوة الأنبياء وأنه لم توجد قرية آمنت بكاملها بنبيهم إلا قوم يونس

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج علينا النبي ﷺ يوما فقال: «**عرضت علي الأمم، فجعل يمر النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد، ورأيت سوادا كثيرا سد الأفق، فرجوت أن تكون أمتي فقيل هذا موسى وقومه، ثم قيل لي: انظر فرأيت سوادا كثيرا سد الأفق. فقيل لي: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سوادًا كثيرًا سد الأفق، فقيل: هؤلاء أمتك، ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب**». فتفرق الناس ولم يبين لهم. فتذاكر أصحاب النبي ﷺ فقالوا: أما نحن فولدنا في الشرك، ولكنا آمنا بالله ورسوله، ولكن هؤلاء هم أبناؤنا. فبلغ النبي ﷺ فقال: «هم الذين لا يتطيرون ولا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكاشة بن محصن فقال: أمِنْهم أنا يا رسول الله؟ قال: «**نعم**»، فقام آخر فقال: أمنهم أنا؟ فقال: «**سبقك بها عكاشة**»[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٤٥).

(٢) البقرة: الآية (٣). (٣) تفسير القرآن (٢/ ٤٠٦).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧١)، والبخاري (١٠/ ٢٥٩-٢٦٠/ ٥٧٥٢)، ومسلم (١/ ١٩٩-٢٠٠/ ٢٢٠)، والترمذي (٤/ ٥٤٤-٥٤٥/ ٢٤٤٦)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٨/ ٧٦٠٤).

★ **فوائد الحديث:**

وجه مطابقة الحديث للآية: الدلالة على قلة من آمن بالرسل من أهل القرى، وأنه لم توجد قرية آمنت بأكملها إلا قوم يونس، بل ما بعث اللَّه نبيا في قرية إلا كذبه قومه أو أكثرهم، وهذا المعنى مفهوم من قوله ﷺ في الحديث: «فجعل النبي يمر ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، والنبي ومعه الرهط، والنبي وليس معه أحد»، ولهذا الغرض أورده ابن كثير في تفسيره، واستدل به على هذا المعنى. واللَّه أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكر لنبيه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ بك، فصدّقوك أنك لي رسول، وأن ما جئتهم به وما تدعوهم إليه من توحيد اللَّه وإخلاص العبودة له حقّ، ولكن لا يشاء ذلك؛ لأنه قد سبق من قضاء اللَّه -قبل أن يبعثك رسولًا- أنه لا يؤمن بك ولا يتبعك فيصدّقك بما بعثك اللَّه به من الهدى والنور؛ إلا من سبقت له السعادة في الكتاب الأوّل، قبل أن يخلق السموات والأرض وما فيهنّ، وهؤلاء الذين عجبوا من صدق إيحائنا إليك هذا القرآن لتنذر به من أمرتك بإنذاره ممن قد سبق له عندي أنهم لا يؤمنون بك في الكتاب السابق. . .

وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ يقول -جل ثناؤه- لنبيه محمد ﷺ: إنه لن يصدقك يا محمد ولن يتبعك ويقرّ بما جئت به إلا من شاء ربك أن يصدقك، لا بإكراهك إياه ولا بحرصك على ذلك، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين لك مصدّقين على ما جئتهم به من عند ربك؟ يقول له -جل ثناؤه-: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1] الذين حقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون»[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ الآية

قال الشنقيطي: «صرح تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه لو شاء إيمان جميع أهل الأرض لآمنوا كلهم جميعًا، وهو دليل واضح على أن كفرهم واقع بمشيئته الكونية القدرية. وبين ذلك أيضًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾[3]،

---

(١) الحجر: الآية (٩٤).

(٢) جامع البيان (١١/ ١٧٣-١٧٤).

(٣) الأنعام: الآية (١٠٧).

وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[١]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات»[٣].

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ الآية

قال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن من لم يهده اللَّه فلا هادي له، ولا يمكن أحدًا أن يقهر قلبه على الانشراح إلى الإيمان إلا إذا أراد اللَّه به ذلك.

وأوضح ذلك المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[٤]، وقوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾[٥] وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[٦]، وقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾[٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًا كما تقدم في (النساء).

والظاهر أنها غير منسوخة، وأن معناها أنه لا يهدي القلوب ويوجهها إلى الخير إلا اللَّه تعالى: وأظهر دليل على ذلك أن اللَّه أتبعه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾»[٨].

قال صديق حسن خان: «وفي هذا تسلية له ﷺ، ودفع لما يضيق به صدره من طلب صلاح الكل الذي لو كان؛ لم يكن صلاحًا محققًا، بل يكون إلى الفساد أقرب، ولله الحكمة البالغة»[٩].

* * *

---

(١) السجدة: الآية (١٣).
(٢) الأنعام: الآية (٣٥).
(٣) أضواء البيان (٢/ ١٩٢).
(٤) المائدة: الآية (٤١).
(٥) النحل: الآية (٣٧).
(٦) القصص: الآية (٥٦).
(٧) الأعراف: الآية (١٨٦).
(٨) أضواء البيان (٢/ ١٦١-١٦٢).
(٩) فتح البيان (٦/ ١٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

★ غريب الآية:

الرجس: اسم لكل ما استقذر من عمل؛ يقال: رجُس الرجل يرجُس، ورجِس يرجَس: إذا عمل عملًا قبيحًا، وهو هنا اللعنة في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه: وما كان لنفس خلقتها من سبيل إلى تصديقك يا محمد إلا بأن آذن لها في ذلك، فلا تجهدنّ نفسك في طلب هداها، وبلِّغها وعيد اللَّه، وعرفها ما أمرك ربك بتعريفها، ثم خلّها، فإنّ هداها بيد خالقها.

وأما قوله: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فإنه يقول -تعالى ذكره-: إن اللَّه يهدي من يشاء من خلقه للإيمان بك يا محمد، ويأذن له في تصديقك فيصدّقك ويتبعك، ويقرّ بما جئت به من عند ربك، ويجعل الرجس -وهو العذاب وغضبُ الله- على الذين لا يعقلون، يعني الذين لا يعقلون عن اللَّه حججه ومواعظه وآياته التي دلّ بها -جل ثناؤه- على نبوّة محمد ﷺ وحقيقة ما دعاهم إليه من توحيد اللَّه، وخلع الأنداد والأوثان»[1].

* * *

(١) جامع البيان (١١/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾

★ غريب الآية:

انظروا: أي: تأملوا وتفكروا، وأصل النظر تقليب البصر إلى جهة الشيء المنظور.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قُلْ يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، السائليك الآيات على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد اللَّه وخلع الأنداد والأوثان: انظروا أيها القوم ماذا في السموات من الآيات الدالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله؛ من شمسها وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها، و في الأرْضِ من جبالها وتصدّعها بنباتها، وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها؛ فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم عظة ومعتبرا، ودلالة على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على تدبيره وحفظه ظهير، يغنيكم عما سواه من الآيات. يقول اللَّه -جل ثناؤه-: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: وما تغنى الحجج والعبر والرسل المنذرة عباد اللَّه عقابه عن قوم قد سبق لهم من اللَّه الشقاء، وقضى لهم في أمّ الكتاب أنهم من أهل النار؛ لا يؤمنون بشيء من ذلك ولا يصدّقون به ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[(١)]»[(٢)].

قال الشنقيطي: «أمر اللَّه -جل وعلا- جميع عباده أن ينظروا ماذا خلق في السموات والأرض من المخلوقات الدالة على عظم خالقها، وكماله، وجلاله،

(١) يونس: الآية (٩٧).

(٢) جامع البيان (١١/ ١٧٥).

واستحقاقه لأن يعبد وحده -جل وعلا-.

وأشار لمثل ذلك بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[١]، ووبخ في سورة «الأعراف» من لم يمتثل هذا الأمر، وهدده بأنه قد يعاجله الموت، فينقضي أجله قبل أن ينظر فيما أمره اللَّه -جل وعلا- أن ينظر فيه، لينبه بذلك على وجوب المبادرة في امتثال أمر اللَّه -جل وعلا- وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾[٢]»[٣].

* * *

(١) فصلت: الآية (٥٣).

(٢) الأعراف: الآية (١٨٥).

(٣) أضواء البيان (٢/ ١٦٣).

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

★ غريب الآية:

خلوا: مضوا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ محذّرًا مشركي قومه من حلول عاجل نقمه بساحتهم نحو الذي حلّ بنظرائهم من قبلهم، من سائر الأمم الخالية من قبلهم، السالكة في تكذيب رسل اللّه وجحود توحيد ربهم سبيلهم: فهل ينتظر يا محمد هؤلاء المشركون من قومك المكذّبون بما جئتهم به من عند اللّه، إلا يوما يعاينون فيه من عذاب اللّه مثل أيام أسلافهم، الذي كانوا على مثل الذي هم عليه من الشرك والتكذيب، الذين مضوا قبلهم فخلوا من قوم نوح وعاد وثمود، قل لهم يا محمد: إن كانوا ذلك ينتظرون، فانتظروا عقاب اللّه إياكم ونزول سخطه بكم، إني من المنتظرين هلاككم وبواركم بالعقوبة التي تحل بكم من الله»[1].

قال الشوكاني: «وفي هذا تهديد شديد، ووعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء ما نزل بأولئك من الإهلاك»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١١/ ١٧٥).

(٢) فتح القدير (٢/ ٦٦٥).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: انتظروا مثل أيام الذين خلوا من قبلكم من الأمم السالفة الذين هلكوا بعذاب اللَّه، فإن ذلك إذا جاء لم يهلك به سواهم، ومَن كان على مثل الذي هم عليه من تكذيبك، ثم ننجي هناك رسولنا محمدا ﷺ ومن آمن به وصدقه واتبعه على دينه، كما فعلنا قبل ذلك برسلنا الذين أهلكنا أممهم، فأنجيناهم ومن آمن به معهم من عذابنا حين حق على أممهم.

﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: كما فعلنا بالماضين من رسلنا فأنجيناها والمؤمنين معها وأهلكنا أممها، كذلك نفعل بك يا محمد وبالمؤمنين فننجيك وننجي المؤمنين بك، حقّا علينا غير شكّ»[1].

وقال ابن كثير: «﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حقًّا أوجبه تعالى على نفسه الكريمة كقوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[2]»[3].

وقال ابن القيم: «قد أخبر سبحانه في كتابه أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا إيجاب منه على نفسه، فهو الموجب، وهو متعلق الإيجاب الذي أوجبه، فأوجب بنفسه على نفسه. . ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4] فهذا حق أحقه على نفسه فهو طلب وإيجاب على نفسه، بلفظ (الحق)، ولفظ (على)، ومنه

(١) جامع البيان (١١/ ١٧٦).
(٢) الأنعام: الآية (١٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٩٩).
(٤) الروم: الآية (٤٧).

قوله ﷺ في الحديث الصحيح لمعاذ: «أتدري ما حق اللَّه على العباد؟» قلت: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. أتدري ما حق العباد على اللَّه إذا فعلوا ذلك؟» قلت: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «حقهم عليه: ألا يعذبهم بالنار»[(١)] ومنه قوله ﷺ في غير حديث: «من فعل كذا وكذا كان حقًّا على اللَّه أن يفعل به كذا وكذا» في الوعد والوعيد، فهذا الحق هو الذي أحقه على نفسه»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن اللَّه كتب على نفسه الرحمة وأوجب هذا الحق على نفسه من غير أن يوجبه عليه أحد

* عن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: «يا معاذ، أتدري ما حق اللَّه على العباد وما حق العباد على الله؟» قلت: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «حق اللَّه على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على اللَّه أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا»، قلت: يا رسول اللَّه، أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا»[(٣)].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن اللَّه كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق: أن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش»[(٤)].

★ **فوائد الحديثين:**

دلت الآية والحديثان أن هذا الحق أوجبه اللَّه على نفسه من غير أن يوجبه عليه أحد.

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٢٨)، والبخاري (١٠/ ٤٨٧/ ٥٩٦٧)، ومسلم (١/ ٥٨/ ٣٠)، وأبو داود (٣/ ٥٥/ ٢٥٥٩).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٦٠-١٦١).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٤٢)، والبخاري (٦/ ٧٢-٧٣/ ٢٨٥٦)، ومسلم (١/ ٥٠/ ٢٩)، والترمذي (٥/ ٢٦/ ٢٦٤٣)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٥-١٤٣٦/ ٤٢٩٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٨١)، والبخاري (١٣/ ٦٣٩/ ٧٥٥٤)، ومسلم (٤/ ٢١٠٧/ ٢٧٥١)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٨/ ٧٧٥٧).

قال شيخ الإسلام: «لا ريب أن اللَّه جعل على نفسه حقًّا لعباده المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وكما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[2]. . فهذا حق وجب بكلماته التامة، ووعده الصادق.

وقد اتفق العلماء على وجوب ما يجب بوعد اللَّه الصادق، وتنازعوا هل يوجب اللَّه بنفسه على نفسه، ويحرم بنفسه على نفسه؟ على قولين. ومن جوز ذلك احتج بقوله سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، وبقوله في الحديث القدسي الصحيح: «إني حرمت الظلم على نفسي. .» إلخ. والكلام على هذا مبسوط في موضع آخر. وأما الإيجاب عليه ﷻ والتحريم بالقياس على خلقه، فهذا قول القدرية، وهو قول مبتدع مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول. وأهل السنة متفقون على أنه سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن العباد لا يوجبون عليه شيئًا. ولهذا كان من قال من أهل السنة بالوجوب؛ قال: إنه كتب على نفسه الرحمة، وحرم الظلم على نفسه؛ لا أن العبد نفسه مستحق على اللَّه شيئًا كما يكون للمخلوق على المخلوق؛ فإن اللَّه هو المنعم على العباد بكل خير؛ فهو الخالق لهم، وهو المرسل إليهم الرسل، وهو الميسر لهم الإيمان والعمل الصالح. ومن توهم من القدرية والمعتزلة ونحوهم أنهم يستحقون عليه من جنس ما يستحقه الأجير على المستأجر فهو جاهل في ذلك»[3].

وقال الشيخ صالح الفوزان: «هذا الحق للعباد على اللَّه ليس بحق واجب على اللَّه، وإنما هو تفضُّل منه ﷻ؛ لأن اللَّه لا يجب عليه حق لأحد، ولا أحد يوجب على اللَّه شيئًا؛ وإنما هذا مذهب المعتزلة؛ هم الذين يرون أن اللَّه يجب عليه العدل، يجب عليه أن يعمل كذا، يوجبون على اللَّه بعقولهم، أما أهل السنة والجماعة فيقولون: اللَّه ﷻ ليس عليه حق واجب لخلقه، وإنما هو شيء تفضَّل به سبحانه وتكرَّم به؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، هذا حق تفضل

---

(١) الروم: الآية (٤٧).

(٢) الأنعام: الآية (٥٤).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (ص: ٤٠٩-٤١٠).

به، ونظم ذلك الشاعر بقوله:

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا عمل لديه ضائع
إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا فبفضله وهو الكريم الواسع

فمعنى «حق العباد على الله» يعني: الحق الذي تفضل اللَّه تعالى به، وأوجبه على نفسه، من دون أن يوجبه عليه أحد من خلقه؛ بل هو الذي أوجبه على نفسه تكرّمًا منه بموجب وعده الكريم الذي لا يُخلفه سبحانه ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾[1]»[2].

* * *

(١) الروم: الآية (٦).

(٢) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (١/ ٦٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك الذين عجبوا أن أوحيت إليك: إن كنتم في شكّ أيها الناس من ديني الذي أدعوكم إليه فلم تعلموا أنه حقّ من عند الله؛ فإني لا أعبد الذين تعبدون من دون اللَّه من الآلهة والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عني شيئا، فتشكّوا في صحته. وهذا تعريض ولحن من الكلام لطيف. وإنما معنى الكلام: إن كنتم في شكّ من ديني، فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه، وإنما ينبغي لكم أن تشكوا في الذي أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تعقل شيئا ولا تضرّ ولا تنفع، فأما ديني فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه؛ لأني أعبد اللَّه الذي يقبض الخلق فيميتهم إذ شاء، وينفعهم ويضرّهم إن شاء، وذلك أن عبادة من كان كذلك لا يستنكرها ذو فطرة صحيحة، وأما عبادة الأوثان فينكرها كل ذي لبّ وعقل صحيح.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ يقول: ولكن أعبد اللَّه الذي يقبض أرواحكم فيميتكم عند آجالكم. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: وهو الذي أمرني أن أكون من المصدّقين بما جاءني من عنده»[١].

* * *

(١) جامع البيان (١١/ ١٧٦-١٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حنيفًا: الحنيف: المائل عن الباطل الملتزم للحق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ﴾ و﴿أَنْ﴾ الثانية عطف على ﴿أَنْ﴾ الأولى. ويعني بقوله: ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أقم نفسك على دين الإسلام حنيفًا مستقيمًا عليه، غير معوجّ عنه إلى يهودية ولا نصرانية ولا عبادة وثن. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: ولا تكوننّ ممن يشرك في عبادة ربه الآلهة والأنداد فتكون من الهالكين»[1].

قال الشنقيطي: «أوضح هذا المعنى في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[2]»[3].

* * *

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٧٧).

(٢) الروم: الآية (٣٠).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٤٩٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولا تدع يا محمد من دون معبودك وخالقك شيئا لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرّك في دين ولا دنيا، يعني بذلك الآلهة والأصنام، يقول: لا تعبدها راجيا نفعها أو خائفا ضرّها، فإنها لا تنفع ولا تضرّ، فإن فعلت ذلك فدعوتها من دون اللَّه ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول: من المشركين باللَّه، الظالمي أنفسهم»[(١)].

قال المراغي: «وقد جاء في معنى الآية آيات كثيرة متفرقة في السور؛ لانتزاع هذا الشرك من قلوب السواد الأعظم من الناس، وقد انتزع من قلوب الذين أخذوا دينهم من كتاب ربهم، وكانت عبادتهم له دعاءه بالغدو والآصال والليل والنهار، وفيها نعي على الذين هجروا تدبر القرآن، وتلقّوا عقائدهم من الآباء والأمهات والمعاشرين الأميين الجاهليين، فتوجهوا إلى القبور فزيّنوها بالسرج والمصابيح، ودعوها من دون اللَّه، وتقربوا إليها بالهدايا والنذور لتكشف عنهم الضر، وتعطيهم ما يرجون من النفع. ويتأولون هذه الآيات الكثيرة فيزعمون أنها خاصة بعبادة الأصنام والنذر للأوثان والتعظيم للصلبان؛ كأن الشرك باللَّه جائز من بعض المخلوقين دون بعض»[(٢)].

قلت: وهكذا يكرر شيخ الأزهر نعيه على عباد القبور الوثنيين، الآكلين أموال الناس بالباطل ويظنون أنهم يحسنون صنعًا! أولئك هم الخاسرون.

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٧٧).

(٢) تفسير المراغي (١١/ ١٦٣).

قال ابن عطية: «وهذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ إذا كانت هكذا فأحرى أن يتحرز من ذلك غيره»[(١)].

* * *

(١) المحرر الوجيز (٣/ ١٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

كاشف: مزيل ودافع، وأصل الكشف إزالة الغطاء ونحوه عن الشيء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه: وإن يصبك اللَّه يا محمد بشدّة أو بلاء؛ فلا كاشف لذلك إلا ربك الذي أصابك به دون ما يعبده هؤلاء المشركون من الآلهة والأنداد. ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يقول: وإن يردك ربك برخاء أو نعمة وعافية وسرور؛ ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ يقول: فلا يقدر أحد أن يحول بينك وبين ذلك، ولا يردّك عنه ولا يحرمكه؛ لأنه الذي بيده السرّاء والضرّاء دون الآلهة والأوثان ودون ما سواه. ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يقول: يصيب ربك يا محمد بالرخاء والبلاء والسرّاء والضرّاء من يشاء ويريد من عباده، وهو الغفور لذنوب من تاب وأناب من عباده من كفره وشركه إلى الإيمان به وطاعته، الرحيم بمن آمن به منهم وأطاعه أن يعذّبه بعد التوبة والإنابة»[1].

قال ابن عطية: «مقصد هذه الآية أن الحول والقوة لله، ويبين ذلك للناس بما يُحسّونه من أنفسهم. و(الضر) لفظ جامع لكل ما يكرهه الإنسان؛ كان ذلك في ماله أو في بدنه. وهذه الآية مظهرة فساد حال الأصنام، لكن كل مميز أدنى ميز يعرف يقينا أنها لا تكشف ضرًّا ولا تجلب نفعا»[2].

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٧٧).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ١٤٧).

قلت: وعبادة القبور من عبادة الأصنام، وكما قال ابن عطية إن كل مميز أدنى تمييز يعرف أنها لا تكشف ضرًّا ولا تجلب نفعًا، لكن مع الأسف عُبّاد القبور في زماننا فقدوا التمييز، فلا فرق بينهم وبين البهائم، بل ربما كانت البهائم أفضل منهم، يعبثون بأموالهم، ويقعون في الموبقات التي حرمها اللَّه، واللَّه المستعان.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الله هو مالك النفع والضر لا يشاركه في ذلك أحد سبحانه

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كنت خلف رسول اللَّه ﷺ يومًا فقال: **«يا غلام! إني أعلمك كلمات: احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعن باللَّه. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»**[1].

★ فوائد الحديث:

في الحديث بيان أن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى اللَّه، لا يشاركه في ذلك أحد، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له.

قال ابن رجب تعليقًا على قوله ﷺ في الحديث: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت..» إلخ، قال: «واعلم أن مدار جميع الوصية على هذا الأصل، وما ذكر قبله وبعده فهو متفرع عليه وراجع إليه، فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب اللَّه له من خير وشر، ونفع وضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد ألبتة؛ علم حينئذ أن اللَّه وحده هو الضار النافع، المعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه ﷻ، وإفراده بالطاعة، وحفظ حدوده، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار، ولهذا ذم اللَّه من يعبد من لا ينفع ولا يضر، ولا يغني عن عابده شيئًا، فمن علم أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يعطي ولا يمنع غير

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٤/ ٥٧٥-٥٧٦/ ٢٥١٦) وقال: «حسن صحيح».

الله؛ أوجب له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء، وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعًا، وأن يتقي سخطه ولو كان فيه سخط الخلق جيمعا، وإفراده بالاستعانة به، والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عند الشدائد ونسيانه في الرخاء، ودعاء من يرجون نفعه من دونه؛ قال اللَّه ﷻ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[1]»[2].

* * *

(١) الزمر: الآية (٣٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بوكيل: الوكيل الحافظ للشيء الذي يحوطه ويدفع عنه الضرر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: كتاب الله، فيه بيان كلّ ما بالناس إليه حاجة من أمر دينهم، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ يقول: فمن استقام فسلك سبيل الحقّ، وصدّق بما جاء من عند الله من البيان. ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ يقول: فإنما يستقيم على الهدى، ويسلك قصد السبيل لنفسه، فإياها يبغي الخير بفعله ذلك لا غيرها. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ يقول: ومن اعوجّ عن الحقّ الذي أتاه من عند الله، وخالف دينه، وما بعث به محمدًا والكتاب الذي أنزله عليه. ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ يقول: فإن ضلاله ذلك إنما يجني به على نفسه لا على غيرها لأنه لا يؤخذ بذلك غيرها ولا يورد بضلاله ذلك المهالك سوى نفسه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ يقول: وما أنا عليكم بمسلط على تقويمكم، إنما أمركم إلى الله، وهو الذي يقوّم من شاء منكم، وإنما أنا رسول مبلغ أبلغكم ما أرسلت به إليكم»[2].

* * *

(١) الأنعام: الآية (١٦٤).

(٢) جامع البيان (١١/ ١٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: واتبع يا محمد وحي اللَّه الذي يوحيه إليك وتنزيله الذي ينزله عليك، فاعمل به واصبر على ما أصابك في اللَّه من مشركي قومك من الأذى والمكاره وعلى ما نالك منهم حتى يقضي اللَّه فيهم وفيك أمره بفعل فاصل. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ يقول: وهو خير القاضين وأعدل الفاصلين»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ في هذا القرآن علمًا وعملًا وتعليمًا، ﴿وَٱصْبِرْ﴾ كما صبر أولو العزم من الرسل على ما يصيبك من الأذى في ذات اللَّه، والجهاد به في سبيل اللَّه ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بينك وبين المكذبين لك، وينجز لك ما وعدك، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي: كل من يقع منهم حكم؛ لأنه لا يحكم إلا بالحق، وغيره قد يحكم بالباطل لجهله الحق أو لمخالفته له باتباع الهوى. وقد امتثل ﷺ أمر ربه، وصبر حتى حكم اللَّه بينه وبين قومه، وأنجز وعده له ولمن اتبعه من المؤمنين، فاستخلفهم في الأرض، وجعلهم الأئمة الوارثين، مدة إقامتهم لهذا الدين»[2].

قال الشنقيطي: «لم يبين هنا ما حكم اللَّه به بين نبيه وبين أعدائه، وقد بين في آيات كثيرة أنه حكم بنصره عليهم، وإظهار دينه على كل دين، كقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾[3] إلى آخر السورة وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[4] إلى آخرها،

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٧٨).

(٢) تفسير المنار (١١/ ٤٩٣).

(٣) النصر: الآية (١). (٤) الفتح: الآية (١).

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات»[2].

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا
انتهى تفسير سورة (يونس) ولله الحمد والمنة
وبه التوفيق والعصمة ولا حول ولا قوة إلا بالله

* * *

(١) الرعد: الآية (٤١).
(٢) أضواء البيان (٢/ ٤٩٤).

فهرس الموضوعات

سورة يونس

* * *